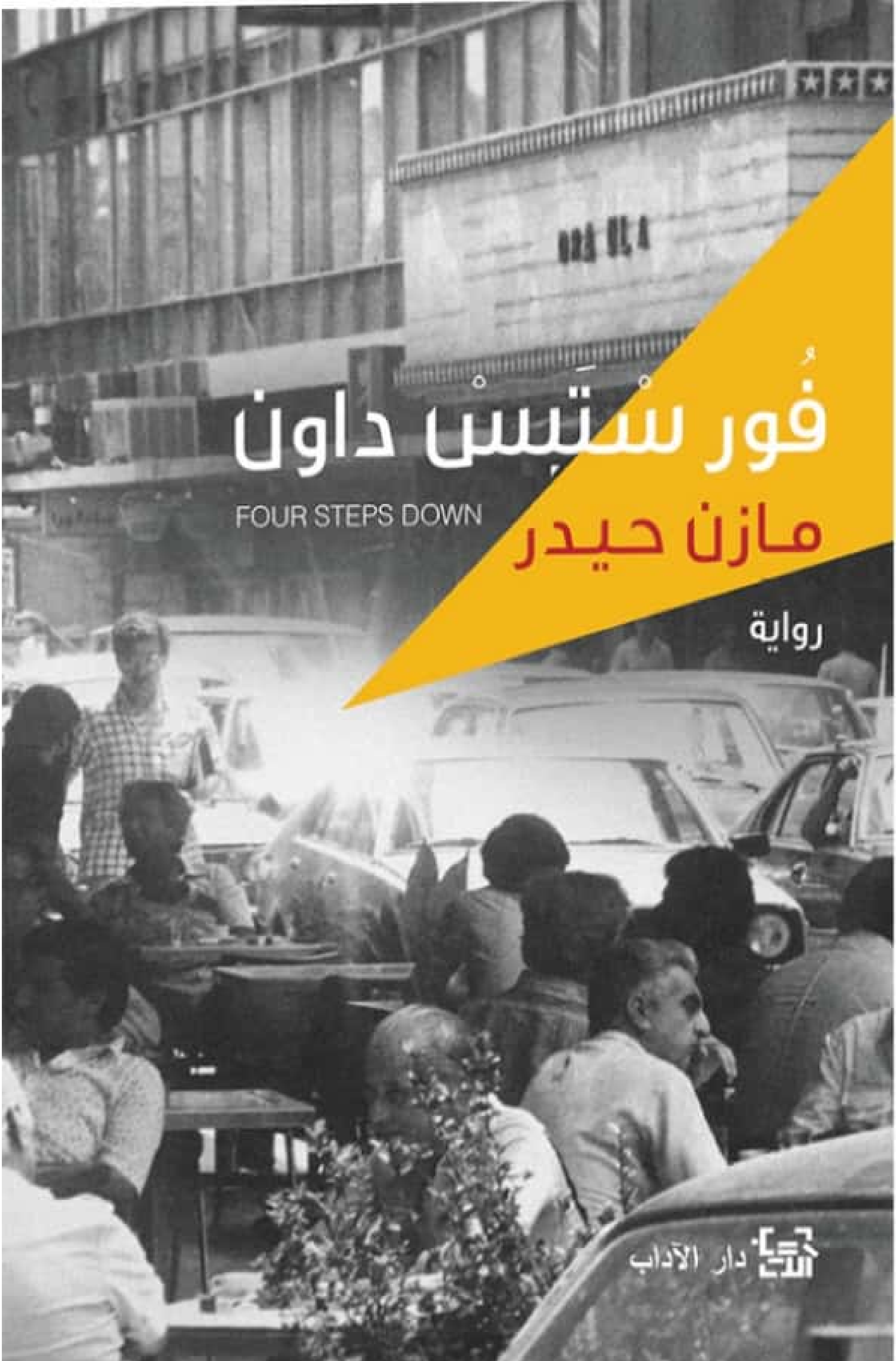

فُور سْتيبس داون

FOUR STEPS DOWN

مازن حيدر

رواية

دار الآداب

مازن حيدر

فور ستبس داون

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة©

إلى لوسيان تليد صاعد الدَّرجات الأربع... لا نازِلها

الأحداثُ والشخصيَّات والأسماء في هذه الرواية من نسج الخيال. وإذا وُجد أيَ شبه بين شخصيَّاتها وبين أشخاص حقيقيِّين فلن يكون ذلك إلا محضَ صدفة.

أمَا «فور ستبس داون» فهو الاسمُ الحقيقيَ لمكتبة وُجِدت بالفعل في شارع الحمراء في بيروت قبل أن يندَثر اسمُها مع ما اندثر من أسماءِ وبيوتِ وأشكال.

محا راجي اليوم جميع رسائل داني الكك الخطيّة من هاتفه. كان الهاتف مثقلًا بالخطابات المُرسلة والواردة. وكانت الجملة التي تُنذرُ بتضاؤل ذاكرة الجهاز المحمول قد لازمت أيّ عمليّة في هاتفه البسيط منذ فترة طويلة. وكان تارةً يلجأ لمسح آخر رسائل تلقّاها من موظّف في المكتب، أو ينتقي مرغمًا رسالة من هُنا أو من هُناك بعد أن يُعيد قراءتها، يعترف في قرارة نفسه بعدم جدواها على مضض، ويعودُ فيمسحها علّه يستعيد بعضًا من ذاكرة هاتفه القديم. رسائل زاد عمرها على سنتين أو أكثر، تكدّست منذ رجوعه إلى البلاد وأثقلته بأخبار وأسئلة. رسائل معايدة تذكّره بمناسباتٍ خلت. لم يكُن يستعيدُ قراءتها أو يفتحُ أيًا منها. كان وجودها يطمئنهُ ويُرضيه. كأنّه امتلك الحدث والأيّام، فيوصد الطريق أمام النسيان.

كان كلّما اختزل رسالةً من ذاكرة الجهاز وخزه شيءٌ ما في صدره. يحبسُ أنفاسه لحظة ويكادُ أن يُغمضَ عينيه. يضغط على زرّ اليسار. يُلغي الرّسالة. يُبعدُ جهاز الهاتف عنه كمن يهرب من فعلٍ مشين.

لم يعرف كيف تجرّأ في هذا اليوم بالذات على فعلته هذه. رحل داني الكك متوجّهًا إلى الولايات المُتحدة، ولم يعُد. اشتدّ الحرُّ على السّواحل ونزح الكثيرون إلى الأعالي. وباتت أعطال الكهرباء تتكرّر حتى داخل العاصمة. أحسّ بإعياءٍ شلَّ حركته، فلازم البيت ولم يُبارحه إلّا في ساعات الصباح قاصدًا مبنى كلّيّة العمارة. رحّب بعرض رئيسة القسم، ووافق رأسًا على تدريس مادّتين في فصل الصيف. عشرُ ساعات تتوزّع على أربعة أيّام في الأسبوع. فبعد أن تقلّصت ساعات دوامه في المكتب، بات يُنفّذ رسوماته من بيته الجديد في شارع أرتوا، ويُرسلُ الملفّات المنجزة عبر الإنترنت عند انسدال اللّيل.

بدّل مع قدوم فصل الرّبيع عادته اليوميّة بزيارة سارية عند المساء. يعود من المكتب في محيط المتحف الوطني، ويمرُّ بشارع سليم البستاني ومنزل سيزار حيث قطنت أمُّه منذ انتهاء الحرب. تُعدُّ سارية عشاءً خفيفًا. تُقطّع شرحات البصل وتضعها في صحن من صحون فناجين القهوة المموّجة الأطراف، تُضيف قطعتين من كبيس الخيار، ثمّ ترشُّ البهار بوفرةٍ على رؤوس البطاطا المسلوقة. تنهضُ بصمتٍ من مقعد غرفة الطعام، كلّما تذكّرت غرضًا كالملح أو الزيت أو سلّة الخبز الصفراء. تنهمكُ بتقشير

وهَرس ما أمامها، ثمَّ تبدأ بالمضغ ساهيةً. ينكفئ عن مراقبتها، ويغيبُ في مشهد الكراتين المُتكوِّمة في أرجاء الغرفة.

لا يهتدي إلى قواه لمساعدتها في رفع أطباق المائدة. يُديرُ ظهره للخزانة وهي جاثمة أمام المجلى. يتصفَّحُ بعض الأوراق والصُحف المُتكدِّسة، رتَّبتها سارية فوق خزانة من خزائن سيزار القديمة. تتقصَّى عن معاملات المصرف وأخبار شقَّتهما الجديدة. تُزوِّده بأوعية بلاستيكيَّة ملأى بالطعام يحملها معه في اليوم التالي إلى مكتبه. يخرج من عندها ويسلك الطريق صعودًا إلى أن يبلغ العمود الروماني، فيلتفُّ يمينًا أمام كلِّيَّة الحقوق، ثمّ يسلك الخطّ المستقيم باتِّجاه وزارة السياحة. يتأنَّى في مشيته عند سينما الإتوال، ويحدِّق بالأضواء المُنبعثة من أعالي البناء تُنيرُ الواجهات الزجاجيَّة.

تغيَّرت مواعيد تنقُّلاته، فكُسرت رتابة حياته الجديدة في بيروت. وصار إذا خرج نحو المكتب، عاد في أوقاتٍ غير منتظمة وسلك الطرقات الداخليَّة تجاه شارع الاستقلال فتلّة الدروز نزولًا نحو شارع أرتوا. لم يعُد يترك شقَّته الجديدة إلّا نادرًا. يفتحُ الشبابيك ولا يُقفلها حتى عندما يعود التيَّار وينطلق المُكيِّف. يسعى ألّا يعتاد على الاسترخاء خوفًا من لحظة مفاجئة، تبدِّد شعوره المُطمَئنّ. يُبقي الوضع على حاله. فحين يعود التيَّار الكهربائي، ينتابه إحساسٌ بالرَّاحة. يتوق للثبات ولا يجده.

لم يُفلح صمتُ سارية وانكفاؤها عن سؤاله عن تحرُّكاته بإقناعه بالإقامة معها في شقَّة سيزار. أحجمت عن سؤاله عن أحواله في البيت الجديد، وواظبت على إكرامه بوجبات طعام للغداء تعلَّمتها من خالتها فيوليت. تمرَّست منذ تقاعدها بانتقاء الوصفات السهلة، وكرَّست لكلّ يومٍ من أيَّام الأسبوع طبقًا خاصًّا.

شعر راجي أنَّه أخطأ عندما أقرّ لها بسبب إصراره على السَّكن بمفرده في شقَّةٍ صغيرة في شارع أرتوا. تمنَّى لو كان اكتفى بالقول إنَّه اعتادَ العيش بمفرده في سنين الدراسة، أو إنَّه يتحسَّب لزيارات فراس المُتوقَّعة في عيدَي الميلاد ورأس السنة أو في شهر تشرين الأوَّل بداية الخريف. لم يجد مفرًّا من إخبارها أنَّ أعمال البناء في الشُّقَّة الجديدة قد توقَّفت، وأنَّه سمع من المهندس المدنيّ أنَّه رصد انحرافًا في عمود الخرسانة في الطابق الخامس. ردَّت شركة البناء الخطأ لتعثُّرٍ فنّي، واتَّهم المهندس المدنيّ المقاول بالتقصير. أفرغ كلّ ما عنده وزوَّدها بكافَّة التفاصيل، بينما كانت تغرفُ بملعقةٍ خشبيَّة ما تبقَّى من الحساء في القدر

المعدنيِ، وتسكبها في وعاء البلاستيك. تستمعُ ولا تُحرّكُ ساكنًا. تبحثُ عن تعليقٍ إيجابيٍ تكسرُ به إيقاع الموقف. كأن تقول مثلًا إنَّها، بالمُختصر، راضية بالبقاء في بيت سيزار إلى حين يأتي من يُنذرهم بإخلاء العقار متى تمت صفقة بيعه، ومصير العقار مرهون بخروج المستأجرين الأرمن في الطابق الثاني المُتشبثين بتعويضٍ خيالي.

تراجع راجي في سرده أخبار بناية شقَّتهم المُنتظرة. اصطنعت ابتسامة صفراء لتوهمه أنَّ لا ضرر من التأخير، وضعت الوعاءين في كيسٍ بلاستيكيٍ أبيض كان استخدمه ليحمل به الأوعية الفارغة، ثمّ التفت حول نفسها بحركةٍ خاطفة، كأنَّها تبحثُ عن غرضٍ ما تُضيفه إلى زوّادة إبنها لليوم التالي.

أيقنت أنّ انتظارها في بيت سيزار سيطولُ أكثر، وأنَّها لن تنتزع من ابنها أيّ وعدٍ جديدٍ بالبقاء إلى جانبها. ها هو قد أصبح رجلًا قادرًا على دفع بدل الإيجارات الجديدة، والسّفر مرّةً أو مرّتين في السّنة. عملَ في مكتب للهندسة المعماريَّة والمقاولة في جوار مبنى المتحف الوطني، وما لبثَ أنْ بدأ تعاقده في الجامعة للتدريس. استغربت في البدء كيف لم يُقدم على شراء سيّارة إسوةً بسائر الشباب من جيله، وخشيت أن يكون قد بدأ يُبدِّد مدخوله على أمور طارئة أخرى. أسمعها مرارًا أنَّه يرتاد مقهًى في شارع المقدسيِ أيّام السبت، لتحضير الدروس النظريَّة بعيدًا عن بيته وبيتها، وأنَّ غرف المنامة المظلمة إلى جانب الحديقة الخلفيَّة في شقَّة سيزار، قد لا تهيئ له جوًّا أفضل للعمل من شقَّته في شارع أرتوا. فهو، في كلِّ حالٍ يروِّحُ عن نفسه بالتنقُّل بين المقاهي المنتشرة. يتناول الغداء بمفرده، ويكمِّلُ قراءاته، ثمّ ينزوي في مقعدٍ خلفيٍ عند العصر يحتسي كأسًا أو كأسين من النبيذ الأحمر، يُلملم قُصاصات الورق ويعودُ بعدها إلى بيته.

تُركِّز انتباهها للاستماع إليه، تُعدِّلُ من حركة رأسها، تحنيه وتُحدِّقُ به لتوليه الاهتمام اللّازم. تأخذها أفكارها الحائرة إلى صورة أبيها ميخائيل يتعثَّر بعتبة الباب مخمورًا ليلةً من ليالي الصيف في قريتها البعيدة. ينحني فوق طاولة الدّار ثمّ يتَّكئ على طرف المقعد، فيهبط أرضًا من إفراطه في الشرب في سهرات لعب الورق. تُسارعُ إلى تبديد الصُّورة وهي ترمق راجي، يطوف أمامها بخطىً متمهِّلة حول الأثاث المتكوِّم وسط ردهة الجلوس، تنهزمُ صورة طفولتها من الزمن الماضي، وتبقى صورة إبنها الثاني، العائد إلى لبنان، تبقى حاضرةً جميلةً أمامها.

لم تعُد تسأله عن أحواله الماديَّة، لكنّها قدَّرت في النّهاية أنّه يدَّخرُ المال مقتِّرًا من مصروفه، كما كان يفعل أبوه جليل أيّام الشدّة. كان عندما يسافرُ في رحلةٍ أسبوعًا واحدًا قرابة منتصف شهر آب، يعودُ بعدها لفترة تقشُّفٍ صارمة، يترفَّع عن عادات نهاية الأسبوع، ويُسرف بالتقنين إلّا بما يحمله إليها بين الحين والآخر من أجبان فرنسيَّة من متجرٍ قريبٍ من شقَّته في شارع أرتوا. لم تقتنع أنَّ راتبه كافٍ ليؤمِّن مستقبلًا له في بيروت، أو لأن يستمرَّ بالإنفاق على إيجاراتها الملتهبة. تغضَ كلّما سمعت عن ارتفاع أسعار الإيجارات نتيجة استغلال نزوح السوريِّين الميسورين من أهل المُدُن مثل حلب ودمشق، وأخذت تُحصي عدد المرّات التي سافر فيها راجي في رحلات استجمامٍ، منذ عاد إلى لبنان نهائيًا قبل عامين وبضعة أشهرٍ يوم توفّي أبوه جليل.

لكنّ راجي عرِف كيف يُطمئنها يوم فاجأها بهديَّة قيّمة، أعادت إليها شيئًا من الفرح. نزل من بيته صباح يوم سبت من أواخر حزيران إلى شركة الطيران، عازمًا على شراء التذكرة التي حجزها لها يوم قدّمت أوراق طلب تأشيرة السفر. أعلم فراس أنَّه بصدد تسديد القيمة كلِّها، وأنَّه إذا شاء هو فليقدّم لها رحلةً داخل أوروبا في فترة عطلتها هناك. عدَّد له أسماء مدنٍ ومراكز سياحيَّةٍ قريبة منه، كأنَّه يمتحن أخاه الأكبر إذا كان قد حسبَ حسابًا لزيارة أمِّه الطويلة. وصل إلى مبنى مركز الجيفينور. توجَّه نحو الصرّاف الآلي. انحنى فوق الشّاشة متّكئًا بيده على جدار الرُّخام الأبيض، تلفَّت خلفه نحو الدرج اللّولبي، فرأى السّاحة خالية ذاك الصّباح إلّا من حارس جالس على كرسيٍّ حديديٍّ متهالك، يتجاذب أطراف الحديث مع موظَّفة من شركة الطيران الوطنيَّة. نقر أيقونة على يسار الشّاشة، وطلبَ مبلغًا يفوقُ ما يحتاجه بمئتي ألف ليرة. أمسك بالأوراق النقديَّة، عدَّها مرَّة واحدة، ثمَّ حشرها في محفظته الجلديَّة بين بطاقتي الائتمان وورقتين ماليَّتين من فئتي العشرين والعشرة آلاف. نقل المحفظة من جيبه الخلفيّ إلى الأماميّ، واتَّجه إلى مكتب السفريات.

أحسَّت سلفًا من حركته المتسارعة بين المطبخ والصالون، أنَّه يغافلها ويعدّ أمرًا ما عند طاولة الزاوية المستديرة حيث ترمي بأغراضها. فلمّا استدارت ولمحت من بعيد بطاقة السفر ملقاةً فوق حقيبة يدها، أفرجت عن صيحةٍ تظاهرت بها بالمفاجأة. تقدَّمت نحو الطاولة، وأمسكت الورقة بكلتا يديها راسمةً على وجهها تعابير تُشبه الإحراج والأسف. رفعت حاجبها مبالغةً من دهشتها بهديّة راجي، وانصرفت لتهيِّئ مأدبة العشاء.

عاتبته وذكّرته أنّها ادّخرت ما يكفي من المال لكي تشتري البطاقة بنفسها، وأنّ أخاه فراس أبلغها مرّةً أنّه سيُساهم بالدفع، فلِم ينفردُ هو بالمسؤوليّة هذه؟ عاودتها الريبة، فخشيت أن يُقتّر على نفسه فيحرمها من ملذّات الحياة، لكي تمضي هي موسم الصّيف في بيت ابنها البكر في الدانمارك. أنجزت جميع أوراق تأشيرة السفر في يومين فقط، بعد أن كانت تقاعست عن تحضيرها تاركةً الاستمارة التي طبعها لها راجي ملقاةً على الطاولة في المدخل أسبوعًا كاملًا. سألت عن كلمات، واستفسرت عن رموز أدرجت على القائمة عند يمين الصفحة. توخّى الحذر في إجاباته. أمسك الطلب، ورفعه إلى مستوى عينيه متفحّصًا كلَّ سؤال باحثًا عن إجابةٍ فوريّة.

كلّما طالعها باقتراحٍ للخروج نهار الأحد، تذرّعت بألف سببٍ وسبب لكي تلازم البيت، فيحجم عن طلبه ويمضي لأمور الحياة. رضخ لإصرارها على مضض عدّة مرّاتٍ، ورآها تنسحبُ إلى أشغال المطبخ فالتطريز أمام التلفزيون مثل باقي أيّام الأسبوع. تصوّرها، وهو يخرج من بوابة الحديد متّجهًا صوب الحمراء، وحيدةً برحيله في بيتٍ أكله الأثاث القديم والصناديق المُكدّسة. رآها ترمي بجسمها الهزيل على كنبة أتى بها والده من بيت شارع ليون حين أخلوه، تتناول سماعة الهاتف، وتطلب رمز الصفر تسعة متأنّيةً بالضّغط على الأرقام السّتة الأخرى. تُجيبها خالتها فيوليت من الدير الأزرق، قريتها البعيدة في جرود جبيل، تُحادثها بصوتٍ أجشٍ كأنّها استفاقت من النوم لتوّها.

عشرُون عامًا مرّت على انتقال سارية مع ابنيها إلى بيت سيزار في شارع البستاني في محلّة الظّريف. ظلّت تتخبّط في بدايتها لاضطرارها مرّةً أخرى أن تطأ بيتًا غريبًا، وتنامُ في فراش آخرين وتستخدم مرحاضهم. هكذا.. إلى أن استكانت واستسلمت لقدرها بعد وفاة زوجها، فعادت لتضع الأمور في نصابها ولتبتسم لتفاصيل الحياة. تخلّصت من دقّات القلب المتسارعة تصيبها كلّما استرجعت اليوم الذي رضخ فيه جليل لضغوط شاغلي بيتهم في حيّ السّد، وتنازل عن حقّهم بالعودة مقابل تعويضٍ زهيد. تسترجع لحظات رحيلهم عن بيتهم الأوّل خلف بستان البرتقال قاصدين غرب بيروت، عندما ضاق جليل ذرعًا من مضايقات أهل الحيّ المُلتحين. يسألونه عن طريقة ركنه سيّارة الفولفو الحمراء. يتفحّصونها كلّ يومٍ من نوافذها الخلفيّة، ويتعمّدون التجمُّع أمامها في ساعات اللّيل. يسألونه عن سيّارات الجيران ممتحنين رباطة جأشه. عاين أحدُ الشبّان بطاقة هويّته بحجّة حفظ الأمن، وهو يتوجّه مع ابنيه نحو باب بيتهم آخر

الطلعة. نطق بلهجة أهل الشمال بلطفٍ مصطنعٍ، وسأله عمّا إذا كان سمع برجلٍ ذي إسمٍ سرياني يُتاجرُ ببطاقات الهويّة اللبنانيّة، يُزوِّرها في مطبعةٍ في بيروت الغربيّة، ويبيعها لعرب المسلخ وفلسطينيّين هربوا من تلّ الزعتر. يرمقه جليل بنظرةٍ حانقة، ويلوذُ بالصمت الذي تمرّس باللُّجوء إليه كلّما اعترض أحدهم طريقه. ترتبكُ سارية لأدنى حركة تصدرُ من مراقبي الحي، وتلجأ لجارهم في الشقّة المواجهة في الطابق الأرضيّ تشكو له بكلامٍ مقتضب ما يعانيه زوجها، إذا ابتعد عن الحيّ حيث دار المطبوعات التي يعمل فيها. توهمهم أنّه لا ينوي مغادرة المنطقة، وإن كانت هي من يدفعُ غاليًا ثمن موقع سكنهم هذا بانتقالها يوميًا إلى المدرسة التي تعمل في مكتبتها في حيّ البطريركيّة في الغربيّة. ذكّرتهم مرارًا بأنّها تبحث عن عملٍ قريب، وكرّرت تفاصيل يوميّاتها على مسمع من كثيرين. تستيقظُ كلّ يوم ما عدا يومي السبت والأحد عند بزوغ الفجر، يمرّ اسكندر بسيّارة الأجرة في تمام الخامسة والنصف، ويقف عند سور حديقة الآكّي دنيا. تجلسُ في المقعد الخلفيّ قرب مدرّسة الصفوف الإبتدائيّة تتبادلان بعض الكلام، وتُشركان موظّف المطار بالحديث بعض الأحيان. يمضي بهم اسكندر إلى سفح تلّة السيوفي، ليصطحب موظّفةً في مكتبة شارع الحمراء تجلسُ في الخلف قربهما ولا تتكلّم إلّا في ما ندر. يجتازون معبر المتحف، يتصبّحون بنفسِ الوجوه يوميًا عند الحاجزين الأوّلين، يبتسمُ موظّف المطار للمسلّح الأوّل ويسأله أحيانًا عن أقرباء له. تنعطفُ السيّارة يمينًا عن الحاجز الأخير، يطلب الشبان ذوو العضلات المفتولة البارزة في عزّ فصل الشتاء بطاقات الهويّة، ويكتفون أحيانًا بالأوراق الثبوتيّة للرّجلين فقط. يتواعدُ الجميع على لقاء اسكندر عند الثالثة أمام مستشفى البربير، باستثناء موظّفة المكتبة التي كانت تعودُ مساءً بسيّارة أجرة أخرى إلى المعبر، كما أخبرتهم يومًا، فتجتازُ المسافة الحدوديّة سيرًا محاذيةً سور قصر الصنوبر وسباق الخيل حتى العواميد الرومانيّة، ومنها تستقلُّ سيّارة نحو تلّة السيوفي.

يحلُّ شعورٌ بالتردُّد والإحراج، حين تراجعُ سارية الحوادث التي سبقت مغادرتهم للمنطقة الشرقيّة نهائيًا. تذكّرت جارهم في الطابق الأرضي في حيّ السّد، الذي كان تكفّل بشقّتهم بعد أن أخلوها على عجل. جمعت أفكارها، فتذكّرت أسماء أفراد عائلة أخيه النازحين من البقاع ممّن شغلوا بيتهم منذ رحيلهم. استجمعت الذّاكرة وتصوّرت ملامح وجوههم فردًا فردًا، مادلين وزوجها شفيق بعلامات الحزن البارزة والنظرات المنكسرة، متشابهين كانا كأنّهما شقيقان، يوجّهان الكلام بصوت خافتٍ إلى

الابنتين، وينهرانهما ببرودةٍ بالغة كلّما تكلّمتا أمام الزوّار. حفظت وجوههم منذ صادفتهم عند بيت الجار الوحيد يفترشون الأرض، فصاروا بالنسبة لها أولى الناس وأنسبهم لإشغال شقّتهم الصّغيرة فور مغادرتهم المنطقة الشرقيّة، ريثما يعودُ كلٌّ من العائلتين إلى مسكنه الأساسي بعد أجلٍ غير مسمًّى.

لم تعرف أنّها ستضطرُّ هي وزوجها إلى التنازل عن عقد الإيجار عند أوّل عودة، مقابل تعويضٍ ماليّ لا يُذكر في ظروف تدهور سعر صرف اللّيرة اللبنانيّة أمام العملات الصعبة. غادروا نهائيًا بيت الضاحية الشرقيّة تلك، حيث كانت سارية قد انتقلت للعيش مع جليل عندما اقترنا قبل سنتين فقط من اندلاع الحرب. قبلت على مضض بالغرفتين الصغيرتين في الطابق الأرضي، وعزّت نفسها بأنّ البيت الذي اختاره جليل قريبٌ من دار المطبوعات، مشمسٌ من جهتين، مطلٌّ من الخلف على بستان من شجر البرتقال، قريب من خطّ سيّارات الأجرة من وإلى البلد، ومن البلد إلى مدرسة مار أفرام حيث توظّفت مسؤولةً عن المكتبة العربيّة بعد حصولها على إجازتها الجامعيّة. غادروا بيت السدّ إلى رأس بيروت، حيث أمضوا ما يقارب الثلاثة عقودٍ. مرّت السنون بطيئةً في البيت الأوّل الذي سكنوه في شارع ليون حتى فترة السّلم الأولى. بيت مانويل آحو. مانويل آحو الذي رَحل بعد أن سلّم مفاتيح شقّة زوجته الأميركيّة لجاك الواكد. أودعَ المفاتيح موصيًا ببيته وأغراضه المتبقيّة، وغاب في سفرةٍ طويلة ولم يعُد.

بيت شارع ليون، ثمّ بيت سيزار في الظّريف أمام النادي الأرمنيّ خلف شارع سبيرس المكتظّ بالسيّارات ليلًا نهارًا.

كانت موجة الحرّ والرطوبة المرتفعة تحدّ من حركة راجي حتى داخل البيت. يُقلّب الكُتب من حوله ملقيًا بجسده على الأريكة أمام سارية. يضع الجهاز على لوحة الزجاج فوق الطاولة الخشبيّة. يأخذه التعب. يلتهي بصوت بائع الصُحف، ثمّ يعودُ لنصوصه برهةً ليداهمه الملل من جديد، فيبدأ بتقليب صفحات الصُور القديمة المحفوظة في ملفّات منظّمة على جهازه المحمول. يُقلعُ عن تحضير أيّ مادّةٍ جديدةٍ لحصّة اليوم التالي، ويكتفي بما قدّمه في فصل الرّبيع المُنصرم.

غادر داني الكاك لبنان من مطار بيروت صباح يوم الجمعة. تزامنت آخر مكالمة بينهما مع انتقال راجي المؤقّت إلى الظّريف عند سارية، هربًا من أعطال الكهرباء المستمرّة في البناية التي استأجر فيها شقّته في شارع أرتوا عقب عودته إلى لبنان. رنّ جرس هاتفه المحمول وظهر على شاشته اسم داني. تكلّما وتودّعا على أمل أن يُثابرا على الكتابة من حين لآخر، بالرّغم من المسافات واختلاف التوقيت. بدا له داني مقتضبًا في مكالمته، يوجزُ الحديث على عكس المعهود. ينتظر دوره للدُّخول إلى نقطة تفتيش الأمن العام، ويتذمّر من ازدحام المغادرين ومن قلّة التنظيم في البلاد. استمعَ راجي إليه حتى النهاية ساعيًا ألّا يُضيّع كلمةً واحدة من كلامه، وألّا يُعكّر صفو هذه المكالمة التي ربّما تكون الأخيرة بينهما. اختار كلمات الختام بتأنٍّ بالغ. تفرّس باللُّوحة الزيتيّة القاتمة الألوان فوق الخزانة وسط المدخل. تمتم ما قلّ ودلّ من كلام الوداع، أقفل هاتفه المحمول. رمى نظرةً إلى مدّة المكالمة أعلى شاشته. دقيقة وثلاث وأربعون ثانية.

مرّ يومان على انتقاله إلى بيت الظّريف، بيت سيزار، الذي شغلته سارية منذ ما يُقارب العقدين معه ومع فراس، حين تركهم والده والتجأ إلى العمل في بلدته البقاعيّة. وقد رافق رحيل داني شعورٌ بالاسترخاء وبالقلق معًا. استدرك أنّه لن يستنزف بعد اليوم طاقته بالتّفكير، إلّا إذا استسلم لذكريات الماضي. ثمّ عاد واسترجع لحظةً صور سهراتهما مع زميلين من المكتب، آخر أيّام الرّبيع على شرفة المطبخ. تاق إلى الماضي القريب، فارتسمت علامات الأسى حول ثغره. أرخى عضلات وجهه كمن يستحضر الابتسامة من غير أن يجدها. ردّد في نفسه أنّ فصل الرّبيع صار بعيدًا، بُعد بيروت عن لوس أنجلس، وها هو اليوم في فصل الصّيف. ضغط على زرّ اليسار من صفحة الاتّصالات. استغرقت العمليّة ثواني طويلة لكثرة الرّسائل المتراكمة بينهما منذ ما يُقارب العشرة أشهر. طوى صفحةً

من صفحات حياته الجديدة في بيروت. ألقى الهاتف على الطّاولة في غرفة الجلوس. مضت سارية نحو المطبخ حاملةً صينيّة خضار شغلت نفسها بتقشيرها. نهضَ هو مثقلًا بإنجازه الأخير. تقدَّمَ خطوات قليلة نحو المدخل المُفضي إلى غرف النوم، انعطف يسارًا ليدخلَ الحمَّام ورفع زر النُّور الخافت. جلسَ على حافَّة المغطس وغرق ببكاء طويل.

لم يصدِّق جرأته المباغتة هذه. ها هو قد فكَّك لتوِّهِ عقدةً من عقد الحياة. لمس بإبهامه مربَّعًا صغيرًا، فرمى بلحظةٍ زهاء أشهر من الكلام والأسئلة والإجابات والوجوه الباسمة والإشارات. كلُّها اختفت، وها هو يلتقط أنفاسه في حز تقوز، بعد أن جازف بما اعتبره كنزًا من كنوز الحياة لمدّة ما يُقارب العام.

أقفل باب الحمّام خلفه، واتَّجه من جديد نحو ممرّ المطبخ. تعثَّر بصناديق الكرتون المُتراكمة، منتشرة في كلِّ مكان، بين ما خلّفه سيزار من أثاثٍ وما أتى به جليل من خزائن ورفوف معدنيّة من بيت شارع ليون. اصطفّت على جانبَي الممشى تعلوها أكياس الأواني الزجاجيّة، لفَّتها سارية بأوراق الصحف وربطتها من الخارج بخيطان القنّب مدوَّنةً عليها كلمة زجاج. اقترب من المطبخ من دون أن يدخله، وتوقَّف مسافة خطوتين قبل الباب مستندًا يسارًا إلى حائط دَرج العلّيّة المظلم. كانت شمس الصَّباح الحادّة تُنيرُ النمليّة أمامه، فيتبيَّن من ثقوب الشبك مجمع معدنيٍ ملأته سارية ببقايا أكياس المعكرونة من أصنافٍ وأشكالٍ مختلفة. تردَّد قبل الدُّخول. كان خرير المياه فوق المجلى يختلط بصوت الرَّاديو الذي أدارته سارية على إذاعة لبنان من الصنائع. استرجعَ بعض قواه، واستمع معها إلى صباح تشدو أغنية «يا ليلى فرحنا فرحنا» كاملةً. اختلط نصفها الثاني بصوت كثيفٍ لأبواق السَّيَّارات من جانب شارع سبيرس، إلى أن هدأت جلبة الطريق عندما تباطأ اللَّحن «يا ليلى، صوب النبعة مبارح رحنا ومَلَينا، والنبعة دَمعة ودَمعة تِسأل عن ليلى وَينا». جلس متقوقعًا على الدَّرجة الأولى لسلَّم العلّيّة. شبك أصابع يديه خلف رقبته، وحنى رأسه أرضًا كما كان يفعلُ أيّام الصغر عند اشتداد القصف على بيروت الغربيّة، ومضى يتأمَّل أشكال الحصى الصخريِّ في بلاط الأرض.

ا

لم آبه لرنين المنبّه.

أوقعتُ كوب المياه مرّة وأنا أحاول أن أضغط عليه لأطفئه، فابتلّت المجلّات المكدّسة فوق المنضدة قرب السّرير، وكاد الزجاج أن يتكسّر لولا ارتطامه بطرف مصباح الكهرباء.

تركته يرنّ هذه المرّة دقيقةً كاملة، كأنّني لا أسمعه. ضممت يديّ على صدري، واستدرتُ صوب الحائط آملًا بحركتي أن أقصي الرّنين المتتالي عن مسمعي.

لم أبلّغ عن غيابي أو عن نيّتي في التغيّب ذلك اليوم.

استسلمتُ للوقت. غفوتُ من جديد لعدّة دقائق ربّما. وخزتني عيناي، ثمّ بدأتُ أشعرُ بالنّور يضربهما، كلّما تطايرت ستائرُ الشرفة الخارجيّة وانقشعت أشعّة الشمس.

لم أختر إيقاع هذا اليوم.

أبلغتُ طلّابي صباح أمس أنّني سأراهم اليوم، وقلتُ للمساعد الكلام ذاته.

رفعتُ ذراعيّ متثائبًا علّني أستجمع قواي لأواجه ثقل هذا النهار، لكنّي سرعان ما ارتخيتُ من جديد. علت ستائرُ الخارج محدثةً نسمةً خفيفة هذه المرّة لفحت ظهري العاري. أغمضتُ عيني، ومضيتُ أحلُم عميقًا.

من سيحاسبني إذا ما استغنيتُ عن تقديم خدماتي اليوم؟ من سيعترض على تأخّري أو على غيابي عن ورشات العمل كتلك عن «أنسنة تصوير المُدن»؟

جعلتُ أحكّ أسفل ظهري، ثمّ استدرتُ فجأةً مستحضرًا قواي، حين انتابني شعورٌ بضرورة النهوض والاستحمام والخروج مثل كلّ يوم.

ثلاث كؤوس من الفودكا ثمّ كأسان من الويسكي. لا، بل كأس نبيذ أبيض مع صاحب البار، ثمّ ثلاث كؤوس من الفودكا مع المجموعة، وفي آخر السهرة كأسُ صاف من الويسكي. نمتُ مخموزًا اللّيلة الماضية. تمالكتُ نفسي قبل أن أضغط على بعض أرقام الهاتف عند عودتي في سيّارة الأجرة آخر اللّيل، كما فعلتُ مرارًا. فتحتُ الجهاز لأتفقّد موقعي، ثمّ خلعتُ كلّ ملابسي وارتميتُ على السّرير.

كنّا خمسة أشخاص في سهرة الأمس.

أنا ورجلان وامرأتان. لم أكن أعرِف منهم سوى شابّ، كنتُ رأيته أكثر من مرّةٍ في جمعيّة المصوّرين. أمّا المرأة الأولى، البيضاء البشرة، فكانت جالسة مع صديق له. نسيتُ اسمهما، لكنّي حفظتُ اسم الفتاة الثانية. سمراء بشعرٍ أجعد طويل. أعطتني بطاقتها ودوّنت رقمًا عليها.

«هي أيضًا حذت حذونا، وعادت لتستقرّ هنا بعد سنوات طوال»، قال الشّاب.

«سبع سنين»، أردفت.

قالتها قبل أن يسألها أيّ من الحاضرين عن مدّة غيابها. لا أحد يخفي نظرة الإعجاب بمن يرجع إلى لبنان بعد سنوات الهجرة، قلتُ في نفسي. إعجاب فإطراء فتودُّد، ومن ثمّ استفسار. أو أحيانًا تشكيك بمصداقيّة هذا العائد المثير للشُبهة!

«لماذا عدتما؟»، سأل الشابّ الذي كان يُعانق الفتاة السّاكتة.

تهيّأتُ للإجابة بالشكل الآلي المعتاد، لكنّي عدّلتُ في إجابتي قليلًا. رُبّما لأنّي ارتحتُ لوجه الفتاة الصامت، ولاهتمامهم جميعًا بانضمامي إليهم.

«أمضيتُ وقتًا طويلًا هناك، وارتأيتُ أنّ العودة قد تحملُ لي فرصًا جديدة للحياة»، قلتُ لهم.

لم تجب الفتاة الثانية بالطريقة نفسها، بل قالت إنّها تركت بلد إقامتها الثاني من طريق الصدفة. استضافها أحدهم في إطار مشروع فنيّ في بيروت. قرّرت البقاء على إثره. ثمّ دعاها أحد أقربائها للمشاركة في معرض أو ما شابه على ما أذكُر، فأُتيحت أمامها فرص أُخرى... نسيتُ التفاصيل. لكنّي أتذكّرُ استحسانها إجابتي على السّؤال المعهود، وأتذكّر جيّدًا كيف كانت تسأل بلهفةٍ عن عملي الحالي، وعمّا آلت إليه حياتي ونشاطاتي السّابقة في الخارج. سألت إذا ما تلاشى كلّ شيء منها تحت وطأة إيقاع الحياة الجديدة السّريعة والصّاخبة في بيروت، كما هي في شارع السّهر الذي كنّا فيه بالأمس. سألتني أيضًا إذا ما كنتُ احتفظتُ بذكرياتٍ من بيروت قبل السّفر.

طبعًا، قال الأستاذ الشّابّ ملتفتًا نحوي ليحثّني على الكلام. ولمّا رآني تلكّأتُ مكتفيًا بابتسامة وأنا أتناول كأسي، بادر للقول بما معناه أنّني من أوّل، أو من أفضل، من وثّق لتغيُّرات المدينة، أو ما شابه ذلك. لم أصوِّب كلامه، بل استسنحتُ الفرصة لأحدّثهم قليلًا عن التصوير

الفوتوغرافيّ، ثمَّ عن تمسّكي بالتقنيَات القديمة وتحسّسي من التَّصوير الرقميّ، بالرَّغم من أنّي صرتُ أستخدمه حتى مع طلّابي.

أوافقك، قالت الفتاة السَّاكتة رافعةً يدها بإشارة النصر.

قالتها، ثمَّ التفتت صوب صديقها بابتسامة ماكرة، كأنَّ حديثًا دار بينهما في وقت سالف، وقد أبدت فيه رأيها حول الموضوع وانحيازها للتصوير التقليديّ. وها قد أتى الظَّرف المناسب لتجاهر بموقفها أمام الحضور، وأمام صديقها بالذَّات.

عادت إلى الصمت من بعدها.

شربتُ أكثر من كأسَي فودكا بالتأكيد. ثلاثًا كما اعتقدتُ. كان كأس الويسكي الأخير كفيلًا بتفجيرهذا الصداع.

لم أدفع ثمن المشروب. أصرَّ أنّي ضيفه، فقال عاليًا أنَّه سيحاسب عن حصَّتينا. رأيته يتصرَّف على خلاف غيره من الشباب ممَّن صادفتهم هُنا بعد عودتي. كلّ واحدٍ يدفع حصَّته، من غير أن يتهافت أيّ منهم على التقاط الفاتورة. وإن فعل ذلك، فليُبرهِن أنَّه الأسرع في العمليَّات الحسابيَّة، وبتحديد ما يترتَّب على كلّ فردٍ من الموجودين واستنتاج حصَّة النادل.

لا، كان كريمًا. قد أدعوه في وقتٍ قريب مع الفتاة التي احتفظتُ برقمها.

أنستطيع أن نرى نموذجًا من أعمالك في التَّصوير؟

اندفعتُ وأعطيتها رابط الموقع على الإنترنت، وطلبتُ منها تقييم الصُّور من باب المُجاملة لا غير. تردَّدتُ، ومن ثمّ عدتُ وقلتُ لها إنَّ هناك صورًا أخرى فقدتُها.

كيف فقدتها؟ أجابتني باهتمامٍ فيه شيءٌ من القلق.

فقدتها...

شعرت ربَّما أنَّني قطعت عليها مجال محادثتي. دار حوارٌ بين الشابّ وصديقته السَّاكتة مع أشخاص جالسين على الطاولة خلفنا. استدار الشابّ صاحب الدعوة، يستمع إلى حديثهم من غير أن يتكلَّم.

فقدتها في الحرب.

كيف؟

تعطَّشت لمعرفة المزيد. كُنت أظنّ أنَّ ذكر الحرب كفيلٌ أن يقطع طريق التساؤل، وأن يُبرِّر فقدان أيّ غرض أو مكان أو صديق أو قريب.

يبرز لك ذكر الحرب ما أصبت به من خسارة لممتلكاتك ولأشيائك، من دون أن تضطرّ لتحديد تفاصيل فقدانها. غير أنَّها لم تكتف بالإجابة تلك. وها قد أصبح علي أن أستنبط جوابًا مقنعًا ينهي هذا الحوار.

ضاعت أثناء تنقُّلي بين بيتٍ وآخر وبين بيروت والخارج، وأخرى شرقت.

شرقت؟

فاجأني إلحاحها. هنا كان صاحب الدَّعوة قد انتهى من مجاملة زبائن الطاولة المجاورة. ارتشف من كأسه مبديًا اهتمامًا بما فاته من حديثنا. شعرتُ أنَّه عليَّ أن أغيّر الموضوع.

كُنت أقول أنَّ هناك صورًا لم أدرجها على الموقع الإلكتروني، لكنَّني أقوم بتحديث الموقع متى استطعت.

انتابها شعور بالحذر منِّي في تلك اللَّحظة، غير أنَّها سرعان ما عادت إلى أسئلتها عن عملي صارفةً النَّظر عن استفسارها عن السَّرقة، أو عمَّا أفقدتني الحرب.

أقفلتُ حنفيَّة المياه الساخنة، وأنهيتُ حمَّامي بالماء البارد كما أفعلُ في فصل الصَّيف.

ربَّما اتَّصل بي أحدهم سائلًا عن تأخيري وأنا في الحمَّام. خرجتُ رابطًا المنشفة حول خصري. وصلتني رسالة على الهاتف، يسألني فيها المساعد إذا ما كنت قد قرأت آخر رسالة بالأمس عن إلغاء ورشة العمل هذا السبت، بسبب انشغال الطلَّاب بمشروع آخر السَّنة. أجبته بالإيجاب شاكرًا. فتحتُ الجهاز، وقرأت الرِّسالة بعدها. عدتُ إلى الفراش وغفوتُ من جديد.

٣

دخل باب عيادة روكز متهيّبًا. لم يكن قد رآه من قبل، ولم يكن توصّل إلى رسم ملامح له في مخيّلته. مضت أسابيع على إلحاح نورا التي باتت من أقرب المقرّبين إليه منذ رجوعه إلى لبنان، وعلى تذكيرها المستمر بأنّه لا بُدّ من سبيل للرّاحة في هذه الحياة.

بعث رسالةً قصيرة، مفادُها أنّه فلان الفلاني يتّصل بناءً على نصيحةٍ من نورا الخازن، يودّ زيارة الطبيب، أي روكز. استفسر ضمن الرسالة أيضًا عن مواعيد الجلسات وعن بدلها المالي. جاءه الجواب بعد أيّام عديدة. رنّ هاتفه ذات صباح وهو في سيّارة الأجرة متّجهًا إلى المكتب الذي عمل فيه بالقرب من المتحف الوطني.

استغرب باديء الأمر، إذ لم يكن اعتاد تلقّي الاتّصالات الهاتفيّة قبل العاشرة إلّا من شخص واحد، مهندس مساعد في مكتب الفرع الآخر. يواظب على الاتّصال الصباحي قبل ساعة أو أكثر على بدء دوام العمل. يُسائله بنبرة لا تخلو من التشكيك عن ملفّاتٍ، يكون قد اعتنى بتحضيرها عند المساء، وتأكّد من حفظها في موضعٍ واضح على الجهاز، يعنونها بأسماء تُسهِّل عملية البحث عنها مثل «آخر تعديل» أو «التعديل النهائي»، نهار الخميس مثلًا يليها التاريخ والسّنة. يضطربُ للاتّصال ويعودُ ليلجمَ شعوره بالتقصير، ويمضي مردّدًا جملًا مبعثرة من أغانيه القديمة وهو يهمُّ بالخروج من بيته الجديد في شارع أرتوا. ظلّت اتّصالات العمل تُقلقه في ساعات النهار المبكّرة، إلى أن استبق الأمور، فبادر منذ المساء بطلب رقم العميل في مكتب الأشرفيّة مبلّغًا عن تعديلات قام بها على الملفّات، ومُشيرًا إلى أسمائها تحسّبًا لأيّ التباس، وتفاديًا لإزعاجه المُتكرّر.

دقّ جرس الهاتف هذا الصّباح، وكان روكز يتحدّثُ بلطف ملحوظ وبصوت دافىء مُطمئن يعتذرُ عن التأخير في الإجابة على الرّسالة الخطيّة.

«أهلًا راجي، أهلًا فيك.

اعذرني على التأخير. طرأت علي التزاماتُ شغلتني عن مراجعة المواعيد»، قال روكز بنبرةٍ دافئة.

«لا حاجة للاعتذار، لابأس بذلك أبدًا...» أجابه.

حدّدا موعدًا لأوّل جلسة في العيادة.

يوم الإثنين القادم السّابعة مساءً مثلًا؟

جيّد...

سأدوّنه في مذكّرتي.

وأنا كذلك.

قالت نورا، وهما ينزلان درج بيتها، إنّها أفادت كثيرًا من مسيرتها مع روكز، وباتت تتعرّف أكثر فأكثر على ذاتها، حتى تغلّبت على مجمل المخاوف التي أعاقتها في الماضي القريب. وماذا تغيّر بعد ذلك؟ سألها مقاطعًا وقد أثارت فضوله. لم تكُن المرّة الأولى التي يروي له أحدهم عن رحلة معرفة الذّات تلك، لكنّه وجد في استفاضة نورا بالشرح حول الموضوع كلامًا ساحرًا، جذبه إليها وأغناه عن سائر أمور حياته الجديدة في بيروت.

لجمت اندفاعها في الكلام باحثةً عن إجابةٍ على سؤاله الأخير:

«ماذا تبدّل فيك»؟

انتقت أفكارها ورتّبتها في جملٍ مقتضبة. استشعرت أنّه يستعجلُ الأمور، وأنّ عليها أن تختصر بالمفيد لإقناعه بجدوى التجربة. بل كادت أن تسعى هي إلى التواصل مع روكز نيابةً عنه. حتى إذا ما شعر أنّه زُجَّ بخانةٍ ما، سَهُلَ عليه الحراك والمبادرة بالحديث. حثّته نورا على حفظ الرقم على هاتفه القديم، وإرسال سؤاله لروكز أمامها وقد أصبحا في السّاحة قرب مبنى البلديّة. يتمشيان بعد ظهر يوم الأحد بين المارّة، ويسترقُّ النّظر بين الحين والحين للمنظر إلى يمينهما، فيتألّم عند كلّ التفاتة منه لما آل إليه الجبل الأخضر، ويتذكّر كيف أنّه تجنّب النّظر إلى جبل حريصا منذ التسعينيّات وهم في طريقهم إلى بلاد جبيل، علّه يحتفظ بصورته القديمة في باله قبل أن تلتهمه الأبنية الشاهقة.

تتداخل الأفكار في خاطره، وقد انتقل حديثُ نورا إلى أخبار متفرّقة تمرّس بالإجابة عليها من دون أيّ تركيز. أمّا إذا عادت وخصّته بجديد أخبار والديها الطريفة، التفت إليها متشوّقًا مدركًا سلفًا أنّها ستعيد الابتسامة إليه. تسردُ له بالتفصيل مشهد أمّها نجاة تتلو تساعية القدّيس أنطونيوس البدواني في فراشها قبل موعد نومها المبكّر. تعود نورا من عملها في بيروت، وما إن تفتح باب البيت وتطأ المدخل حتى تستقيم نجاة في جلستها، ولا تتوانى عن تعليق صلاتها بين الحين والآخر، تُبلغ ابنتها من غير أن تراها عن أسماء أشخاص اتّصلوا في فترة غيابها، أو تذكّرها بغرضٍ ما تحتاجه من بيروت لليوم التالي.

«يا من لم يُكفِّف عن تسبيح الربّ ولا عن دعوة النَّاس إلى تسبيحه... نورا جيتي؟ سِلمان مين إجا؟»

تتوقَّف عن تمتمتها ثمَّ تسارع إلى إخبارها عن اختفاء علبة الشاي الخشبيَّة، ثمَّ تعاود صلاتها من جديد، وما تكادُ تقرأ جملة أو اثنتين، حتى تُتبعها بخبر عن طَبَق أعدّته لزوجها الشيخ سِلمان، كما تُسمّي نورا والدها مداعبة. أمّا في آخر المرّات، فقد طال حديث نجاة بحسب رواية نورا عن ابنها البكر الذي ألغى زيارة آخر الأسبوع المُعتادة، لأنَّ فردًا من أسرة زوجته من حاملي جواز السَّفر الأميركيّ قادمٌ من القدس عبر لارنكا، وما تلبث أن تعالج خبرها بتنهيدة متحسّرة على حال أقربائهم في الضِّفَّة وتعاود صلاتها من أجلهم. يدور الحديث كلّه، بينما تتنقَّل نورا بين المدخل وغرفتها وردهة الاستقبال، حيثُ يستقرّ والدها الشيخ سلمان ساعات أمام التلفزيون. تُلقي حقيبة يدها وغيرها من الأغراض مستعجلةً على سريرها، وتُطلّ على والدتها من باب الغرفة، فتتوقَّف نجاة عن أيّ حديث وتكتفي بتلاوة صلاتها بعد أن تكون قد استنفدت ما عندها من روايات وشعرت بذنب لدعائها المبتور.

تفاجئه طلاقة نورا بسرد الوقائع، واستعدادها الدائم لفتح باب السخريَّة بالحديث عن والديها. يستسلم للذاكرة ويرجع سنين إلى الوراء في بيت جدَّته طاهرة في بلدة الكرك في صيف الاجتياح الاسرائيلي. تُطالعه صورة أبيه يُزمجرُ غاضبًا، حين سمعه من خلف نافذة غرفة النوم يُسرّ لصديقه علي ديب كيف رمت والدته القهوة من فنجانها عمدًا عند جارة جدَّته أم يوسف همدان. كان يومها برفقتها، يُراقبُ السيِّدة المُسنَّة وهي تتوارى خلف الباب، لتُحضِر له حبَّة شوكولا ظلَّت تعده بها منذ أوَّل الزيارة. التفتت سارية يمينًا ويسارًا لتتأكَّد أن لا أحد عند بوابة الحديقة لجانب الطريق. مدَّت يدها من فوق الحافَّة الفاصلة بين الحديقة والمصطبة، حيث كانا جالسين، ثمَّ التفتت نحو باب البيت، فنحوه، وباغتته بابتسامة ماكرة معلنةً أنَّها ستقوم بأمرٍ محظور. رآها تدفع بيدها إلى الوراء، وتسكب قهوة الفنجان عند كعب شجرة المشمش فوق التراب. طال مكوث أمّ يوسف همدان ولم تجد له حبَّة شوكولا، فناولته تُفَّاحةً من تفّاح البقاع الأصفر الصغير. عرضت على أمِّه المزيد من القهوة، فاعتذرت بحجَّة أنَّ حماتها مريضة، وأنَّ زهريَّة اصطحبت جليل إلى إحدى صيدليَّات زحلة سيرًا على الأقدام، بسبب انقطاع المحروقات، بحثًا عن دواءٍ لها.

بيت أمّ يوسف همدان ملاصق لبيت جدَّته طاهرة في بلدة الكرك.

تقوى فيه الروائح الكريهة. مثل بيت الفئران، قالت عمّته زهريّة، مرجِّحةً السّبب لقلّة التهوئة وعدم تعرُّض الأثاث لنور الشمس في ذلك البيت الترابي القديم. سماكة الجدار مترٌ وأكثر، النباتات وأشجار المشمش والكرز أمامه لا تجد من يشذّبها، و«الحالة حالة» على حدّ قولها. ثمّ أضافت: إنّ أمّ يوسف، منذ يومها، لم تكترث بأمور البيت. غبار متراكم في كلّ زاوية، وخيوط العنكبوت تعشعش فوق رفوق المطبخ والخزائن. حتى حين كان زوجها يعود على درّاجته محمَّلًا بالأكياس منهكًا من عمله في المطاحن، كانت تُلازم مقعدها على المصطبة أيّام القيظ ممسكة بفنجان القهوة وسجائر البافرا، من دون حراك. هكذا، تتسلّط على زوجها وعلى أولادها الشُبّان. تمضي بعد الظهر بلعب الورق مع رجال من معلّقة زحلة، من الطرنيب إلى الأربعمئة، بالإضافة لرحلاتها المنتظمة إلى بلدة ريّاق في سيّارة حفيدها الأكبر. أمّا رواية صديقه علي عن أم يوسف همدان، فكانت هي الأمتع والأكثر إثارةً، وهي التي راح يُكرّرها راجي أمام فراس مذهولًا. عرفنا لماذا تُبقي درفات شبابيكها مقفلة، قال علي، لأنّها تُخبّئ شيئًا خطيرًا فيها. لقد احتفظت أمّ يوسف بأمعاء زوجها في الخزانة بعد مماته، وباتت تكتبُ السّحر وتتعمّد إيذاء الأولاد وحتى الكبار على حدّ قوله. وهذا ما تأكّد منه راجي لاحقًا، حين كان برفقة إبنة جيرانهم وهما يلهوان على سطيحة بيت جدّته طاهرة المحاذية لسور حديقة أم يوسف. ابتعد عن البنت الصغيرة برهة، وتوارى داخل البيت، ثمّ أطلّ بعلب الكرتون التي كانا يلهوان بها، وإذ بالفتاة قد تسمّرت مكانها تحملقُ خلف سور الحديقة، وكأنّها تكتم دهشةً ما. لم يخطر له أن تكون هي السّيّدة نفسها جارة جدّته طاهرة تقوم بترهيبها من خلف السور. تتسلّق الحافّة الإسمنتيّة ممسكة بدرابزين الحديد فوقها، فاتحةً فمها في مشهد مرعب. لم يُصدّق ما تقوم به من حركات بوجهها وقد غطّت رأسها بشال أسود كالسّاحرة الشّمطاء. لم تنتبه أنّه عاد من باب غرفة الطعام نحو الفسحة الخارجيّة، وكأنّها أرادت أن تنفرد بابنة الجيران الجُدد. إمّا لأنّ البنت الصغيرة لم تكن تعرفها أبدًا، فتصدّق فعلًا أنّها شبحٌ أو ساحرة تجاورهم، حتى إذا استنجدت براجي وعاد لقربها، جلست أمّ يوسف القرفصاء فاختفت عنهما، فلم يصدّقها. أو ربّما لأنّها أرادت بالفعل إثارة ذعر الاثنين، وقد تردّدت، لأنّه كان سيشكوها لوالديه، فاكتفت هكذا بابنة الوافدين الجدد من غرب بيروت هربًا من المعارك الضارية.

هكذا، صدق علي ديب بما كان يسرده ساعات اللّعب في الزاروب المقابل. بل أكّد له ذلك المشهد أنّ كل ما ذكره أولاد الحي آنفًا عن السّيّدة

المُسنَّة هو حقيقي. فهو لم يكن يفتري على جارة جدّته، حين أخبر صديقه عن حادثة فنجان القهوة. ولم يُدرك لماذا وبّخه والده أمام صديقه علي وهو يروي قصّة الفنجان، ظنًا منه أنّها من خصوصيّاته أيضًا ولا داعي للتريُث في سردها. علِمَ يومها أنَّ كلّ ما يجول في فلك البيت يبقى فيه، وأنَّ ما يُفصحُ عنه للآخرين هو منتقى من أفضل ما يكون، ولا استثناءات لهذه القاعدة.

لم يُشرك نورا بهذه القصّة، فجرأتها بسرد طرائف العائلة كانت تُصيبه بشيءٍ من الخيبة. كيف له أن يفتح ذاكرته على فصلٍ كهذا، أين منه روايات نجاة والشّيخ سلمان وتساعية القديس أنطونيوس!

يكتفي بالابتسامة لقصص نورا. يبتسمُ، ثمّ يضحك من أعماق قلبه، وهو يتخيّل نجاة في سريرها وقد استقامت في جلستها. تُعاود القراءة في الكتاب كأنَّ شيئًا لم يكن، مدّعية التركيز. كان قد ظنَّ في ما مضى أنَّ نورا تستغيبُ والديها فتجدُ في سيرتهما سبيلًا إلى إضحاكه، إلى أن اجتمع بهم ذات مساء خريفيّ على شرفة بيتهم وقد حضّرت نجاة مازة عرق لائقة، وزيّنت صحون اللّبنة والحمص بالنعناع اليابس والزيتون الأسود. طاب الجوّ للشّيخ سلمان، فصار يُطلق الطرفة تلو الأخرى، ممّا حفظه عن أقربائه من الخازنيّين من دون أن يتحفّظ عن أيّ من العبارات النابية، بالرّغم من حضور ابنته وزوجته نجاة وزوّار آخرين، كما كان قد فعل أرباب العائلات غيره. لم يُخبّئ راجي ضحكته كما يفعل أحيانًا، بل راح به جوّ المرح إلى أن رفع كأسه ليُهنّئ نورا بوالديها، فانتصب عندها الشّيخ سلمان ملوّحًا بِقَدَحِهِ.

«كلّنا للعرق، للعُلى للعرَق!»

تزجره نجاة ضاحكة، ثمّ ما تلبث أن ترفع كأسها هي أيضًا.

لم يكُن ينتبه من فرط إعجابه بوالديْ نورا الفَرِحين كيف كانت صورة والديه تزداد عبوسًا وحزنًا. اكتفى بمقارنة سهلة كمعادلات الرياضيّات. صورة والده موبّخًا لإفصاحه سرًّا لصديقه وهو في سنّ الخامسة، ووالدَي صديقته نورا يمرحان بسهراتهما على شرفة البيت. يُخيفه حجم الهوّة بين النموذجين، ويخلُص إلى أن لا سبيل لربط قصّة والديه بأيّ كان. رحم الله والده. أكثر من عام كان مرّ على وفاته يومها، ولا بدّ له من تبديد صورته الحزينة ومسح الغبار عمّا بداخله من فرح مدفون. يعودُ ويسترسلُ في ضحكه، حتى تدمع عيناه لأخبار نورا المُتكرّرة، فيطرد بحماسه المُفرط صورة جبل حريصا المشوّه بأرتال الإسمنت إلى اليمين.

دخل باب عيادة روكز وهو يردِّدُ كلام نورا، علّه يُطمئنَ باله. روكز جادّ في عمله ومُحترف. لن يخذلك. صوته الخافت يُشبه الصوت الذي سمعه على الهاتف، فخال لبرهةٍ أنّه يعرف المكان. ذكّره دفء الغرفة بوطأة ملابسه الشتائيّة وثقل حقيبة العمل، فتخلّى عن معطفه، ورمى الحقيبة أرضًا فور جلوسه على أقرب كنبة أمامه. كنبتان مفردتان وأخرى بمقعدين من القصب، كتلك التي كانت منتشرة في الماضي على شرفات المنازل. أنوارٌ خافتة ولون ورق الجدران مائلٌ إلى البرتقالي. لا شيء على الحائط. استوى على المقعد المفرد أمامه وحدّق في وجه روكز المُبتسم، وانطلق في الحديث.

البداية هي الأسهل، ردّد في باله، ليخفّف من وطأة الزيارة الأولى. ثمّ انتبه إلى أنّ التعريف بالنّفس هو استباحة أولى لتراكمات الماضي لن تُختصر بجملتين. سهلة كانت أم صعبة، الأمر بالنسبة له سيّان، لن يتهيّب الموقف، وسيُخرج ما بداخله من تلقاء نفسه وبالتدريج.

من الصّعب أن أبدأ، ولو كنتُ أظنّ أنّ البداية هي الأسهل.

ظلّ روكز صامتًا يهزّ برأسه موحيًا بالإصغاء.

أنت تعرفُ اسمي، فلا داعي أن أُعرّف عن اسمي... ربّما عليّ أن أفسّر لماذا أنا هنا، أو أنّه عليّ... بل عليّ أن أشرح عن عملي وظروف عودتي إلى البلد. أو... لا أعرف...

تلعثم بالكلام. هدّأه روكز بلفتة عطوفة من على كرسيّه، فسحبَ نَفَسًا عميقًا اشتمّ فيه رائحة عطر خفيف صادر ربّما من آلة تعطير كهربائيّة. جعل يُقلّب الفترة الأخيرة، عامًا ونصف العامَ على عودته إلى لبنان، ويربط أجزاء القصّة بأفكار كان رتّبها في رأسه قبل مجيئه. ومثلما كان يعاود قراءة قصاصات الورق المُنتشرة في أرجاء بيته الجديد، راح يسعى في كلّ زيارة لعيادة روكز إلى ربط الأجزاء المُبعثرة في ما بينها، علّه يحظى بمعنًى لما يجول في باله وما آلت إليه الأحوال، بدءًا من سنواته الأخيرة في فرنسا. يُفلحُ مرارًا بتحديد المصدر الأوّل لألمٍ ما، ويفشلُ ويتخبّط بأحوال أخرى. لم يعرف في البدء أنّ أولى الجلسات ستحدّ من مناعته وستزيده هشاشةً في الحياة اليوميّة، بعد أن شرّع أبواب الماضي السّحيق، وقلّب أوجاعًا قديمة العهد. انهمرت دموعه سخيّة في أكثر من مرّة من دون إنذار. لجمَ أحاسيس مختلفة وزجّها أسفل الذّاكرة، وأيقن أنّ مسيرته مع روكز ستصطادُ ما تصطاده من الأسفل في أيّ لحظة، حاصدة معها الألم والحزن والفرح. ومنذ تلك السّاعة، تأكّد أنّه

بانتزاعه الأقنعة التي احتمى خلفها من الماضي، ستعترضه ذكريات ملتبسة المعاني. تدق بابه وتضنيه بتشعُبها. وريثما يقتلع الأوجاع الواحد تلو الآخر، ويعود ويرتِّبها ثمَ يفكّكها بتأنٍّ كي تتخدّر معانيها، تبقى صفحات تاريخه مشرَعةً وعرضة لمهبّ الرِّيح.

كلّما أضعت شيئًا انتابني إحساس بالضيق. أسترجع اللّحظات الأولى التي اكتشفت فيها فقداني لهذا الشيء، مستحضرًا أحاسيس القلق ذاتها. أنصرف بعدها لاستنباط حلول لملء الفراغ الحاصل.

لا أنسى سريعًا. يبقى إحساسي بالخسارة يخزني، إلى أن أقتنع بعد مدّةٍ ليست بالقصيرة أنّه القدر.

استفقت من جديد بُعيد الحادية عشرة والثلث. فتحت الجهاز على صفحة رسائلي الوافدة. لن أستحمّ من جديد، قلت، رغم العرق الذي تشكّل تحت إبطي. سأغتسلُ سريعًا مستعيدًا نشاطي، ومن ثمّ أخرج قليلًا ألتقط بعض الصّور عند كورنيش البحر للمارّة ولألوان المغيب.

وصلت رسالتها بعد أن عدتُ وغفوتُ من جديد. منذ ساعتين ربّما، اطّلعت على جميع الصّور. تكبّدت عناء إعداد اسم مستخدم ورمزٍ سرّيّ، وسجّلت بعض التعليقات على الموقع الإلكتروني. أحبّت صورًا من مجموعة الخريف، وأخرى من مجموعة التوائم. صورة لورق الخريف يُغطّي زجاج سيّارة كاديلاك قديمة، وقد شكّ أحدهم تحت المسّاحة إعلانًا على ورقة صفراء. وصورة أخرى بالأبيض والأسود تُظهر عارضةً سمراء البشرة عارية في وقفة جانبيّة تُخبّئ نهديها ووجهها، إلى جنبها عمود من الرّخام من لون داكن. الصّورة من مدينة مونترو السويسريّة، أمّا الأولى، فكانت من آخر رحلة لي إلى أميركا بعد عودتي إلى لبنان. سألتني لماذا أعنون صوري بأسامي المدن، وإذا ما كان هناك من رابط ما بين مضمون الصّورة والمكان الذي يحتضنها؟ ما من رابط مباشر. لا. لكنّ الصّورة تلك كفيلة أن تُرسّخ ذاكرتي بالمكان كأنّي أرسمُ له معالم جديدة من خلال اللّقطة. عنونت مثلًا إحدى الصّور في الماضي البعيد بأبراج الكويت. صورة التقطُها داخل مكتب لشركة تأمين عمل فيها أحد المعارف، منذ هجرته إلى الخليج. لا ترى في الأفق خلف الزّجاج سوى منظر البحر والقليل من الأبنية الصغيرة. أذكر الرّجل ذاك يُحدّثنا عن مشروع البرجين الجديدين بحماس بالغ، وأنّه لا بدّ أن نتناول العشاء في المطعم هناك في اللّيلة نفسها. لم يخطر لي أن ألتقط صورًا قريبة للبرجين، أو ربّما أكون قد فعلت ذلك من دون أن أكترث بتظهيرها، أو حتى قد أكون ظهّرتها وأهملتها. فالعناوين تأتي كرابط بين ذكراي وبين المكان لا تعبيرًا عن الموقع الفعليّ للصّورة.

صورة أخرى فاتتها، ربّما وهي تقلّب صفحات الموقع بمجموعاته المختلفة بعد سهرتنا الطويلة في الأمس. مشهد من الأعلى للعارضة نفسها، تمدُّ ذراعيها فوق مغسلة صغيرة من السيراميك الأبيض. اعتليتُ يومها حافّة المغطس، وسعيتُ قدر الإمكان ألا يظهر من الفتاة سوى رأسها والذراعين، فيختفي جسمها بالكامل تمامًا، كأنّك تشاهد بناءً من على متن الطائرة. ترى السّطح وبعض الأجزاء الناتئة وتُحجبُ عنك الواجهات. وُفّقتُ باللّقطة، وأطلقتُ على الصُورة اسم موقع التّصوير آنذاك: شارع الكنيسة الكاثوليكيّة. لم أشعر بضرورة تبرير التسمية.

سألتني عن عنوانَين فقط. لفتها عنوانان. ماذا لو رأت مجموعتي الكاملة التي لم أرفعها على الموقع بعد. أو ماذا لو كانت اطّلعت على باقي مجموعتي هنا. تسألني بأسلوب مبطّن عن اللّقطات التي أضعتها، كأنّها تحاول أن تندسّ شيئًا فشيئًا بين الأوراق والمغلّفات والشرائح القديمة في خزائني. تتوخّى الحذر فتبتكر الحيل لتتقرّب منّي أكثر فأكثر، فتسألني عَرضًا عن العناوين وعن المواقع ونوع العدسة والزاوية لتبوح لي أخيزا بغرض رسالتها.

«هل كُنت لتُطلق العناوين نفسها على مجموعة الصُور التي أضعتها؟»

ما بالها وهذه الصُور.

«هل لديكَ مجموعة محلّيّة خاصّة ببيروت مثلًا، عملت على إنجازها منذ عودتك من سفرك الطّويل؟»

أثارني اهتمامها، بحيث إنّي أصبحتُ غير قادرٍ على التّفكير إلّا بما خسرتُه. كيف لأحدهم أن يتعامى عمّا لديك بين يديك، يتناسى ما تحمله اليوم، وأن يتطفّل هكذا على أشياء فقدتها من ماضيك؟ لربّما اعتمدت هذا الأسلوب اللّبق لإبلاغي أنّ أعمالي الحديثة لم تنل إعجابها، فلجأت إلى استفسارات مصطنعة عن الأرشيف. تحصر إطراءها بصورتين من فئتين مختلفتين، فتوهمني أنّها تصفّحت المجموعات كلّها ثمّ ترمي استفهامًا أرادته عفويًا عمّا ضاع وفُقد. غير أنّها كانت قد أبدت اهتمامًا بهذا الموضوع بالذّات منذ ليلة البارحة، قبل أن تتعرّف حتى على ما نشرته على الموقع، بل قبل أن تسمع باسمي ربّما. ثمّ إنّي في جميع الأحوال لم أعد أتأثّر بأيّ رأي سلبيّ حول ما أعرضه من أعمال على موقعي، خاصّة إذا كان ينمّ عن نظرةٍ تقنيّة بحتة. فلا داعي لإخفاء ما تضمره إذا كانت غير مقتنعة بقيمة أعمالي الفنيّة. لن أتأثّر بذلك

سلبًا.

تريدُ أن تلتقي بي من جديد على الأرجح. وها هي تُحاول بشتَّى الطرق أن تستثيرني وأن تدفعني للكلام. الكلام عن ماذا؟ كيف خمَّنت أنَّني فعلًا أضعت مجموعة صور مختلفة المضمون تمامًا عن أعمالي اللَّاحقة، أم أنَّها لم تكن لتكترث أساسًا لهذه الأعمال إلَّا لمجرَّد كونها فُقدت إلى غير رجعة. بعضهم بل أكثرهم يحومون حول قصص الحرب، وينقضُّون على نتفِ أحداث من هنا ومن هناك، كأنَّهم لا يرون الحرب كما يراها أغلب النَّاس، كرقعة خوفٍ سوداء تنبسطُ على مسافة خمسة عشر عامًا، تقسمُ التاريخ إلى ما قبلها وما بعدها، بل يفكِّكونها ويعيدون تركيبها بمجموعة أحداثٍ وروايات مختلفة في ما بينها، يجعلونها أكثر إلفةً وصدقًا في نظرهم. يجذبهم معاش الآخرين وسردهم لقصصهم، ويظنُّون أنَّهم بتسليطهم الضوء على تفصيل صغير يلتقطون خيوط الأمل والرَّاحة والعلاج من القلق المُزمن. فليفعلوا ذلك المعروف مع غيري، ليس معي. لا، ليس معي.

إحساسُ الشَّفقة لا يصمُد، قال لي أحدهم أيَّام هجرتي.

إن أشفق عليك أحدهم وخلعت عنك رداء الحزن في يوم من الأيَّام أحسّ أنَّك أمسيت شخصًا آخرَ. وقد ينفر من تحوُّلك، وقد يفاجئك بتوقه إلى لعبة الشَّفقة من جديد عاكسًا الأدوار هذه المرَّة، فيدَّعي مثلًا أنَّك أهملت صداقته ما إن تحسَّنت أمورك أو أنَّك لم تقف إلى جانبه مثلما فعل هو لحظة محنتك. إحساسٌ متقلِّبٌ يُثير التقزُّز. لن أقع في هذا الفخّ. اختفت الصُّور أو ضاعت كأيِّ غرض آخر، لا داعي لهذا التأمُّل. طرحت عليَّ الموضوع لترى إذا ما كنتُ أنا متمسكًا بأعمالي الأولى أو أنَّها...

رفعتُ يديّ وألقيتهما فوق جبيني الذي عاد يرشح عرقًا. نزعتُ المنشفة عن وسطي ومسحته، غير آبه أنّي أصبحتُ عاريًا تمامًا، وأنَّ نافذة الغرفة المطلَّة على الشقَّة المقابلة نصف مفتوحة. عادت ستائر الشرفة لتتطاير مع بعض نسمات الصَّيف. دوَّى ضجيجٌ من شارع البناية، كأنَّ أحدهم رمى بكيس من الزجاجات الفارغة في مستوعبات النفايات. طردتُ الفكرة من رأسي. لا، من غير الممكن أن تكون قد رأت أو حزرت ما أضعته فعلًا من أعمالي منذ سنين.

«غير معقول»، قلتها بصوت عالٍ.

انسحبت يدي صوب الجهاز. أعدتُ المنشفة حول وسطي. أجبتها

برسالة قصيرة.

مرّت دقائق وأنا أحدّق بالجهاز من دون حراك. ازداد عدد الرّسائل الواردة رسالة واحدة. وافَقت على لقائي اللّيلة. قبلت الدّعوة واقترحت أن تُحضِر البيرة في طريقها. العنوان سهل جدًا. لن تضيع.

سنجلس على الشُّرفة، علّنا نحظى بنسمة من نسمات البحر تتسلّل من بين الأبنية الشّاهقة أمامنا، كتبتُ لها.

انتقلتُ من طرف السّرير إلى أعلاه. أسندتُ رأسي على الوسادة وسحبتُ المنشفة أغطّي بها وسطي. فتحتُ ملفّ النصّ الجديد الذي بدأت بإعداده للموقع.

«تروي الصُّور الحيّز المدينيّ من خلال قصص الأفراد. يُشكّل الرّجل أو المرأة أو المجموعة النقطة الرئيسة في سرد تاريخ المساحات والأبنية والشوارع. تتوازى الخطوط وتتشابه الأشكال، ويبقى العنصر الإنسانيّ شاهدًا على خصوصيّة البشر واختلافهم في ما بينهم».

ارتشفتُ جرعة من كوب الماء. رنّ الهاتف منذرًا بوصول رسالة جديدة. لا شيء جدير بالذكر. إعلان عن تنزيلات في أحد المتاجر الكُبرى شرق العاصمة. تابعتُ الكتابة.

قالت زوجة زافين في شارع سبيرس إنّه بات يُشبه أمّه. لم يجد في كلامها ما يُثير الاهتمام إلّا عندما استرجع نهار الذكرى الأولى لوفاة والده قبل عام ونيّف. رأى سارية واقفة أمام باب الشُرفة في غرفة الجلوس، يكاد وجهها أن يلتصق بزجاج النّوافذ. غرقت بصمتها ذاك اليوم الماطر، وتهرّبت من مواجهته. تذرّع بالبحث عن ملابسه قبل أن يستحمّ. أشارت إلى الغرفة في الدّاخل. فلمّا لم يستجب وبقي مسمّرًا يُحدّق بها ليحثّها على الكلام، توجّهت نحو الغرفة وناولته ما يريد من غير أن تنطق بكلمة.

أتمّ سنته الأولى في البلاد في ذكرى وفاة جليل الأولى أيضًا، وانتقل إلى بيت شارع أرتوا بعدها بأسابيع قليلة. أدارت ظهرها للبيت، والتجأ نظرها التائه إلى مبنى النّادي الأرمني. أبعدت عنها عبء الإجابة على استفساراته المُتكرّرة حول صداعها، تشبّثت بمنظر المطر المتساقط فوق بيروت، وانسلخت عمّا خلفها، كما كان يفعل هو في أيّام الصغر. ضاق بها المكان وتوجّست من ألوان بيت سيزار الباهتة، وبدت كأنّها تُجرجر جسمها في أرجاء الغرف والمدخل.

لماذا لا تتمدّدين وترتاحين؟

...

لماذا لا ترتاحين؟ يُعيد سؤاله هامسًا، فترمقه بنظرة باردة.

لم تطوِ ذراعها الأيسر حول خاصرتها كالمعتاد. بل وضعت كفًّا فوق كفّ ورفعتهما نحو ثغرها. خرجت عن عادتها وبدت غائبة وهي أمامه، بانت وكأنّها متجمّدة راسخة في أرض البيت، كأنّها قطعة منه. لم يحزر أنّها تتجنّب اقترابه منها في تلك اللّحظة وهي منعتقة عن البيت والمدينة والكون. لم يستطع أن يتعرّف على أمّه ويبلغ خبايا نفسها إلّا في لحظات سهوها. وهي الحاضرة الدّائمة التي لم تنفك يومًا عن الاعتناء به وبوالده وبفراس وبخالتها فيوليت، وحتى بمروى إبنة حميّها قبل أن تنقلها عمّته زهريّة إلى مستشفى الأمراض العصبيّة. أيقن أنّها لن تراه في لحظة حزنها، لكنّه تقدّم ناحيتها إرضاءً لفضوله وتحسّبًا لمشهد قد يكون أشدّ قسوة. تحايل على عوائق الدار من أثاث ومن صناديق الكتب المرصوصة، وتقدّم من خلف الكنبة المزركشة. عاودته الريبة، وخشي أن يكتشف عيني سارية تغرورقان بالبكاء، فتنحّى عن تطفّله. لم يُدرك أنّها لم تكن تراه وقد نسيت

وجوده تمامًا. تأجّلت مواعيده إكرامًا للذكرى. وقرّر أن يمكث معها طوال النهار، لكنّها بدت كأنّها تتمنّى العكس، أن يغيب عنها كما في كلّ يوم، وتبقى لوحدها منفتحةً على حزنها غير عابئة بلملمته كلّما أشبعها بنظرات الشفقة. تمنّت لو لم تستطِع أن تُزيحَ عنها همّ فراس واتّصالاته المتكرّرة في غضون هذا اليوم، تشدّ أزره بكلمات مطمئنة لا تقولها لراجي القريب منها، كي لا يكشف تستّرها عن حزنها العميق الظّاهر في عينيها.

لم تبح يومًا بما تحبّ وما تمقت من الأحاديث ومن عادات اجتماعيّة. تجحظ عيناها عندما تسهو في بحر همومها بصمت، وتكتفي بنظرةٍ ثاقبة تنتصر بها على من يقطع عليها خلوتها الثمينة. مقتت الأماكن المزدحمة والاجتماعات جميعها، حتى في زياراتها المتقطّعة إلى القرية تحسب ألف حساب لدخول محافل العائلة. تتحجّج بخالتها فيوليت أو باتّصال هاتفي ينتظرها على رقم البيت، وتنسحبُ فاسحةً المجال خلفها أمام ثرثرة نساء القرية من كبيرات ومتوسطات السّن. تجنّبت احتفالات المدرسة التي يكثرُ فيها المعلّمون من الحديث عن أنفسهم، واكتفت بلقاء قلّة منهم منفردين في زيارات شبه رسميّة. تسكنُها الرّاحة ما إن يُغادرها الزوّار من أصحاب أو أقارب. تُقفل الباب خلفهم بعد أن يتواروا أسفل الدرج. وقبل عودتها إلى الداخل، تترقّب صوت بوّابة المدخل الحديديّة تغلق، فتستدير نحو البيت وتُقفل الباب متوخّية ألّا تُحدث أيّ ضجيج.

«صرت تُشبه والدتك»، قالت له زوجة المصوّر في شارع سبيرس بُعيد عودته إلى لبنان.

يقعُ الأرمن في الخطأ اللّغويّ نفسه، قال. ترسل معه في نهاية الحديث سلامًا لوالدته بعبارتها المُعتادة «سلّم لَماما». رأتها مرّةً أو مرّتين فقط حين احتاجت لصور لمعاملات رسميّة، وباتت تُصبّحها كلّما مرّت هناك. خطر له أن يُصوّب الكلام، ثمّ عزف عن ذلك، واستأنف سيره نحو مدخل البناية في الشارع الخلفي. أورثته سارية قلقًا مستمرًا رافقه طوال سنين غربته في فرنسا. أشبعته من حزنها الدّفين، حتى شكّل ملامح شخصيّته من خوفه وخوفها. ذاب الإثنان، فصار هو مرآةً لأحاسيس أمّه يتألّم لمصابها ويتشبّثُ بطقوسها، يعتني بتفاصيل الماضي، ماضيه وماضيها.

لديكما قواعد لا يعرفُ الواحد لها تفسيرًا، قال جليل يومًا. عاد من بلدة الكرك إلى بيروت بعد سنّ التقاعد، أقام مع سارية ثلاث سنين قبل وفاته. واجه كلًّا من سارية وراجي أثناء زياراته السنويّة بنظراتٍ، تدلّ

على نفاد صبره من الإقامة في هذا البيت، ومن تلاشي الأمل بالعثور على شقّةٍ جاهزةٍ للسكن بما استطاعا ادّخاره من بيع أراضٍ له ولها في السّهل أو في الجرود فوق الدير الأزرق. استفاق يومًا عازمًا على الرّحيل، مثلما رحلوا عن بيت مانويل في شارع ليون بعد الحرب وعن بيت السدّ قبلها، السّنة الرّابعة على نشوبها. رمى ما رماه، وجهّز عددًا من الكراتين راكمها عند مدخل البيت. اختفى الكرسي الخشبي الأزرق. رماه جليل منتقمًا منه وقد أزاح بفعلته هذه حملًا ضاغطًا من أعباء الماضي. هكذا، خسر راجي آخر غرض رافقه من بيتهم الأوّل في حي السّد شرق بيروت.

تفادى الإنفراد بوالده في الأيّام المتبقّية من عطلته الصيفيّة. وخشيت سارية أن يستغرق الإثنان في جدل محتّم عن إهمال جليل لأغراض بيتهم القديم في السدّ، كأنّه يتعمّد طي الصفحة مع تبدّل الأحوال. شكّلت الحادثة تلك وتبعاتها فصلًا حاسمًا في علاقته مع جليل، حادثة عابرة، اكتشف من خلالها ميلًا واضحًا نحو أمه التي انكفأت عن معاتبة زوجها على فعلته، مطلقةً شكواها متى خرجت عن صمتها لابنها راجي في أوّل سنيّ شبابه.

ما الحاجة للكرسي القديم؟ سمعه يقول لسارية بصوت خافت، كأنّه بدأ يحسّ بشيءٍ من الندم. لم يظهر من طلائه ما يُذكَرُ بلونه الأوّل إلّا مساحات محدودة. أتوا به من بيت السدّ، ولازم الغرفة الأولى التي شغلها راجي مع فراس في بيت شارع ليون، فظهر في عددٍ من صور أعياد الميلاد في أولى فترات مجيئهم إلى بيروت الغربيّة. نقلته سارية إلى شرفة المطبخ، بعد أن تآكلت رسومات الفواكه والحيوانات على ظهره ومقعده، وكادت تختفي صورة الفتاة التي ألصقها فراس على مسند الظهر. صورة فتاة يابانيّة كان اقتطعها من عدد من مجلّة ناشيونال جيوغرافيك من مخلّفات مانويل. قطع أطرافها باعتناء شديد، وعمد ألّا يبقي أيّ أثرٍ من الخلفيّة البيضاء وراءها. ألصقها بالغراء الأبيض وضغط براحة يده، وأخذ يعدّ: ألف وواحد، ألف واثنان، ألف وثلاثة حتى مرّت عشر ثوان. كانا وحيدين في البيت في فترة، أكثر فيها والداهما من زيارة آل الواكد في حارة حريك. اندهش راجي لجرأة فراس، يقوم بما لا يتجرّأ هو عليه. أدرك أن لا مكان له للمبادرة التي هي من صفات شقيقه الأكبر الطبيعيّة. توجّس من عمل أخيه، فأصدر صوتًا خفيضًا يضبط به خوفه. «اصمت!» أردَفَ فراس بهدوء حاسم يُخبّئ فيه غضبه على أخيه الأصغر الذي بات يُشاركه في كلّ ما كان له وحده قبل بضع سنوات. أكملَ العدّ حتى العشرة mille

et sept, mille et huit, mille et neuf كما كانت مدرّبة الرياضة تُدرّبهم على قياس الثواني. يتبرّم فراس من جُبنِ أخيه، ويروح يحضُّه على القيام بأعمال يظنُّها كفيلة أن تعوّض عن هشاشته. دفعه إلى القيام بحركات صعبة، طلب منه أن يتسلّق درابزين الشرفة الخلفيّة. انتصب خلفه مراقبًا كمدرّبيّ الرياضة. ارتعب راجي للفكرة في البداية من دون أن يُفصح عن رفضه. «جبان» راح يصرخ به ليحسم الموقف. جاب راجي الشرفة الصغيرة لا يستقرُّ على قرار. استفزّه كلام فراس ونظراته الماكرة التي ذكّرته بالصبية الشياطين ممّن كان يخشاهم في الصفوف الابتدائيّة. همَّ نحو الحافة واضعًا رجله اليُسرى، وهو لم يقتنع بعد بجدوى الحركات البهلوانيّة التي يُؤمر بها. وقف مرتعشًا وما لبث أن قفز إلى الخلف من جديد. انصرف فراس عنه غير مكترثٍ بإنجاز أخيه. تظاهر بمراقبة شيء ما يتحرّك في الحديقة في الأسفل، وكأنّه غير متورّطٍ بمجازفة أخيه تلك. اكتفى راجي بأن يعود لأخيه الأكبر صفاؤه. جاراه في بحثه عن هزٍّ يسيرُ بين الشجيرات البرّيّة تحت شرفة المطبخ. يرضى عنه فراس. تغمرهُ سعادة لا توصف.

لن يكتفي والده جليل بتأنيب فراس بسبب لَصْق الصُورة على الكرسي الخشبي. ولن يكتفي بزجره هو أيضًا، كما لو كان راجي هو المُحرّض الفعليّ على ذلك الإثم. سيختلي جليل بنفسه متصنّعًا أنّهما غير موجودين. سيسير نحو الحمّام أو صوب الغرفة التي يشغلانها لتناول غرض، من غير أن ترفّ له عين. سيتعمّد المرور بمحاذاة راجي مسرعًا مطأطئًا رأسه غير مكترثٍ بنظراته المُستجدية. ثمّ يعود بعد أيّام ليُسامحَ فراس، ولا يتكبّد عناء توجيه الحديث إليه أساسًا. ينسلُّ إحساسٌ بالظلم إلى صدره فيرتمي أرضًا، يفتحُ الجارور الثاني من مكتبة فراس، يُخرج منه قلم الحبر الأزرق الناشف وعددًا من مجلّة سميكة. يسحب ورقة بيضاء خلسةً من بين أوراق أخيه. يلقيها فوق المجلّة. يتمسّك بالقلم الأزرق بأصابعه الخمس، كأنّه يخشى أن ينتزعه منه أحدهم. يحفر بقلمه خطوطًا ومربّعات لساعات طوال، يرتجلُ بيوتًا وبنايات مصفوفةً الواحدة قرب الأخرى. يتأمّل فضاء الغرفة فوقه. يتذكّر تفاصيل رآها في شوارع المدينة التي لم يُبارحها منذ وُلد، إلّا لزيارة بلدة أبيه البقاعيّة أو خالة أمّه فيوليت في جرود جبيل.

ينزلُ نهار الأحد عليه كالقصاص. يترقّب الشجار المُحتّم بين والديه في فترة قبل الظهر. يلتهي عن فروض المدرسة ولا يُكملها إلّا مساءً.

ينصرف فراس لقراءة مجلّاته الرّياضيّة، وقد تأكّد أنّهم لن يبارحوا المنزل. يُقلّبُها بعصبيّة كلّما احتدم الصراع في غرفة الوالدين. يكادُ أن يُمزّق إحداها. يتأمّله راجي، ويتذكّر وجه والدهما عائدًا من المكتبة في شارع الحمراء، عندما اصطحب فراس لشراء مجلّات وكتب من سلسلة «قرأتُ». «مُسعّرة بالفرنك الفرنسي»، قالها متذمّرًا شاكيًا لسارية بومضة عين وضعهما الماديّ المُتعسّر. رسخ كلام والده في ذهنه، وأخذ يبحث عن المعنى الكامن في لفتة سارية المضطربة لما تفوّه به جليل أمام الولدين. يرمي فراس بالمجلّة أرضًا، بعد أن يعبث بصفحاتها الرقيقة. يتغاضى راجي عن الالتفات نحو مكان سقوطها خوفًا من أن يُشعل غضب أخيه.

كأنّه اليوم نسي قصّة الكرسيّ. وكأنّ سارية، مثله تمامًا، تُقدّسُ أغراض البيت وأثاثه. فكلّما تراكمت الأيّام على غرضٍ ما ازدادت رتبته عندها. نعت راجي أباه بالمستهتر، عندما سوّلت له نفسه وراح يُفرّط بالحقائب القديمة عند عودته من الكرك. يجمع الصغير منها في الكبير، وينتظرُ حلول الظّلام لينزل بها إلى مستوعبات النفايات خلسةً، مثلما كان يفعلُ في بيت شارع ليون يوم غادروه عند انتهاء الحرب. انتقل توجُّسه من أفعال أبيه إلى مختلف مقتنيات البيت. عاين بعد كلّ غيبة موضع الثحف فوق الصندوق الخشبي. فإذا قام أحدهم بتحريكها أو استبدلت بأخرى، غضبَ وصاح بسارية مغتاظًا، مكرّرًا استياءه من حركة التغيير المستمرّة. كأنّه يمتحنُها ليرى إذا ما كانت تُجاريه فعلًا، وتتفهّم توقه إلى الثّبات والاستقرار، حتى من خلال تماثيل الخشب وبراويز الصُّوَر. دخل في سجال طويل معها، خلُص من بعده إلى أنّها تُفضّل الحقبة الأولى في بيتهم في حيّ السدّ، وقد باتت بالنسبة لها رمزًا للطمأنينة. أمّا ما تلاها من أحداث ونزوح مباغتٍ إلى بيت مانويل في شارع ليون، فيقع في خانةٍ ملتبسةٍ، تذكّرها بالتهجير وبمحاولاتها اليائسة لبناء عالمٍ آمنٍ لها ولولديها في آنٍ معًا. لم ترق له الفكرة، وتعجّب كيف لها أن تُغيّب عشر سنواتٍ من عمره أمضاها في أرجاء بيت مانويل يلهو ويرسمُ ويحلم بمدينة ما بعد الحرب. تنازل عن ثقته بها، وألبسها صورة متورّطٍ صامت يحتمي خلف نظراته الحزينة.

كان موت جليل المُفاجئ كفيلًا بأن يمحوَ نهائيًا ما بدّلته السنون من صورة سارية. وبدلًا من أن يشملها راجي في محاكماته الخياليّة للماضي، راح يستحضر لها المبرّرات، علّه يُكفّر عن تصرّفاته الرعناء أوّل شبابه.

III

من الصعب أن تصف عملك بنفسك.

تكتب عن تفاصيل حميمة عشتها أثناء التَّحضير، ثمَّ تلجأ إلى أفكارٍ راكمتها من قراءاتٍ وندواتٍ وسواها من المناسبات الثقافيَّة والإجتماعيَّة. تبتعدُ عن فكرة العمل الأولى مهما كان. تُلفع كلامك باستشهادات، وتنزع عن أعمالك عفويتها.

من الأصعب أن تُسلِّم عملك ليصفه آخرون.

سينبشون منه دلالات وصورًا لم تخطُر ببالك. سيجعلونه من خاصيَّاتهم مؤوِّلين معناه الأوَّل. ثمَّ يلجأون بدورهم إلى أفكار اقتطفوها من قراءات وندوات وغيرها من المناسبات الثقافيَّة والاجتماعيَّة وما شابه.

بين الصعب والأصعب يسهل الخيار.

بالمختصر المفيد، سأُرفق كلّ مجموعة من مجموعات الصُّور الثلاث بنصٍّ توضيحيٍ عن الفكرة الجامعة بين الأعمال فيها. كلَّما بسَّطت الكلام واختزلتَ الفائض منه وصلت لمتتبِّعيك. محبُّو التَّصوير الفوتوغرافيِّ فئتان: فئة المتفرِّج السَّهل، وفئة المتفرِّج العارف. كلاهما يهربُ من اللُّغة الرنَّانة. الأوَّل، لأنَّه مقتنع أنَّ الصُّورة أكثر بلاغة من الكلام، كما سمع من المتخصِّصين؛ أمَّا الثاني، فلأنَّك كلَّما استرسلت بزخرفة نصوصك أحسّ بهوةٍ بين كلامك وعناصر الصُّورة الفعليَّة. ومهما قلت، فلا بُدّ أن يتَّهمك بالإطناب وبالمبالغة.

مُختصرٌ مفيد.

لكنِّي حتى في اقتصادي بالكلام، وباعتناقي سياسة التعبير البسيط بما قلّ ودلّ عن عملي، وجدتُ من رأى بذلك تصرُّفًا استفزازيًا نعته يومها بالمُتعالي والنخبويّ البائس! فليكن. لقد انتظمت أحاسيسي تجاه المتطفِّلين على عالمي. اكتشفتُ الحياة من جديد، حين ترفَّعت عن النقد اللاَّذع مكمِّلًا مسيري بالرَّغم من الصِّعاب.

ثلاث مجموعات هي التي رفعتها حتى الآن. مائة وثلاث وأربعون صورةٍ لكلٍّ منها عنوانٌ عريض ونصٌّ قصير. عشرة سطور لا أكثر.

مجموعة الخريف.

هذه مجموعة صور التقطتُ أكثرها أثناء هجرتي الطَّويلة. الخريف هو الفصل الذي هاجرتُ فيه من بيروت، وهو أوَّل عنصرٍ

جذبني في الطبيعة هناك. خريف الأوراق المتساقطة بالمعنى المباشر. والخريف بالمعنى المجازيّ الذي يرمز إلى الزمن الحزين الذي يسبق النهايات. صورة شاعريّة استعارها كثيرون آخرون، لكنّ وقعها راق لي أيضًا. ورق الخريف وبقايا الخريف في صُوَر. كأنّه الزمن الوحيد الذي تنقشع فيه معالم الأشياء، فتتوضّح بداياتها ونهاياتها.

تذكّرتُ اليوم تلك اللّحظة التي كنتُ أرفع فيها الصُورة تلو الصُورة منذ بضعة أشهر. اخترتها جميعًا من السّنوات العشر الماضية، مع استثناءاتٍ قليلة. كانت تخترقني أحاسيس مختلفة تكوَّمت في داخلي، اختلط فيها الخوف والرّاحة في آن. شعرتُ بشيءٍ من الأمان، بالرّغم من قلقي على تشتُّت ما اختزنته من صور التقطتها في العالم. والأمان أتى من الشوق إلى نشر أعمالي والتعريف عنها أمام الجمهور العريض، فلا تبقى حبيسة مختبري وأسيرة عالمي الصغير.

برَزتْ إطلاق اسم التوائم على المجموعة الثانية بالتطابق الحاصل، ليس فقط بين العناصر المتشابهة ضمن إطار الصُورة الواحدة، بل بين الأعمال في ما بينها كذلك. كأنّ هوسًا ما قد اكتنفني ودفعني لأبحث عن المشهديّة نفسها في مواقع جغرافيّة متباينة. أبتعد عن المشهد الأوّل مسافة وزمنًا، فأجدني متمسّكًا بحالة وبترتيب معيَّنٍ يُقيّدني به. تلقائيًا، سيشعرُ المُشاهد أنّه أمام مواقف متشابهة تمامًا كالتوائم، وإن تنوّعت الخلفيّات في ما بينها. رجلٌ يُشبه آخر في حركته أمام صندوق السمّان، وطفلة سمراء تُشبه امرأةً مسنّة بتعابيرها الحزينة في مكان خالٍ يُسلّط الضوء على وِحدتها. سيلتمسُ المُشاهد الغموض الكامن وراء هذا الترتيب، وسينجذب للعبة البحث عن الصُورة المُشابهة بين الصُور الأخرى في المجموعة. أمّا في المرّات القليلة حيث التشابه يكون ضمن الصُورة الواحدة، فقد يُدرك أنّ التوأمين ليسا متطابقين بالضرورة، أو أنّهما، في الأساس، من أنواعٍ وأجناسٍ مختلفة. امرأةٌ وحصانٌ، بابٌ في بيت قديم وخزانة مطبخ بالحجم نفسه، رجلٌ وتمثال في ساحة عامّة يتشابهان بوقفتهما، عارضة مرتمية فوق بلاط الأرض تُشبه بعريها تمثالًا من الرّخام الأبيض في أُفق الصُورة. التّشابه واردٌ في كلّ الحالات. الأشخاص تتشابه والحالات تتكرّر وتتفاعل بين بعضها بعضًا.

السّاعة الواحدة.

هممتُ بالنُّهوض. نزعتُ المنشفة عن وسطي. تناولتُ سروالًا

قصيرًا على الجانب الآخر من الفراش. اتَّجهتُ نحو المطبخ أبحثُ عن شيء أسدُّ به جوعي. نصف منقوشة من الصَّعتر مرَّ عليها يومان. التهمتها وأنا أبحث في البرَّاد شبه الفارغ عن شيء آخر. علبة سردين مفتوحة وقطعة صغيرة من الجبنة الصفراء. نقلتُ علبة السَّردين من باب البرَّاد إلى أحد الرُّفوف، ثمَّ أخذتُ أقضم القسم الذي اجتزأته من الجبنة وأنا في طريق عودتي إلى الغرفة.

المجموعة الثالثة هي مجموعة الجمهور العريض، كما أسميتها في سرِّي. أردِّد العبارة مبتسمًا منذ أشهر أثناء تحميل الصُّور. لن تعصى بمعانيها على المُشاهد، قلتُ. هكذا يشعرُ كأنَّه يمرُّ على ألبومات عائليَّة ألِفها منذ الصغر. مجموعة النَّاس. فرصة مناسبة استغلَّها مهاجمي عينه ليلَقِّبني بالمُتعجرف، وكأنِّي أنتزع من باقي العارضين صفاتهم الإنسانيَّة، أو كأنِّي أضع النَّاس في هذه المجموعة ضمن خانة الأشياء، كالسيَّارات أو البيوت أو الأشجار أو الحيوانات، على حدِّ قوله.

هذا كان ما كتبه لي في خطابه الخاصّ.

«... والأدهى والأنكى في عملك الفريد أستاذي الكريم هي هذه المجموعة التي خصَّصتها للنَّاس، وكأنَّك لستَ منهم بل من فئة أفضل وأسمى. ليتك اكتفيت بحفلات الزفاف والمناسبات الدينيَّة، وتركت حُرمةً للمآتم وللموت. غير أنَّك معذورٌ، فأنت لست منَّا. لست إنسانًا بل أفضل بكثير...»

رسالة طويلة طبعتها، علَّني أجد خيطًا يمدُّني بمعلومةٍ عن هويَّة صاحبها. لا شيء. قد أكون قد صادفته في المدينة هنا منذ عودتي. قد يكون استحسن أسلوبي في التَّصوير، لكنَّه وجد ما يُنفِّره فعلًا في الكلام القليل الذي أرفقته بمجموعاتي حتى الآن.

لم أُجبهُ. قرَّرتُ إعداد نصٍّ عن كلِّ مجموعةٍ، علَّه يهدأ باله وبال كلِّ من استفزَّه هذا الموقع.

أبي فايز المعلّم إلّا أن يأتي على ذكر والده المرحوم قُبيل خروجه من دكّانه. كان المعلّم الغليظ الرقبة يُفاخر بعلاقته بالزبائن الكرام، كما يقول ويُسمع القاصي والدّاني أنّه لا ينسى أحدًا ممّن تطأ قدماه عتبة متجره الصغير. يُسمعه من الكلام ما قد يثير الحنين والشوق لأيّام خلت، ويعود ويكرّر أنّ أيّامها بالرّغم من قساوتها كانت أفضل من الوقت الرّاهن. يُسهب في الحديث عن جليل أيّام حرب التّحرير، ويسترجع حادثة تخاله يتذكّرها بدقّة يوم قُصف فندق رويال غاردن، بينما كان جليل يتبضّع من دُكّانه. سقطا أرضًا كما يقول، ومكثا منبطحَين معًا داخل المحلّ إلى أن توقّف القصف. يستدرك راجي سبب تجنُّبه دكّان المعلّم. لم يكُن يروق له أن يسترجع كلّ هذه الصُور والذكريات. لا لأنّ استذكار والده قد يُؤلمه، إنّما لاستسهال المعلّم فبركة الأخبار من غير أن يُراعي أيًا من التفاصيل الحقيقيّة. يرتكبُ الخطأ تلو الآخر ناسيًا مثلًا سعر صرف العملة أوّل أيّام الحرب، فينسبُ أسعارًا بألوف اللّيرات لغرضٍ ما، بدلًا من الرّقم نفسه بحذف الأصفار الثلاثة. يختلق القصّة من أوّلها إلى آخرها، ويحلف باللّه العظيم أنّه لا يقول إلّا كلمة الصدق. يأخذُ راجي إحساسٌ بالشفقة على الرجل المُسنّ. إحساسٌ قد يتبدّد، إذا ما استعاد في ذهنه مشهد الشجار الذي دبّ بين السمّان من جهة وبين «الفرهود» صديقه الوحيد إبن جيرانهم في شارع ليون.

يتملّق المعلّم الأطفال، فيغريهم بالحلويات الأغلى ثمنًا على مرأى منه ومن الفرهود. إلى أن بادر الفرهود يومًا وعلّق على الموضوع، ما أثار حفيظة المعلّم. علت نبرته مع إبن الفرهود الذي أراد أن يُلقّنه درسًا بالأخلاق، بحسب تعبير السمّان. صاح بهم بصوت جهوريّ: «برّا»، من غير أن يُحدّد إذا ما كان نداؤه يشمل الاثنين أو الفرهود وحده. انتاب راجي ذعرٌ ممّا جرى، وقد بقي ماثلًا صامتًا قرب صديقه يتمنّى أن يُستَّر على الموضوع. اتّجها صوب الشارع الرئيسي، عبرا الرّصيف البنفسجي والمقهى المُغلق. انهمرت عليه من الفرهود ألف شتيمة لفايز المعلّم بعبارات كان يجهلها من قبل. تصاعد ارتباكهُ كلّما دنا الفرهود من الكلمات النّابية تنزل عليه، وهو يأكله الخوف والخجل من تخاذله أمام السمّان.

لم يُشعره الفرهود مرّةً أنّه أقلّ جرأة منه، ولم يكن يُحدّثه عن كرة القدم مثلما كان يفعل مع باقي الصبية أثناء الفرص. تبتعدُ أحاديث فتيان الصّف عن أجوائهما، ويبقى مزاجُ راجي رائقًا. يعرفُ سلفًا أنّه لن يضطرّ

لاصطناع الاهتمام، ولا لأنّ يثّقي بعض المواضيع، فيسعى جاهدًا أن ينسلّ من الحديث. لكنّ ما جرى عند فايز المعلّم أثار جلبةً في رأس راجي في أولى سنوات مراهقته. ضربه شيءٌ من فقدان الثّقة حتى بمن ظنّهم من الأقربين، إلى أن خلَص إلى أن لا أمل بأن تلتقي أفكاره مع أيّ شخصٍ كان.

تزامنت واقعة شجار الفرهود والسمّان مع الفترة التي ربط فيها السمّان قصّته مع جليل والد راجي. كان الشتاء في آخره، وكانت ملامح الحيّ تميلُ للألوان الفاتحة، أو هكذا يحلو لراجي اليوم أن يرسم خلفيّة سنة المعارك، وفترة هروبهم من بيروت لأشهر طوال. فترةٌ، تسبق وصول عربات اللّوز الأخضر المتجوّلة إلى الحي، وتلي إطفاء مدافئ الكاز المُنتشرة في البيوت منذ حرب السنتين. توهّجت ألوان البنايات تحت السّماء الزرقاء، ولمع لون درابزينها الفيروزيّ تحت بريق الشمس الصافية تضربُه بأشعّةٍ حمراء من البحرِ غربًا، من صوبِ الحمّام العسكريّ. اشرأبّ عند سماع قصّة السمّان في زيارته الأخيرة، وتمنّى لمرّة أن يكون والده حاضرًا، ليُثبت للرجل الغليظ الرقبة أنّ الأمور التبست عليه، فجانبه الصواب.

لا، لم يكن جليل ليفعل ذلك. كان يعتنق سياسة النقد اللّاذع المُستمرّ مع أفراد عائلته الصغيرة، ومع راجي بالأخص. فقد دفع راجي الثمن الأغلى من تعنُّت والده وطباعه الحادّة. أمّا خارجَ إطار بيتهم الضيّق، فيتحوّل جليل إلى مُحدّثٍ مصالحٍ مؤيّدٍ لغالب ما يُقال، يُطأطئ رأسه مبتسمًا، متّكئًا على جانب الكرسيّ في الجلسات العائليّة. لم يكن جليل ليصوّب مجريات حادثة قصف الرويال غاردن، ولم يكن سيحاول أساسًا أن يغوصَ في قصّة المعلّم. بل كان ربّما سيفرح بأن يأتي على ذكره أحدهم في إطار التبجيل والممالأة، وأن يكون هو، جليل إبن نايف، محور حديث أهل المدينة في محيط شارع الحمراء. وإن بدا سرد الأحداث غير منطقيّ، فلن يرفُ له جفنٌ ولن تستفزّه إعادة حياكة الماضي بأقاصيص مفبركة، ولن يتجرّأ أن يُضيف معلوماته. كان سيكتفي برسم نصف ابتسامة على ثغره تجمعُ بين الأسى والاشمئزاز من تلك المعاناة، مدّعيًا أنّه اقتنع بكلّ ما قيل، أو أنّه نسي حذافير الرواية. وحدهم أفراد أسرته الثلاثة الآخرون يتقنون قراءة المعاني الكامنة وراء كلٍّ من حركاته المُتكرّرة. يحلّلونها ويستبدلونها بمعناها الأصليّ الذي تمرّس جليل بكتمانه أمام الآخرين.

طفرت الدموع من عينيه للمرّة الأولى علنًا، حين وصله نبأ وفاة

والدته طاهرة. كان فراس يتظاهر بتدريب أخيه على تركيب المكعّبات فوق السّجاد الكالح، يلتهي عنه بنظراتٍ شاحبة ويعود، ويزدادُ غضبًا وتأنيبًا لراجي اذا ما أفلتت منه إحدى القطع. تمترست سارية إلى جانبه، وأمسكت بذراعه مصغيةً إلى حامل الخبر من الكرك إلى بيروت. قُطعت طريقُ البقاع بسبب تراكم الثلوج، وقضى العشرات على الطريق الدوليّة. اضطرَّ البعض إلى القدوم جوًّا إلى بيروت عبر مطار دمشق، من بينهم يوسف ابن خالته. انكشف في وجه يوسف خبر الوفاة منذ اجتازت قدماه عتبة الباب. لم يعرف جليل إلى أيِّ من أسباب الأسى يردُّ مرارته اليوم. أكان تهجيره وأسرته من حيّ السدّ في شرق العاصمة ووضعه الإقتصاديّ المتدهور، أو بسبب لجوئه منذ أشهرٍ إلى هذا البيت بعد محاولات بائسة لاستئجار شقّة في ضواحي بيروت الجنوبيّة؟ هل يحزن اليوم، لأنَّ أمَّه طاهرة ماتت ودُفنت من غير علمه، أم لأنّه لن يتجرّأ على تحدّي الثلوج والعودة إلى الكرك من طريق جبال الشوف. عاشت أمّك طاهرةً ودفنها الثلج، قال يوسف. ساد صمتٌ. غطّاها الثلج أردف تصويبًا. استساغ جليل الصورةَ، فرأى أمّه بوشاحها النقيّ تتوارى خلف التلال البيضاء تحت شمس السّهل الشتائية.

لكنَّ اليوم الذي اشتدّ خلاله القصف، وسُجلّت به إصابات مباشرة في حيّهم الجديد، ليس في الفندق فقط بل بمراكز عديدة أخرى، لم يكن جليل فيه في دكّان المعلّم، قال راجي. بل لم يكن قد خرج أساسًا من البيت على ما يذكُر. اختلطت الأمور على صاحب الدُكّان، فلجأ إلى تركيب قصّة أخرى من معركةٍ سابقة، رُبّما من حرب العلَم قبلها بسنواتٍ قليلة، اضطرَّ خلالها جليل إلى المكوث في دكّان السمّان جارهم مع سيّدة من آل باحوط، ريثما عاد الهدوء الحذر إلى الجوار. أو ربّما لم يكن ذلك حدث إبّان حرب العلم اللّعينة، بل أثناء جولة من الجولات السّابقة التي لم يعُد يَعيها راجي بُعيد وصولهم من حيّ السّد. بيد أنّه يذكر تمامًا يوم قُصف الحيّ بأكثر من خمسين قذيفة، استقرّت إحداها على سطح بناية الفرهود وأخرى خلف مدرسة البالية على ما سمع، والعديد منها على فندق الرويال غاردن، وعلى فندق الكومودور وفي حديقته وحوض السباحة المكسو بالفسيفساء الأزرق.

كان نهارًا مشمسًا. وكان صفاء السّماء يُزعزع قناعة راجي بأنَّ الاضطراب الأمنيّ يتزامنُ فقط مع تلبُد الغيوم. ارتبط القصف بالطقس الماطر، بل كان الطقس الغائم يُرادف حالة الريبة وترقُّب الأسوأ. أرجع

السَّبب لتزامن أحداث عامين إلى الوراء مع عواصف شتائيَّة، ارتطمت على أثرها أمواج البحر بمبنى السَّفارة الأميركيَّة المنهار في منطقة الجامعة. رأت سارية المشهد من سيَّارة جليل، فروته له بالتفصيل وكأنَّها تُحيد الاهتمام عن دويّ الإنفجارات ورشقات الرصاص الآتي من شارعي الحمراء والضوراتي. كاد أن يبول على نفسه من الرعب، وهو ينتظر عودة الإثنين من بيت الواكد، وقد خلا الشارع من المارَّة وأخذ صوت الانفجارات يقترب أكثر فأكثر! ربّتت سارية على كتفه وهو يَجهشُ بالبكاء مفرغًا كلَّ ما كبته من خيالاتٍ سوداء مدَّة الإنتظار. جاب مع فراس أرجاء البيت، علَّهما يلمحان السَّيَّارة من خلف الزجاج تصطدم بحافَّة الرَّصيف الصخريَّة قبل أن تتسلَّقه وتستقر فوقه. ظلّ فراس شاحب الوجه ساعاتٍ بعد عودة أهله. جلس الجميع في المَمرّ. وزَّع جليل المساند أرضًا وأشعل مدفأة الكاز. لم تُقطع الكهرباء. حمل التلفزيون من غرفة الجلوس قرب المدخنة، ووضعه أرضًا. سحب شريط الهوائيّ، فنجحَ باستعادة صفاء الصُّورة؛ وتسمَّروا أمام محطَّة الإرسال الجديدة في المنطقة الشرقيَّة تبثّ البرامج المعتادة، كأنَّ شيئًا لم يكن. خرج جليل مرَّةً واحدة قبيل نهاية المعارك يطمئنُّ أنَّ السَّيَّارة لم تتضرَّر، ثمَّ عرَّج على فايز المعلِّم الذي فتح أبوابه في اليوم الخامس، وابتاع ست عُلب لحمة ذات العلامة الحمراء والصفراء، بعد أن تأكَّد من تواريخ صلاحيَّتها. حمَل بيده اليُسرى علبة من الجبنة المطبوخة وكيسًا من الكعك المستطيل. لم يجد سوى ربطة خبز واحدة. تمنَّى لو يجد بعض الخضار، فعاد واكتفى بكيلو واحد من التفاح الأصفر. علِموا أنَّ المعارك تركَّزت شمالًا تجاه حي القنطاري بين شارعي كليمنصو وجوستينيان. أمضوا ما يقارب الأسبوع يتحرَّكون بين الممشى وبين الغرفة الأولى.. هكذا، حتى خفَّ صوت الطلقات الناريَّة. خرجوا جميعًا إلى الشرفة ينظرون إلى المارَّة القلائل كمن يخرجُ في نزهةٍ للنقاهة صوب مكان بعيد.

مضغ راجي شرحات التفاح المشويّ، وغمس آخر شرحة بالقليل من السكر. هدأ باله منذ تباعدت أصوات الطلقات الناريَّة، وتنفَّس الصُّعداء حالما ارتسمت ابتسامة على وجه سارية. تفادى أن تقعَ عيناه في عيني فراس تجنبًا لإحراجه في ظرف يخرجُ عن سيطرته. وحده دويُّ القذائف كفيلٌ بأن يُعيده إلى الطيبة، قال في نفسه. ينزوي في مكانٍ واحدٍ لا يبارحه. يضغط بابهاميه على الأذنين ويطرقُ رأسه في الأرض. حذا حذوه، فقبع صامتًا في الجهة المُقابلة يعدُّ بلاطات الممرّ الطويل تارةً، ويعودُ ليُراجع جداول الضرب تارةً أخرى، فتتشابك الأرقام ويُخطئ ويتعثَّر. علا

الدويّ فتسارعت الأرقام في ذهنه وتلعثم، جفَّ حلقه وسكنه الفراغ لبرهةٍ. ما لبث بعدها أن استدرك، وعاد يُردِّدُ في ذهنه ألفاظًا مفكّكة. يأتي بكلمةٍ ليُفجِّرها كالقذيفة، فيُبعثر أحرفها ثمّ يُعيد تركيبها، فتصبح تُفّاحة ثُ فاحو أو تِف تِف، كوريدور كوري كورا كورادُز، دُز دُز دُز، بَيت، بِت، بت، بت...

رشقات الرّصاص المُتقطّعة هي الأسوأ عادةً، لا الإنفجارات. إذ إنّها تُنبئ بأنّ اشتعالًا ما قد شبّ على مسافة قريبة، وأنّ السجال الحاصل بين فئتين من المُسلّحين أو بين مسلّحَين اثنين من أيّ انتماءٍ كانا، ليسَ إلّا انذارًا بأمرٍ أعظم. ما يُذكّر بمحاور الشرّ القريبة المُتغلغلة في منطقتهم، يؤزّمه أكثر من مصادر القصف البعيدة، فيرى الألم كلّه قد انصبّ على ما يسعى أن يبنيه من سكينةٍ بين الفينة والفينة، ودخل عنوةً إلى عقر بيتهم. أمّا رشق الرّصاص المُتواصل، فيردُّه لسائق سيّارة إسعافٍ تُقلُّ حزبيّين أو زعيمًا، مثل أولئك المقيمين قرب شارع المكحول.

بيد أنّ المعركة بين شطرَيْ العاصمة التي تذكّرها السمّان دون سواها، حملت لأسرة راجي تجربةً مضنية، دفعتها إلى مغادرة بيروت والتنقّل بين سهل البقاع وقرية سارية في جرود جبيل. لم يكترث راجي لتأريخ الحادثة التي حوصر فيها جليل في دكّان المعلّم مع تلك السيّدة من البناية المُجاورة. ورجّح أنّ الصُورة لا تنتمي أساسًا إلى ملعب ذكريات الحرب. فلم يتكبّد عناء التبحُّر فيها، ولم يكترث أن يعرف إذا ما كانت هذه هي الذكرى التي أوقعت المعلّم بالالتباس. ذلك أنّ فترة نهاية الثمانينيّات قد مدّت جذورها وفرَشَتها في ذاكرة راجي. تهيّأ له أنّه لن يحتاج في المستقبل لأن يقتفيَ أيّ تفصيل، إذ إنّ الصُورَ لا تزال متوهّجةً تتصدّر سواها من ذكريات.

يختبئ معظم سكّان الجوار في الطوابق السُفلى من بناياتهم، أو في بيت الدرج إذا ما كان داخليًا آمنًا غير مكشوفٍ على الطرقات. وتصبحُ المساحة الوحيدة التي تُوحي بالأمان في داخل البيوت هي المماشي التي توزّع غرف النوم أو حتى الحمّامات، إذا ما كانت محجوبة عن الخارج. أمّا الملاجئ في الحي، فهي قليلة جدًا، ولا تجدها إلّا في الأبنية الحديثة الفخمة خلف بيتهم. أمّا في بنايتهم وسائر عمارات أوائل وأواسط الخمسينيّات، فإنّ الملاجئ إن وُجدت، فهي ليست إلّا مساحاتٍ ضيّقة حوّلها مالكوها إلى مستودعات أجّروها لتخزين بضائع تجّار وسط المدينة مع اندلاع الحرب.

سمعَ راجي من الفرهود لاحقًا أنّ الاختباء في المماشي لا جدوى

منه. «مثل قلّته»، قال. فالأسلحة باتت متطوّرة وهي تُرسَل لنا من تلال المتن، أو من مرابض اللّواء الخامس في بلدة الحدث، وهي ليست كفثيش حروب الشوارع.

الصاروخ يخرق جدارًا واثنين وثلاثًا وأربعًا قبل أن ينفجر. وهم حتى الآن لم يرموا سوى القليل من ذخيرتهم.

قولك؟

معلوم راجي، معلوم!

يُتمتم الفرهود الكلام خافضًا صوتَهُ، حانيًا رأسه ليصبح بمستوى كتف راجي. يُفاجأ راجي كيف غيّرت الأحداث الأخيرة إبنَ الجيرة الجديدة وصديق المدرسة الوحيد! يُعجبُ بحديثه المُتماسك الذي يُطابقُ حديث الكبار وهم يُمعنون بتحاليلهم حول معارك جديدة مفترَضة مستبقين الأحداث. يُنهي الفرهود كلامه سعيدًا بأن يُبادله راجي الثّقة. فهو عوضًا من أن يختتم تحليله بترقُّبٍ لشرٍّ عظيم آتٍ لا محال، كما يفعل الكثيرون، كان وبشكل غير إراديّ يُهدّئ من خوف راجي. فيقتنعُ الإثنان أنّه بالرُّغم من ضراوة المعارك اليوم، فإنّ الأزمة لن تطول ولن يُلزموا أن يُعيدوا سنتهم الدراسيّة.

كان النهار مشمسًا، والرَّبيع يدخل شهره الأوّل. وكان القصف في اليوم السّابق قد طاول أحياء كثيرة في الشّطر الشرقيّ من بيروت، فسقط من بين الضحايا نائب في البرلمان، أطلّ من شرفته ليردّ على نداء استغاثة من سيّدة في بيت مجاور. أصيب قبل دقائق. سقط صاروخ ثانٍ في الشارع أمامه، فأرداه على الفور. نُقل جثمانه بعدها إلى مستشفى قريب.

وَسعت رقعة العنف.

شارع ليون شبه خالٍ إلّا من بعض سيّارات الأجرة، تمرّ بسرعةٍ مجنونة بين الحين والآخر، تصطادُ راكبًا أو راكبين، ثمّ تُكمل مطلقةً زماميرها كسيّارات الإسعاف. صوت دويّ الإنفجارات عميقٌ، مصدره ربّما بعض الأحياء المتاخمة لخطوط التماس. في البربير ربّما، أو رأس النبع، أو قصقص. غلب الهدير على أصوات مذيعيّ الأخبار، فانشغل جليل بتبديل بطاريات الترانزيستور الأبيض، نزع القديم منها ووضعها على زجاجة الخزانة السوداء في المدخل، فتدحرجت إحداها وارتطمت بالأرض. لم ينحن للمّها واكتفى بازاحتها بطرف رجله إلى تحت الخزانة، كي لا يتعثّر بها أحدهم. ذكر مراسلٌ إذاعيّ من المنطقة في نبأ عاجل أنّ الأحياء

المتاخمة لخط التماس تتعرَّض لقصف مركَّز، وقد سقط منذ ساعة ما لا يقلُّ عن خمسين قذيفة بين ميدان سباق الخيل ومستديرة شاتيلا. جلسوا إلى مائدة الطعام في وقت باكر على غير عادة. سلقت سارية خمسة رؤوس من البطاطا البقاعيَّة، وأضافت شرحات من البصل فوق صحن من سلطة البندورة. اكتفت بالقليل من الزيت، وأكثرت من خلّ التفّاح أرسلته لها فيوليت مع اسكندر السّائق إلى معبر البربير، قبل أسبوع واحد من اندلاع حرب التّحرير. جلس راجي قُرب فراس كعادته، أزاح صحنه للجهة المقابلة كأنّه يخفيه عنه. وضعت سارية رأسي بطاطا في صحن جليل، وقرَّبت منه صحن البهار.

توالى دويّ الانفجارات على نحو مفاجئ. اقتربت رقعة العنف. مال وجه جليل الحادّ إلى الاصفرار، وتوقَّف عن مضغ ما علق في فمه من لقمة البطاطا. تخلّى فراس عن صحنه، وانتصبوا جميعًا محدثين زيزقة بكراسي الحديد الثقيلة.

لم يعُوا ما يجري، حتى حيّهم الذي خالوه نائيًا عن الأحداث الأخيرة راح يُقصف بشكل مركَّز. سقطت المقولة التي طمأنت الكثيرين من أبناء المنطقة في سابق أيّام الأحداث، أنَّ أحدًا من زعماء الحرب لن يُجازف بقصف منطقة من الشّطر الغربي بتنوُّع حيّهم. وسِعت رقعة الخوف، فخطر لجليل أنَّ عائلته ستُفنى. تحرَّكوا جميعًا نحو المدخل من غرفة الطعام. وقبل دخول الممشى الطويل، مدَّ جليل ذراعيه حول سارية وحول الإبنين، وكأنَّه يحتضنهم للمرَّة الأخيرة. تحرَّكوا كتلةً واحدة بشكل دائريّ نحو الممشى. بدأ انفجار صواريخ الراجمات المنهمرة يهزُّ الجدران والزجاج المُحجَّر في الأبواب الخشبيَّة الداخليَّة. تسرَّب الذُّعر إلى أرجاء البيت، وانحبست أنفاسهم. قبعوا على أرض الممشى. وتمسَّك جليل بالترانزيستور الأبيض. ذكرت إذاعة خاصَّة من الشّطر الغربي أنَّ القصف العشوائيّ طال أحياء القنطاري والظّريف وعائشة بكّار وقريطم والصنوبرة وغيرها من الأحياء، التي تُقصف للمرَّة الأولى منذ اندلاع المعركة في الرَّابع عشر من آذار، وأنَّ شهود عيان أكّدوا أنَّ مبنى الإذاعة اللبنانيَّة في الصنائع يشتعل في طبقاته الثلاث الأخيرة. ذكرت إذاعة من الشّطر الشرقيّ، في ملحقٍ إخباريّ، أنَّ القصف المجنون على تلال المتن أدّى إلى مقتل الأديب توفيق يوسف عوّاد وابنته سامية مع السّفير الإسباني لدى لبنان وأحد رجال الشرطة. شهقت سارية بأعلى صوتها. لم يكن راجي سمع باسم الأديب بعد. لكنّه أدرك أنَّ هذه الحرب أصبحت منذ تلك اللّحظة صراعه هو، وأنَّ

ما يجري من تنكيل لسير الحياة الطبيعيّة سيرتدُّ عليه وسيزيد من اضطراباته أضعافًا وأضعافًا حتى بعد سنّ البلوغ.

اختصر هذا اليوم ذاكرة الحرب كلّها. استفاقوا في اليوم التالي على يوم هادئ، انحصر فيه القتال على خطوط التماس وشمالًا عند الواجهة البحريّة. تعقّب راجي آثار القذائف، فلم يجدها. بحثَ عنها في واجهة فندق الكومودور، حين استقلّوا السّيّارة قاصدين بيت زهريّة في الكرك هربًا من بيروت، فطالعته فجواتٌ قديمة العهد. أمعنت سارية النّظر بالطوابق العُليا متجهّمةً، وراحت تُتمتم عبارات مبهمة كلّما وقع نظرها على فجوةٍ كبيرة أو صغيرة هنا أو هناك. استنفر راجي كلّ حواسه ليرصدَ مكان وقوع القذائف التي تمكّنت من كبرياء أبيه جليل، ولم يحظَ إلّا بمشهد الزجاج المُتناثر. وها هي سارية تتعاطى مع سائر ما تراه من آثار المعارك القديمة من دون أيّ تمييز، دافعةً باهتمامه إلى الأسفل.

إلى ماذا تنظرين؟

إلى آثار القصف.

هذه آثار قديمة، يقول لها بهدوءٍ.

تصمتُ ولا تُجيب.

لم يجد سوى قطع الزجاج وعلامات من مخلّفات معارك سابقة. كم كان يتمنّى أن يرى بأمّ عينه المكان الذي سقطت فيه كلّ تلك الصواريخ، وأن يصطحبَ الفرهود إلى سطح بنايته، أو أن يُشاهد بيت السّفير الاسباني في المنطقة الشّرقيّة حيث قضى توفيق يوسف عوّاد مع ابنته سامية.

سوفَ ينكبُّ على رسم ما لم يره في حيّه. سيصوِّرُ المدينة بقلم الحبر النّاشف بعماراتها الكبيرة والصّغيرة، الحديث منها والقديم. سينسجُ خياله شوارع شبيهة بشارع بيتهم، أو بشارع أرتوا، أو جان دارك عند تقاطع الشّجر الكثيف. سينهمك بتركيبها على الورق في أوقات فراغه، بل سينصرفُ عن دراسته لتشكيل مدينته على ورق الطباعة الأبيض. يبنيها ثمّ يقصفها. يُشيّدها فيُنهيها.

لا، ليسَ تمامًا. كان يراها تارةً في زمن السّلم الذي تشبّع أخبارًا وروايات عنه من جليل ومن سارية، وتارةً يلجأ إلى ما اختزنه من صور. يتأنّى في رسم تعريجات الفجوات الدائريّة، ويتعمّدُ أحيانًا ألّا تكتمل في شكلها إيحاءً إلى أنّ نقطة ما قد أُصيبت لأكثر من مرّةٍ. يعقدُ أقواسًا حول

الفجوات، أو دوائر متقطّعة كتلك التي يُخلّفها سقوط الماء على صفحة ملساء من الإسمنت فيتناثر رذاذها. يُكثِر من رسم الواجهات الجانبيّة الخالية إلّا من بعض المناور، كتلك التي في بناية العجّة عند معبر المتحف لجهة البربير. يرسم مستطيلًا عموديًا، يقتطع أجزاءً من خطوطه، ويُغرقهُ بشتّى أشكال الفجوات وبالشظايا حولها. يبني شوارعه فيقصفُها، ثمّ يعود فيبنيها وهو ممدّدٌ على الأرض في بيت شارع ليون.

لم تعُد إليه لذّتهُ الأولى في صناعة المدن والبنايات حين انتسب إلى كليّة العمارة. لم يُغره التحبير، ولم يبالِ بتحسين مستوى رسوماته التقنيّة أمام طاولات الرّسم الهندسي. كان يتمنّى أن يُعانق بلاط الأرض البارد بسرواله القصير، وأن يكتفي بمجلّة سميكة يضع فوقها ورقةً بيضاء، تُقصيه عن جحيم ما حوله ليسبح في عالمه الجديد.

ماذا أضعت مؤخَّرًا؟

طرح السّؤال كما لو كان متأكّدًا من كلامه. فلم يسأل مثلًا إذا ما كنتُ قد فقدتُ شيئًا، بل ظهر متأكّدًا في رسالته.

لم أضِع شيئًا. إنّي أتشارك معكَ بإحساس مؤلم يتغلّب على سكينتي متى فقدتُ شيئًا فتكاد الخسارة أن تهدّني. لم أضِع شيئًا في الوقت القريب.

ماذا أضعت إذًا؟

أعاد الجملة بإلحاح.

حسنًا، لقد ضاعت منّي منذ فترة شريحة هاتفي القديمة.

أغمضتُ عينيَ في حركةٍ عصبيّةٍ.

بين الصعب والأصعب يسهل الصعب. نعم. لقد أضعتُ شريحةً قديمة كنت أستخدمها في الخارج. ربّما انزلقت من الهاتف، أو ربّما كنّستها عاملة التنظيفات من على أرض الغرفة أو المطبخ! لمتُ نفسي، لأنّي ما عدتُ قادرًا على استقبال رسائل منها بين الحين والآخر، ولأنّي اضطرّرتُ للكشف عن رقمي اللّبناني الذي أردته حكرًا على معارفي الجدد في حياتي الجديدة هذه.

بسيطة... بسيطة.

كتبها مرّتين. ثلاث نقاط فصلت بين الكلمة والأخرى.

نعم.. بسيطة، قلتُ له.

كاتبني يطمئنّ عنّي. يسألني إذا كنتُ عدتُ سالمًا سليمًا كما قال بعد ليلة الأمس. قالها ممازحًا، ثمّ ألمح لي أنّ رفيقته قد أبدت اهتمامًا بعملي. كأنّها تواصلت معه بعد أن زارت الموقع. ذكّرني بموعدي بها وبذلك الموضوع الذي أثارته حول خسارتي في الحرب. لم أدر إذا كانت أخبرته أنّها كانت ستلتقي بي بُعيد التّاسعة كما اتّفقنا. لم تكن لتفعل ذلك. شيءٌ ما في كلامها وسرعة إجاباتها أكّد لي أنّها ستتواطأ معي، ممتنعةً عن مشاركة أيٍّ كان بحديثنا. أيّ حديث؟ إعجابها بأعمالي؟ بي أنا شخصيًا؟ مستحيل. لملمتُ بعض انزعاجي من موضوع الخسارة. تنّهدتُ عميقًا قبل أن أدوّن الكلام على الجهاز. كتبتُ جملتين، مفادهما أنّي أشعر بحمل ضاغط على صدري. ثمّ انتقلتُ إلى توسيع الفكرة قبل أن يبادر للاستفسار من باب المجاملة. حدّثته عن ألم الفقدان وعن

مشاعر القلق، وعن الرَّغبة الجامحة بتعويض الخسارة مهما كانت الوسيلة. لا أدري لماذا عرضتُ الأمر عليه! ربّما، لأنَّه أوَّل إنسانٍ تفاعل معي منذ الصباح، إذا لم أحسُب رسالتها هي التي كانت فاتحتني بها بالموضوع.

هل فقدت أحدهم؟!

كتب في البداية مع علامة تعجُّب، تأكيدًا على لهفته وانسجامه بما أقول.

لا، لا أتحدَّث عن الأشخاص.

هُنا، عاد ليسألني بنبرة أقلَّ انفعالًا عمَّا أضعتهُ في الوقت القريب.. وهكذا، أخبرته عن قصَّة شريحة رقمي القديم.

السَّاعة الواحدة وستّ وخمسون دقيقة.

نهضتُ صوب المطبخ من جديد. ما زال موعد التَّاسعة بعيدًا. الوقت كافٍ لعدَّة نشاطات. لإنهاء النصوص مثلًا.. علّني أغتنم فرصة إلغاء حلقة العمل الاختباريّ مع الطلَّاب لإنجاز ما تراكم علي من عملي الخاص. دخلتُ باب المطبخ. بدأ نور الشمس يخترق نافذته وقد كسا الطاولة البرتقاليَّة، فازداد لونها تباينًا مع لون بلاط الأرض المزرورق. موزتان في صحن أبيض، لم أنتبه لوجودهما في غزوتي الأولى نحو المطبخ. عدد قديم من صحيفة إنكليزيَّة إلى جانب الصحن عليها فنجان قهوة. ربّما كنتُ تناولته بالأمس ونسيته هناك. لا داعي لهذا المشهد. فأنا باقٍ في هذه الشقَّة المفروشة إلى أجلٍ غير مسمًى، وقد التقطُت المشهد هذا عدَّة مرَّات في الشتاء المنصرم، حيث كانت نوعيَّة النُّور أكثر جودة. تناولتُ موزةً ورحتُ أمضغها عائدًا صوب غرفة النوم، حيث كنتُ قد وضعت الجهاز على المكتب مصمِّمًا على إنجاز ما أمكنني.

انقطعتُ عن التفكير للحظات. انتهيتُ من أكل الموزة. ألقيتُ بقشرتها على ورقة بالية على المكتب، ثمَّ استدركتُ ورميتُ القشرة في سلَّة المهملات عند زاوية المطبخ. استيقظتُ من سهوتي، ورحتُ أراجع نصّي الجديد الذي سيرافق مجموعة التوائم.

«مجموعة التوائم رحلة في عالم الأشكال والحالات المُتطابقة. التقطت هذه الصُّور في عدَّة بلدان وعلى مدار سنوات، بحثًا عن التطابق بين المشاهد من جهةٍ وبين الحالات الإنسانيَّة وتفاعلاتها مع محيطها من جهةٍ أخرى.»

ثلاثٌ وأربعون صورة. جميعها معروض للبيع. البعض منها أغلى

ثمنًا من غيره لقِدم الصُورة، أو لتميُز موضوعها عن غيرها. صورة رجل الصندوق مثلًا. زبون يُحاسبُ صاحب المتجر، أمامه مجمع معدنيِ من الحليب النَّاشف المنتشر أيَّامها، والبائع شاخصَ نحو آلة التَّصوير متعجِّبَ لالتقاطي ذلك المشهد. صورة قديمة من أعمالي التصويريَّة الأولى، أي من الوثائق النادرة التي حفظتها من تلك الحقبة. الرجلان في مكان شبه مظلِم. وجه البائع يلفحهُ نورٌ من فوق، كذلك الرجل أمامه. كأنَّ واجهة المحل خلفي كانت محجوبةً بالكامل عن نور الشَّمس، إلَّا في أعلاها حيث تسرَّب منها خيطٌ رفيع من الضوء إلى داخل المتجر. يدُ الزبون اليُسرى مبسوطة فوق مجمع الحليب، وبيده اليمنى ورقة أو أوراق نقديَّة. فاتحُ ثغره كأنَّه يقول شيئًا للبائع، وهذا الأخير ساكتٌ ينظرُ بحذرٍ إلى عدسة التَّصوير.

لقطة من أجمل ما صوَّرته في الفترة تلك. ضاعت باقي الصُور من تلك الأيَّام. فقدتُها. ولو كانت ما زالت بحوزتي لأقمتُ لها موقعًا خاصًا.

للصُورة هذه صورة توأم. صورة حديثة. افتعلتْ الأحداث فيها على عكس الأولى، حيث كان مجرى الأمور يسيرُ بشكلٍ طبيعيِ. سيُدة خمسينيَّة في متجر لمكبَّات الصُوف، خارج لبنان هذه المرَّة. آلة التَّصوير إلى يسارها تلتقطها وهي تناول كيسًا أبيض لسيِّدتين واقفتين أمامها. تلتفتُ نحوي بابتسامة تائهة، كأنَّها أدَّت دورها على أكمل وجه وقد حان الوقت لانصرافها لأشغال أكثرَ جدِّيَّة. وحدها الإبتسامة تُعيبُ اللَّقطة التوأم هذه، كنتُ أقول منذ مدَّةٍ وجيزة. غير أنِّي بدأتُ أنظرُ إليها اليوم بعد مرور بضع سنواتٍ نظرةً جديدة، تلتمسُ بالهفوة تلك رونقًا خاصًا للموقف. قد تكون ابتسامتها المنبثقة من صلب الحالة المشهديَّة هي من يفضح تركيبتي ويُضفي قيمةً صادقة للصُورة المفتعلة تلك. ابتسمتُ، ونظرتُ صوب درابزين الشرفة أمامي.

شعر راجي وهو يستفيض بسرد روايته لروكز أنّ أمرًا ما يدفعه للإسراع بحديثه، كما لو أنّ نوبة الكلام أصابته منذ زيارته الأولى. خشي أن يُضيع الوقت، وأن تُداهمه أحداث خارجيّة تُثنيه عن الغوص في خبايا ذاكرته. لجأ إلى تدوين الأحداث، فكاد أن يعيشها من جديد، بل أفرغ كلّ ما حبسه من مشاعر القهر والمذلّة والحزن والشفقة غير آبهٍ بالجراح التي كان يَفتحها. أطلّ على قصّةٍ من أيّام الصغر وانفتحت أخرى، فلم يكترث بربط الأحداث، بل صرّح لروكز بكلّ ما صادفه من مشاهد اختمرت في رأسه. خشي أن يتوه روكز عن أفكاره وأن يدعوه إلى التمهّل في الحديث. أزاح نظره نحو الحائط وغاب عمّا حوله، ودفع بوتيرة كلامه إلى أقصاها حانقًا على الماضي متحسّرًا على ما ضاع.

حالت تحوّلات المدينة والتغييرات المؤلمة دون أن يتبيّن المعنى الحقيقيّ خلف معاناته. بات الحزن الذي عمل على ربطه أثناء غربته بما تبدّل من شوارع وأبنية، وبالإحباط الكبير بعد انتهاء الحرب، بات يبحثُ عن تعريفٍ آخر وتوضيحٍ أكبر.

يعودُ روكز في كلّ مرّةٍ إلى الجلسات السّابقة. يتعجّبُ راجي، ولا يتوانى عن إبداء دهشته لدقّة الرجل وحرصه على تعداد ما جاء على لسانه بتسلسل منطقيّ. لم يتصوّر أنّ أحدًا كان سيستمع إلى خصوصيّاته، بل إنّه سيقوم حتى بترداد أفكار خالها متناثرة وأعاد تركيبها بأسلوب منطقيّ. كان في الماضي يفرحُ إن أصغى إليه أحدهم إلى نهاية كلامه، حتى لو لم يُعلّق عليه. لم يكن ينتظر منهم أيّ إجابة. يُفرحه فقط ألّا ينصرف سامعه للقيام بأمرٍ آخر أثناء حديثه يرضَ الكلام مختصرًا، فلا يُشعر الشّخص أمامه بالملل. وسرعان ما يختتم قصّته بتنهيدة أو بعبارة تهيّئ لقلب صفحة الكلام، أو بسؤال خاصّ يوجّهه لمُحدّثه عربون امتنان للوقت الذي منحه إيّاه.

لم يدخل إلى عالم روكز كالمُتسلّل. لم يسترسل بالمقدّمات، بل راح يقذف بما عنده من دون حساب. حتى عندما كان يُكرّر نفسه، كان يجدُ في كلّ نسخةٍ من روايته معنًى جديدًا يحمله على اكتشاف أسرار استخفّ بها في ما مضى. أدرك كم كان متعطّشًا للكلام. شعر كأنّه يُركّبُ أجسامًا من قطع الليغو الملوّنة كما كان يفعل في صغره، يبحث عن القطع ويكدّسها في مجموعات، ثمّ ينتقي ما يناسب لكلّ جزءٍ من أجزاء البناء.

«ماذا تذكر من أيّامِ طفولتك في شارع ليون؟»

وجد راجي نفسه أمام امتحان جديد. لم يعد وحده مؤتمنًا على ذاكرته، يرويها للآخرين كيفما يحلو له، فقد أصبح للمستمع حقٌّ بالمعرفة والاستيضاح. أخذ يدور حول صورة البناية الصَّفراء، ومشهد سارية تطلّ من على الشُّرفة في الطابق الثالث تودّعه وهو في طريقه إلى المدرسة بعد أن تأخَّرت مواعيد المكتبة وامتدَّت إلى ما بعد الظهر. تُعانقه بنظراتها منذ خروجه من البوَّابة الحديديَّة الخضراء. يسير بضعة أمتار إلى أن يجتاز الحديقة الأماميَّة، فينعطف يسارًا ثمَّ يسارًا من جديد. تنتقل بخفَّة من زاويةٍ لأخرى خلف أحواض الزرع الفارغة إلّا من التراب، إلى أن يغيبَ عن نظرها عند منعطف الفندق الصغير وراء البيت.

يعرف أنَّها لم ولن تمارس اللُّعبة نفسها مع فراس، وأنَّ فراس سيتعمَّد ألّا يلتفت عاليًا نحو البيت حين يمضي إلى المدرسة بعده بخمس دقائق.

طلب منه روكز في هذه الجلسة أن يعيد تركيب يوم نموذجيّ من زمن بيت شارع ليون. يوم تصف فيه كلّ مراحله من الصَّباح حتى المساء. كان كلَّما استحضر حدثًا رآه يتلاشى لتعود صورة سارية متمسّكة بالدرابزين الحديديّ أو متَّكئة عليه. كأنَّ الصُّورة هذه هي المشهد الوحيد المُكتمل في ذاكرته. فالصَّباح يبدأ أساسًا بشعورٍ ثقيل، شبَّهه راجي بالبلاطة الحجريَّة تطبقُ على صدره. أمَّا طقس الوداع الذي كرَّسته سارية منذ كبُرَ راجي وأضحى بإمكانه الذهاب بمفرده إلى المدرسة، فهو مشهدٌ حتميٌ كمشهد بزوغ الفجر. استرجع تلك اللَّحظات، فآلمته بتفاصيلها، تحشرج صوته وغصّ بالكلمات.

« أعتذر منك»، قال روكز. ثمَّ أضاف «تابع قدر المستطاع».

كان يحثُّه على المتابعة، ويعطيه ما يكفي من الإشارات بصوته وبنظراته كي يدرك قدسيَّة ما يفرج عنه من ماضيه، فيستعيد قواه. يعي راجي ذلك، ويعلم أنَّه لا بُدّ من سلوك الدروب الصعبة الوعرة بدءًا من ذاكرته لبيت شارع ليون وعلاقته بأمّه سارية.

يبدأ النهار بوداع سارية إذًا. يُغادر البيت على مضض متوجِّسًا من يوم مدرسيّ جديد. يلتفت نحو أمّه، فيقرأ علامات حُزنٍ ما تلبثُ أن تمحوها بابتسامةٍ وحركةٍ آليةٍ من يدها. يصل إلى المدرسة بعد أن يجتاز بناية المربَّعات فالطريق الصاعد ومن ثمّ الفيلّا على يمين الطريق. يدهشه مشهد أولاد الصَّف متحلِّقين، يطلقون صيحاتهم عاليًا، مردِّدين كلماتٍ سمعوها في برامج التلفزيون وهم في منأىً عن أيّ همّ. وحده الفرهود

يلتفت ناحيته حين يدخل من البوَّابة الحديديَّة، فيترك الآخرين ليدنوَ منه. يتعمَّد إبطاء خطواته، فلا يبدو أنَّه يقصده هو بالذَّات. يعلم راجي أنَّه سيأتي ليعفيه من أحاديث الصبية مدركًا أنَّ الفرهود يتنازل عن رفقة المجموعة من أجله هو، وليس تهرُّبًا من الآخرين. يسألهُ وهو يلتفتُ يسارًا ويمينًا عن حاله، وعن ساعة خروجه من البيت. تُعجبه مهارة الفرهود في جمعه بين حالتين متناقضتين، فهو كان يستمتعُ بأحاديثهما الجانبيَّة في أغلب الأحيان، وينصرف مرارًا إلى ألعاب الصبية بعيدًا عن سكونه المعهود. لا يخشى الفرهود أن يجمع بين عالم بيته والخارج، ولا مكان لديه لحسابات راجي. يُحدِّثه عن أخيه الأكبر وألاعيبه، ثمَّ يستطرد ويصفُ له والده يغفو في غرفة الجلوس مصدرًا أصواتًا كرشق الرشاش.

ما الذي ساق هذا السُّؤال إليك يا روكز؟ كادت الكلمات أن تنزلق من فمه، لكنَّه أسكتها وصمتَ. جعل يستجمع الصُور علَّه يأتيه بجوابٍ وافٍ. غير أنَّه بات جليًا للإثنين مدى ارتباط ذاكرة راجي بذلك الطقس اليوميّ الذي كرَّسته سارية. كان عمره بين السَّابعة والعاشرة، أو حتى بعد العاشرة بقليل. بعد انتهاء الحرب، صار يترافق مع الفرهود في طريق المدرسة في درب العودة وحتى في الصَّباح. يخرج راجي مسرعًا، يلتفّ يسارًا ثمَ يسارًا من جديد، وكأنَّه يستعيض عن نظره للأعلى بلعبةٍ جديدة، أو أنَّه كان يُبرِّر بحركاته انشغاله عنها بالهرولة نحو الشارع الخلفي. حتى اذا أطلَّت من الشرفة اكتفت هي بإيماءةٍ من يدها، وانصرفت مقتنعة بأنَّ ابنها قد كبُرَ فعلًا. لم يعُد طفلًا.

يتواعدُ مع الفرهود قبل أن يلتقيا عند السَّابعة والنصف أمام الفندق. يتحدَّيان بعضهما من يصل أوَّلًا. يخسر الفرهود الشَّرط مرارًا، فيتحجَّجُ بأخيه الأكبر الذي كان يُخبِّئُ له الكُتبَ لممازحته.

الصُورة الأولى هي صورة أمّي سارية. تطلُّ من على الشُرفة تُراقبني أختفي في طريقي صعودًا نحو المدرسة. أرى البيت وأراها تمسحُ حزنها. تسعى جاهدة أن تقنعني بأنَّها لن تبقى واجمةً طول النهار. «البيت وأمّك واحد»، قال روكز.

«بناية شارع ليون تُلقي بحملها عليك وأنت لا تراها إلَّا من الأسفل»، أضاف قائلًا، ثمَّ أردف: «راجي الصَّغير استمدَّ الحزن من حزن أمّه، من قلقه المُزمن عليها وإحساسه بالذنب تجاهها. ذاك الإحساس الذي دفع بك إلى العودة إلى لبنان بعد كلّ تلك السنين».

ظلَّ راجي صامتًا مصغيًا.

لم يكن روكز يصبغ كلامه بنبرةٍ حاسمة، بل كان يبحثُ من خلال نظراته عن تأكيدٍ ما من راجي ليُسهبَ بتحليله. لن يقوم بمفرده بربط خبايا الذاكرة، بل كان سيكتفي باستعراضها أثناء الجلسات بألم اليوم. سيستمع لروكز تاركًا له منذ تلك اللَّحظة زمام الأمور.

لم تعد الدَّهشة تأخذه كما في السَّابق. يستحوذُ على اهتمامه رابطٌ بين قصَّتين، استنتجه روكز من على كرسيه الجلديّ أمامه. يتناول دفتره الأحمر الصغير، يُمسك بقلم الحبر الناشف ويُدوِّن ما يسمعه بتأنٍّ. يتذكَّرُ درس تقنيّات التدوين السَّريع أيَّام التَّعليم الثانويّ، فيضع الفعل في وسط السَّطر ثمّ يملأ الفراغات. يقتنعُ بأنّ لا سبيل لإعادة فهم ما كتبه بعد حين، إلَّا إذا عادَ وصاغ أبرز ما قيل في الجلسات، ودوَّنه فور خروجه من العيادة.

لستُ أدري إذا كان مشهد أمّي سارية مطلّةً من فوق الشُّرفة ما يزال يَخزني. فأنا من على الأريكة في عيادتك أرى أوراقًا مختلطة. أسعى إلى أن أسحبها الواحدة تلو الأخرى. تُشبه لعبتي مع الأوراق هذه لُعب اللِّيغو إلى حدٍّ كبير، تلك التي كنت أنعتق عن كلِّ ما حولي وأنا أركِّبها. أجمع أكوام القطع وأفرزها بحسب اللَّون والشَّكل، وأبدأ بالبناء. بيد أنّي اليوم لا أبني ولا أرمِّم. بل أسعى إلى أن أفكِّك هيكلًا ركَّبه آخرون بمحطَّات مختلفة بأفكار متباينة وألوان مبعثرة. تشابكت أياديهم أحيانًا، فاختلَّ التوازن وصار الشَّكل غير متناسقٍ. أفكّكه لكي أعاود بناءه قطعةً بعد قطعة، ذكرى بعد ذكرى، يومًا بعد يوم.

لا أعرف إذا كان شغفي بالعمارة القديمة قد وُلدَ في تلك اللَّحظة، اللَّحظة التي كنت أراقب فيها درابزين الحديد المتموِّج، وحِملُ حقيبة المدرسة على ظهري. فوقي خيال سارية والبناية الصَّفراء. سارية الصَّفراء، كدتُ أن أقول وأنا أدوِّن ممسكًا بقلم الحبر الأزرق النَّاشف ضاغطًا عليه بإبهامي بكامل قواي. ابتسمت لحظة، ورأيتك أمامي في العيادة تبتسم لأنَّك أصبتَ من جديد.

لا أعرف إذا كان والدي جليل هو وحده من زرع فيّ تعطُّشًا لحياة المدينة الجميلة، كما عاشها في ذكرياته يوم كان يقصدُ بيروت مع والدته قادمين من الكرك. يستقلَّان البوسطة عند الخامسة فجرًا، ويصلان أوَّل الصَّباح حين يُشرِّع آخر تجّار سوق سرسق أبوابه. يستذكرُ جليل رائحة الكمُّون المنبعثة من حوانيت مظلمة آخر السوق، ويسترجع الجلبة التي لا تُشبه إلَّا تلك التي يراها في المدينة. ما تأكَّدتُ منه هو أنّ ألمي الراقد قد

تفجّر على وقع كلمات روكز ونبرة صوته المنخفضة. تدمعُ عيناي وأنفجرُ بالبُكاء، كلّما أمسكتُ بطرفِ خيطٍ، ودنوتُ من معانيَ غابت عنّي لسنين.

أحاولُ ألّا أتوه عن البيت وأمّي ملتحمين. أمّي سارية والبناية الصّفراء واحدٌ. أيُّ ترتيب آخر قد يُفسد ما كشف عنه روكز من خلال كلامي في جلسة اليوم، وقد يُقصيني عن الحقائق من جديد. لن أستذكرَ المدرسة بهمومها، ولن يجديني زجُّ فراس في كلّ أخبار السّوء. تبقى علاقتي وطيدةً بالبيوت، وكأنّها بشر تتألّم في الحرب وتروي ماضيها الزّاخر. تتألّق في عيد الميلاد وتبوح بأسرارها مشرّعةً في فصل الصيف. يستوقفني صمتها في غمرة ضجيج النّاس عند اشتداد الزُّحمة، كما عند مفترق طريق أوتيل بافيون وشارع بعلبك. تسحرني ألوانها الباهتة تحت المطر الكثيف. تجذبني درفات الخشب الأخضر وهي تستقبلُ زخّات المياه من فوّهاتها الأفقيّة. أكلّمها بنظراتي، وأسبح معها في قصّتها مع جوارها.

كلّ البيوت جميلة. كلّ البيوت جميلة ليس بمن يقطنها. لا، ليس كلّهم سيّئين، أكثرهم لا يرى ولا يكترثُ، بل يكتفي بالعيش في الغلب متعاميًا عمّا حوله. يدفنون أنفسهم بين الجدران ما إن يطأوا عتبة دارهم. لا تخفق قلوبهم إن لمحوا لون الطلاء الأصفر الأصليَ تحت حواجب الشبابيك وقد احتمى من أمطار السنين. ولا يبحثون عن درابزين حديديَ آخر يشبه في شكله ذلك الذي يتّكئون عليه، وهم جالسون خارجًا في سهراتهم الفارغة.

حاذرتُ النظر إلى خارج المطبخ.

لكنّي أعرف أنّه في قرابة هذه السّاعة تشتدّ حدّة النّور وتبهُت الألوان، فيتلاشى التباين في ما بينها. ذهبتُ بجهازي نحو غرفتي من جديد.

مجموعة النّاس قد يتبدّل اسمُها، قلتُ. مجموعة الأحداث، أو مجموعة الحوادث. أيّ كلمة تدلُّ على الحركة وعلى الحياة. ناسٌ في مأتم صوّرتهم في جنوب لبنان مطلع العام الماضي. توفّيت جدّة أحد الطلّاب القدامى، فاقترح أن نتوجّه معًا إلى منطقة لم أكن أعرفها. سهّل لي الأمور. تابعنا التحضيرات قبل الدفن مع النساء. لم يكترثن لوجودي بقدر ما استغربن بقاءه إلى جانبي أثناء التقاط اللّقطات. حتى إنّه لمّا اعتذر منّي ليعود ويجالس الرجال في مكانهم المخصّص، نسين وجودي كليًا وبدأن أحاديثهنّ الجانبيّة. انفرجت تعابيرهن، وارتسمت بعض الابتسامات على وجوههنّ. خجولة في البداية، ما لبثت أن تحوّلت إلى ضحكاتٍ فقهقهاتٍ تكبحها حركة إحداهنّ مذكّرةً بضرورة التزام الهدوء. لم يلتفتن إلى الزاوية التي مكثتُ فيها أدور حول نفسي، أعدّل وضعيّتي وأضبط السُّرعة بين اللّقطة واللّقطة.

كاتبني من جديد.

تنظّم الجمعيّة معرضًا جماعيًا آخر هذا العام تحت عنوان شظايا. سيشتركُ فيه على الأغلب مصوّرون مخضرمون، وربّما القليل من المحترفين الشبّان.

ظننته قد نسخ الكلام عن موقعٍ أو إعلانٍ ما.

نعم، هل ستشترك؟

لا. فكّرت فيك إنتَ.

شظايا؟!

نعم.

مرّت ثوان، ثمّ عاد ليكتُب:

شظايا هو العنوان.

لو كانت المحادثة تتّسع لكافّة تعابير الوجه، لكان التمس قلّة اهتمامي بالموضوع بل امتعاضي من زجّ أعمالي تحت عناوين تُذكّر بالحرب. آثرتُ عدم استخدام الوجوه الجاهزة على برامج التواصل

الإلكترونيَّة، مفضِّلًا اللَّعب باستخدام علامات الوقف. علامتا تعجُّب متتاليتان تأكيدًا على الغضب، أو نقطتان تعبيرًا عن التخلِّي أو الملل، وثلاث نقاط لأومئ لمخاطبي من دون عناءٍ أنَّني منزعج من أمرٍ ما. بيد أنَّه هنا لا بُدّ لي من تبرير موقفي بالكلام.

لستُ من مصوِّريّ الحرب، ولا ممَّن وثَّقوا لها.

المقصود بشظايا شظايا الذَّاكرة أو غيرها.

بدا متعثِّرًا بكلامه. كتب، فمحا كلامه مرَّتين. كأنَّه يتردَّد قبل أن يضغط على زرّ الإدخال راجيًا أن أبادر بالكتابة وإنقاذه من هذه الورطة.

مشكورا! عليك أن تُشارك أنت. عملي قد لا يُلائم هذا الموضوع.

أرسل علامة يدٍ منكمشة وإبهامٍ مرفوع دليلًا على الموافقة.

أفحمتُه، قلتُ في سرّي. شظايا... شظايا...

مجموعة الأحداث قلنا أو مجموعة الحوادث. أذكُر رحلتنا الثَّانية إلى الجنوب في مناسبة ذكرى الأربعين. اتَّخذتْ هذه المرَّة زاوية أخرى. لم تفلح محاولات طالبي السَّابق باقناع عائلته بإقامة التعازي في البيت نفسه. استدعى قدوم أحد وفود النافذين في المنطقة الانتقال إلى صالة الحسينيَّة. واجهنا الأمر باستياء أوَّلًا. لكنِّي سرعان ما دخلتُ لعبتهم. راحت الكبيرات منهنّ يتودَّدن إليّ خلافًا للمرَّة السالفة. تسألنني عن الصالة وعن المكان الرَّحب.

«خود راحتك»

روت لي حكايةً، مفادها أنَّهم اختاروا الحسينيَّة من أجلنا.

«سيتسنَّى لكما أن تتنقلا بسهولةٍ» مقلِّدةً وضعيَّتي المتقوقعة في زاوية الصالون نهار المأتم قبل شهرٍ ونيِّف.

«حسنًا. ها هي صوركنّ وسأرسلها لكنّ جميعًا. هلَّا استطعنا أن نُعيد ترتيب مجلسنا كما في المرَّة السَّابقة؟ أربعُ مقاعد وسط الحائط ومقعدان عند كلّ جانب.»

قبلنَ اقتراحي على مضض. لكنْ ما إن بدأن بتنفيذ فكرتي، حتى دخلن في جوّ مرح كأنَّها لعبة الكراسي الموسيقيَّة. ينظرن إلى الصُّورة باحثات عن مقعدهنّ الأوَّل. التقطّ ما يقارب العشرين صورة لحالة الهرج والمرج الذي دار لدقائق طويلة. يهجمن على إحدى الكراسي ضاحكات، أو يجلسن فوق بعضهن بعضًا، بينما تحشر إحداهنّ نفسها

بين اثنتين فتقعُ أرضًا. افتعلتُ حدثًا جز أحداثًا. لا، فليبق اسمُ المجموعة مجموعة النَّاس. الأحداث هي في كلّ الصُّور، أمّا النَّاس فيصبحون هم الحدث أو الأحداث، عندما ينشغلون عن آلة التَّصوير.

لماذا أوبَخ هكذا لهذه التسمية؟

هل اختلطت على مهاجمي الأمور، فظنّ أنّي أنبشُ الصُّور من الألبومات الخاصّة سرقةً، لأعود وأعرضها على موقعي الخاصّ؟ ألا يعرف أنّه لولا حسن تصرُّفي ودرايتي لما كان أصحاب هذه الصُّور قد سمحوا لي أن أنضمّ إلى محافلهم؟

«اخترقت حميميّة اجتماعاتهم، وسخرت من حركاتهم العفويّة. هنيئًا لك جمهورك، جمهور النخبة العابثة...»

أنهى جملته بثلاث نقاطٍ. السَّاعة صارت الثالثة إلَّا خمس دقائق.

فتحتُ رابط الجمعيّة. شظايا صور. يا لهذا العنوان! هذا عنوان يستدعي ردًّا من مهاجمي. ردًّا أكثر وعيًا، يلجم زخمهم وينزلهم إلى مكانهم في الأسفل. يعبثون بمفردات الحرب من غير أن يفهموها، أو أنَّهم يتلقَّفون المعنى الأوَّل الأسهل والأقرب إلى أذهانهم. ينشدون القصائد باسمه رافعين راية انتصار الذاكرة على النسيان.

الحرب انتهت، وها قد عدت بعد سنين كثيرة على انتهائها. لقد فقدتُ فيها الكثير... وها قد باغتني أكثر من شخص في ظرف أقلّ من أربع وعشرين ساعة ليوقظني من النسيان الدفين، وليُحرّك فيَّ رغبتي بتعويض الخسارة.

نظرتُ إلى السَّاعة. ما تزالُ عالقةً بين دقيقتين ودقيقةٍ قبل الثالثة!

خلعتُ سروالي، واتَّجهتُ نحو السرير، علّني أحظى ببعض الرَّاحة. عاريًا.. خفيفًا..

بدت عيادة روكز في الزيارة الثانية أكثرَ إلفةً. امتحن نفسَهُ وهو يجتازُ الباب نحو المقعد. أراد أن يختبرَ فعلًا صلابته، فيعزف عن مراقبة تفاصيل المكان من أثاث ومحتويات مختلفة. وجّه نظره نحو روكز وقد استوى على كرسيّه الجلديّ أمامه. لم يتوانَ عن نقل انزعاجه من الكرسيّ المنخفض ومن طرّاحته المنزلقة في الجلسة الأولى. بدّل مقعده مختارًا كرسيًا بدا أكثر صلابةً تفاديًا لتكرار التجربة. ولم يُحدّق بالجدران ولا بما قد تُخفيه الستائر وراءها قرب الباب، عازمًا على ألّا يُشتّت أفكاره.

قبل المجيء، وهو يجتازُ المسافة بين مكتب المتحف وشارع العيادة عند خط التّماس القديم، جعل يُلملمُ شتات أفكاره، فحاول أن يبني قصّةً متماسكة لهذا الشغف الذي يربطه بالأمكنة. لم يعُد يستسيغ فكرة عزل المدينة التي أحبّها في صغره عن حاضرها. لا يذكرُ كيف تمكّن خلال سنوات الغربة أن يتجاوز الواقع، وأن يقبعَ في الصُورة التي حفظها غيبًا عن بيروت. فعوضًا من أن يصيغَ المشهد من آخر زيارة له للبلاد، كان يعوّلُ على ما اختزنته من ماضيه وما روته له سارية عن أحياء وشوارع وأسماء لم يرها سوى في الكُتب السياحيّة القديمة.

عزم في هذه المرّة على أن يستهلّ حديثه مع روكز بنترات من قصّته مع المدينة. منذ فاضَ ألمُهُ المخزون وتفشّى في يوميّاته وكاد أن يشلَّ حركته في أكثرِ من مرّة، أدرك راجي أنّه لا مفرّ من تجميع فصول الرواية. لن يقوى بعد الآن على كبتِ ما كبته في الماضي. فهو لم يجنِ شيئًا من ذلك الضغط الذي فرضه على نفسه. أرهقه تحريف الحقائق، ونفر من أسلوبه بإعادة صياغة الأحداث بحسب الظروف. تمنّى لو يعترف بالخسارة. تمنّى لو تطاوعه قواه مثل الآخرين، فيتجرّأ على زيارة الأماكن التي تبدّلت وفقدت وجهها إلى الأبد.

«إقشعرّ بدني حين شاهدت بأمّ عيني إحدى السّاحات الخالية وموقفًا مستحدثًا للسّيّارات مكان البناية البرتقاليّة بالقرب من بيتنا القديم. رحتُ أسيرُ بخطىً محمومة أستذكر حدود المبنى المهدوم وما علق من أثره على جدران الأبنية المجاورة. أثرتُ بنظراتي ريبة حاجب الموقف، فقطع عليّ مجال الكلامِ عندها انصرفت مسرعًا متابعًا سيري».

سرد القصّة بخفّةٍ. قصّة واحدة من بين قصص أخرى.

«تصطكّ أسناني كلّما عاودني مشهد الدّمار»

«هكذا ابتعدت عن الوقائع المريرة، ورسمت خريطة لتنقُّلاتك داخل المدينة»، قال روكز.

صمت راجي قليلًا، ثمَّ أثنى على ما قاله روكز.

نعم. أجد نفسي أحتال على الطرقات وأطيل المسافات فيها. أعبرُ أماكن جديدة تُغنيني عن رؤية ما تغيَّر وما تشوَّه.

تحمي نفسك وتختبئ مثلما كنت تفعل في بيت شارع ليون.

ممكن...

صمت روكز، كأنَّه ينتظر من راجي أن يتوسَّع في حديثه.

وهكذا فعَل.

«كان بيتُ آل الواكِد في حارة حريك أوَّل منزلٍ شهدتُ على هدمِهِ منذ سنين طويلة. كنَّا أنا وأخي فراس نقصد البساتين المجاورة له مع شقيقتي جاك حتى أواسط الثمانينيَّات. نقطف أزهار الخُمَّيضة أيَّام الرَّبيع، ونقتفي آثار السلاحف البرِّيَّة المُختبئة بينها».

ظلَّ روكز شاخصًا، ثمَّ تناول قلمه ودوَّن أشياء في دفتره.

أكمل راجي الحديث.

«كنَّا نلهو حول بركة الإسمنت في حديقة البيت الأماميَّة، تُظلِّلُنا شجرات الأكي دنيا. وما زلتُ أتصوَّرُ ذلك الممرَّ الطويل الذي كان يشقُّ الحديقة إلى نصفين مفضيًا عند آخره إلى درجاتٍ تعلوها سُفرة بوَّابة المدخل العريضة. كان الممرّ مرصوفًا بمربَّعاتٍ رمَاديَّةٍ كتلك التي تفترشُ أرصفة شوارع بيروت. وكانت بوَّابة ردهة الجلوس الحديديَّة مطليَّةً بلون أسود برَّاق. أمَّا زجاج نوافذها، فمُشرَّطٌ بخيوطٍ معدنيَّة. لكنَّ ملامح البيت من داخله باتت اليوم مظلمةً في ذهني، تشوبُها صورٌ وأشكال تراكمت على مرِّ السنين. أعودُ اليوم إلى اللَّحظة التي لمحتُ فيها من نافذة سيَّارة والدي أسلاك الحديد تتدلَّى من وراء فوَّهات الجدران الصامتة، وقد هُدِمَ السطحُ وانتزعت الأبواب واستباحَ وهجُ الشمس أرجاء الغُرف وخباياها.علمتُ اليوم أنَّ بيت الواكِد بقيَ على تلك الحال سنةً أو أكثَر، إلى أن بيعت أرضهُ قُبيلَ اندلاع حرب الإلغاء في الشَّطر الشرقيّ للعاصمة».

تعَدَّدت الروايات في مخيِّلته، قال راجي. وها هو يرجِعُ بعد أكثر من عقدٍ على مغادرته لبنان وعودته الأخيرة إليه إلى الرواية الأولى، تلك التي كان يُدوِّنُها في بيت شارع ليون آخر أيَّام الحرب. بدت الحقبة تلك هي المسرح الأوَّل والأبرز لذاكرته، يتنقَّلُ في أرجائها خفيفًا يتشبَّثُ بأدقّ

تفاصيلها، ساعيًا أن يمحوَ من حوله ما طرأ من تغييرات على مدار الأيَّام. ينسحبُ إلى الرواية الأولى، فتطالعه أحداث وزوايا وشخصيَّاتٌ باتت تسكُنه على الدوام، تعود وتَتوهَج في كلِّ خطوة يخطوها اليوم في أحياء بيروت. وها هو اليوم يُكلِّل سيرته هذه بسنتين أو ثلاث تعمَّقت فيها ملامح شخصيَّته منسلخةً عن الحاضر، ذلك الزَّمن الذي عجز في سنوات إقامته في الخارج عن التعرُّف إليه.

«ذاكرة بيروت عندي قلّما تشابهت ورواية من عايش وسط المدينة من قبلي، فكانت تَتدفَّقُ لوحات ملوَّنةً من واقع ماضيه تَربطهُ بأماكن أَلِفَها. ما يربطني ببيروت إن كان عليَّ زجُهُ بين الكلام هو أشبهُ بفلكٍ حائر يتأرجح بين أن يكون الحاضر والمستقبل، ولا ألجُه أو أتعرَّف إلى زواياه سوى من خلال ما أسمعُه عن أحياء وشوارع وأسماء لفَّتها الحروب. وإذ بي أكتَشِفُ أنَّ أطراف الرواية شقَّت طريقها عميقًا، وأخذت تتأصَّل وتستأثر بداخلي، فإنِّي ارتأيتُ بعد سنوات الهجرة الطَّويلة أن أنفض عنِّي بعض الاضطراب، وأشرعُ بتقليب ما جاء في تلك المخطوطة القديمة، سائلًا نفسي أن تطاوعني وتسمح لي بذلك.

عندما عزمتُ على كتابة هذه الشطور قبل سنوات، كانت الحادثة التي وقعت مع حاجب الموقف العمومي في شارع ليون ما تزال تُثير دهشتي، وقد آثرتُ منذ ذلك الحين أن أتحاشى المرور بجانب شجرتي السَّرو عند مدخل السَّيَّارات فيه. كنت أتقدَّم متعثِّرًا على الإسفلت الحارق، متظاهرًا أنِّي ركنتُ سيَّارتي في آخر الطريق. ألتفتُ يسرَةً، أرفع نظري نحو الطَّابق الثالث علِّني أكتشف ما تخبئه واجهات الزُّجاج المظلمة في البناية الصَّفراء. ومتى أوقفني الحاجب وانحنى بجثَّته من على نافذة كشكه الصغير وأنا أهمُّ بالخروج سيرًا، لم أستوعِب كيف استطاع أن يتعرَّفَ عليَّ، فيبادرني بتحيَة حارَّة كمن أرادَ أن يُفصِحَ لي عمَّا يجمعهُ بذلك الجوار. وكيف استطاع أن يتذكَّرَ ملامحي وأنا في سنّ الثالثة عشرة عندما غادرنا البناية الصفراء؟ أم أنَّ نظرتي الحائرة هي التي أكَّدت له انتمائي إلى المكان؟ لعلَّ القلق الذي تملَّكني على مرّ السنين جعلني أصوِّنَ حدود روايتي بعيدًا عن عيون الآخرين، بل دفعني حتى إلى أن أعزلَ عن ذاكرتي صفحات الحقبة تلك، وأجتزئها من باقي فصول الرِّواية.

لم أغد أعي متى وكيف التصق بي ذلك الشُّعور الغريب! فمذ غادرنا بيت مانويل في شارع ليون إلى بيت سيزار قريب جدَّتي فيوليت في الظَّريف، صرتُ أعمل لاواعيًا على طمس تلك الحقبة. أملتُ بذلك ربَّما أن

أجد سبيلًا للرّاحة في بيوت الآخرين، أتناسى المرحلة السّابقة علّني أعتاد الحاضر الجديد. هكذا، إلى أن رحلتُ عن بيروت لسنوات الدراسة. أمّا إذا طُلب منّي اليوم أن أصف ذلك الاحساس بشكل دقيق بعد انقضاء كلّ هذه السنين، فإنّي ألخّصه بقولي إنّ ابتعادي عن أماكن عايشتها كان محاولةً أولى لتثبيت ذلك الماضي وترسيخِه في الذاكرة، حرصًا عليه من أن يتلوّث بتغييرات الحاضر وأن يهدّده النسيان. وكأنّي إذ كُنت أسهب في التآلُف مع أحياء المنطقة الشرقيّة من بيروت في زياراتي المتقطّعة إلى لبنان، كُنت أسعى أن أكرّس لأيّام بيت شارع ليون فصلًا نهائيًا من روايتي، أحفظُ له حدودًا، ولا ألجهُ إلّا مسرعًا في لحظات تأمُّل مقتضبة.

غير أنّي صرت تدريجيًا أخلع عنّي وشاحي الخارجي، وصار خوفي من اكتشاف ما آلت إليه الأمكنة يتراجع. انتزعتُ عنّي الوشاح، فوجدتني أتنقّلُ بصمتٍ على أرصفة الشّارع، أتمهّل عند مداخل الأبنية، فينتابُني أمرٌ لم أكن قادرًا على تشخيصه، إلى أن أدركتُ اليوم بعد سنوات عزلتي أنّه المعنى الحقيقيّ للغربة. غربةٌ لا تشبه الشجن الذي لفّني أوّل أيّام دراستي في الخارج، بل كانت أشبه بكتلةٍ متداخلة من الأحاسيس تبزُغ بغتةً عند عتبة مصعد أو باب متجر أو رائحة دكّان عتيق، تعود وتنكسر أمام وجوه فارغة تأبى التحيّة. هكذا، كنت أعالج خوفي من الزّمن الحاضر بالتقرُّب من أمكنة عرفتُها في يوم من الأيّام وما عادت تعرفُني، وكأنّ شجرتَي السّرو الشّامختين عند زاوية موقف السّيّارات انسلختا نهائيًا عن محيطهما، ولم تعودا هناك إلّا لتدُلّا إلى زمنٍ مضى، وتترقّبا ساعة النسيان.

أمّا الوشاح الآخر، فقد رافقني لمدّة أطول. سعيتُ اليوم لانتزاعه علّني أتمكّن من خوض معركتي هذه مع الكلمات. فحاجبُ الموقف كشف ما يراودني، وارتأى أن يُصارحني به بقصد التودُّد أو محضَ المصادفة. لكنّي كنتُ أخال أنّ ما يدفعُني لزيارة الحمراء والتردُّد إلى الشّارع ذاك، كان من الضروريّ أن يبقى دفينًا في سرّي، وألّا يختلط ويتلوّث بالآخرين. أمّا الآن، وقد اجتزتُ المرحلة الأصعب وأمسى بوسعي التحرُّك من غير أن أوقظَ الهواجس تلك، فقد بقيت لي معركة دائرة بيني أنا وبين ما أنطق به من كلمات عن فترة الطفولة وأوّل المراهقة في شارع ليون.

وطالما أنّ الفكرة الأسبق إلى ذهني هي امتلاك الماضي وزرعه بين حروف الكلمات، فإنّي بدأتُ اليوم بتفنيد الأوراق التي رافقتني منذ اليوم الأوّل الذي غادرت فيه لبنان. فأنا لم أنسَ يومًا أنّي صرتُ المؤتمن الوحيد بين أفراد عائلتي على الحقبة تلك، أو على أيّام بيت شارع ليون كما اعتدنا

القول في السّنين اللّاحقة، ولم أنسَ أنّ ما تخلّلتهُ تلك السنوات العشر التي أمضيناها في أوّل بيت لم يكن بيتنا، ما عاد أحدٌ يعبأ باسترجاعه إلّا بمقدار ما تُردّد أغنية شعبيّة اشتهرت في موسم وعادت لتقبعَ خلفَ الأصداء. ليست هي الذكرى بذاتها التي كانت تُشغلني وأنا أقلّبُ صفحات الورق، بل كنتُ أبحثُ عمّا يُوطّدَ ارتباطي بزمنٍ خلتهُ مرَّ خلسةً، فحرمني من متعة استذكاره.

لم تكن نزعة استعادة الذكريات هي التي تُقلقني، إنّما خوض المعارك ضدّ النسيان. أفرغت شيئًا فشيئًا بعض صور الذاكرة من حملها الثقيل، ووضعتها في إطار جديد تتّضح به معانيها. فصرتُ أحملُ الأوراق المتراكمة في الملفّ الأصفر، وأطرحها على أرض الغرفة لأتسمّرَ ساعات أمامها، أحدّقُ تارةً إلى الرسوم مصدر سلوتي الوحيد آنذاك، وأعيدُ نقل بعض العبارات والجُمل أقتطفُها من دفترٍ أو من إحدى القصاصات البالية تارةً أخرى.

ورغم الجهد المضني الذي كُنت أبذله في العمليّة هذه، فإنّي لم أتوان مرّةً عن التنقيب في الملفّات، وكنتُ قد أيقنتُ في قرارة نفسي أنّ الدافع الأوّل والأخير هو توجيه مسار الماضي نحو عطاءٍ مثمرٍ، بعد أن عجزتُ عن تبديده مثلما فعل والداي، أو مثلما تراءى لي أنّهما فعلا.

لكنّ أفكارًا تتدفّق بين الحين والآخر، كانت تستنزفُ قواي بشدّةٍ وتلهيني عن توثيق الرّسومات. فكلّما صادفت رسم بناء مثلًا أروح أستذكر أيّ مكان مررت به من شوارع حيّنا، لآتيَ بهذه الأشكال وأعود إلى اللّحظة التي كنتُ أرتمي فيها على بلاط بيت شارع ليون، أتمسّكُ بأصابعي الخمس بقلم الحبر النّاشف ضاغطًا رأسَهُ على صفحات الورق الأبيض. كان الوقت الذي أكرّسهُ للملفّ الأصفر لا ينتهي إلّا بجفاف الأفكار والخيالات الواردة، ويُضحي تقليب الماضي وتحريكُ تفاصيله عبئًا لا بدّ من مقاومته.

ولشدّة ما كانت تُضنيني خلوتي تلك، كنتُ أعجز غالبًا عن الالتفات إلى أعباء الحياة الأخرى. وها أنا أُسمّيها أعباءً، إذ إنّي لم أدرِ قطّ كيف لي أن أنظر إلى دراستي وإلى تواريخ العمارة الأوروبيّة قبل أن أستوحي ذلك من المدينة التي عِشتُ فيها يومًا، فتكوّنت وتوهّجت في داخلي، إلى أن تحطّمت كلّ الأحلام، وأمست لي بيروت مدينة للحاضر المرير تتغيّر وتتحوّل متى شاءت مسدلةً الستار عن ذاكرتها وذاكرتي.

أختفي لحظات طوال، أداعب رأسَ قلم الحبر الأزرق على غلاف المجلّة البالية. أترقّب صورةً طُبعت بذاكرتي من أحياء خطوط التماس

عند زيارة آل الواكد في حارة حريك، أو عند بناية العجّة المهجورة عند نقطة معبر المتحف من جهة البربير، أو حتى في الأحياء القريبة خلف محلّ الأرلكان في ساحة القنطاري. كيف لا تُلهمُ آثار التّكسير والدّمار غيري من الرّسامين؟ أليس من الغريب أن يُثابر والدي على حثّي على الابتعاد عن رسم المشاهد الكئيبة، وأن أرسم طبيعة قرية جدّتي لوالدتي في جرود جبيل؟

كنتُ أستمدّ المتعة من دويّ المعارك على الورق الأبيض الناصع، أوقعُ القذيفة حيث أريد وأحيّدها عمّا أشاء. ينطلق قلم الحبر الناشف وحده، وقد تمرّستُ بتجسيد الواقع وبنقل أدقّ تفاصيله. أميل إلى الفجوات غير المحدّدة الشكل، فتكون مقوّسة من فوق، ثمّ تنحني عموديًا وتتداخل مع إطارها فجوات أخرى صغيرة تنشطر منها لتُجسّد الشظايا المبعثرة. تبدأ كبيرة فيتقلّص قطرُها تدريجيًا، لتختفي بعد قليل. كنتُ أتفحّص وأسجّل تفاصيل دقيقة مثل القطر الذي تنفلشُ فيه الشظايا بمختلف أنواعها وأشكالها الهندسيّة التي تُخلّفها، كاللّوحات التعبيريّة المعلّقة على جدران البيوت.

لا أدري ما كان يشدُّني إلى أبنية الحيّ. يحمل غالب الرسوم نقلًا دقيقًا لشرفات الأبنية ونوافذها، كما لو أنّي كنتُ أترصّد من يقف خلفها مستطلعًا رأيَهُ باللّوحة التي ترتسم أمامه. بدت النّوافذ الخشبيّة المحدّدة بالحبر الأسود مفتوحةً على مصاريعها أحيانًا، تبدو من خلفِها الدرفات الزُّجاجيّة أو قضبان الحديد. أمّا المُقفل منها فأشبهُ بغُرَف نومنا المختبئة أبدًا من نور الشمس في بيت شارع ليون. لذلك، فإنّي أجزمُ اليوم أنّ الشبابيك المختلفة الأحجام والأشكال التي كان يجذبني نقلُها على الورق ساعات طوال، كانت تُشكّل حينها أملي بأيّام أجمل، أيّام أستنشقُ فيها هواء بيروت العَطِر مأخوذًا بسحر بيوتها، ثمّ أخلو بنفسي عند الظّلام في ساحةٍ من ساحات اللّيل، أتعقّدُ بأضوائها الماطرة وأهلّلُ للحركة الدؤوب في أحياء لا تنام.»

تأمّل راجي أصابع روكز الدقيقة ترتفع نحو شعره الطويل. مرّت لحظة صمتٍ، عالجها روكز بتنهيدة استحسانٍ لما فاض به راجي منذ أوّل الجلسة الثانية.

ها أنت مستعدٌ أكثر فأكثر لخوض غمار الرّواية.

أجابه راجي أنّه جاهزٌ لتقطيع الوقت ولتجزيئه، ولرسم حدود للماضي ذكرى بعد ذكرى وقصّة بعد قصّة، تنساب إلى الرّواية الاكبر.

VI

غفوتُ دقيقةً واحدة، أو ربُما دقيقتين.

هكذا ظننتُ.

نظرتُ إلى المنبه بالقرب من السَّرير. السَّاعة تشير إلى الثُالثة وسبع دقائق.

مرّت خمس دقائق على الأرجح منذ أغمضتُ عيني. أيقظني الحلم عينه وفي المشهد نفسه. نركض جميعًا في اتِّجاه الباخرة. تسبقنا وتغادر الميناء. يتسلُقها أحدهم فينجح في محاولته، نركض خلفه، ثمّ نتحوَّل قبل وصولنا إلى كُتلٍ متقوقعة كالسلاحف تلتصق بأرض المرفأ، بينما تبتعد الباخرة في عرض البحر. تنتقلُ الرؤيا إلى متن السّفينة. أصبحت في المنام واقفًا على متنها، أراقبُ من بعيد الكتل المتشكّلة على أرض المرفأ كالصُّخور.

الشُّمس تخترقُ الغرفة في الصُّباح، وتنصبُ في الدّاخل حين تُفتح السّتائر. اليوم، غرقتُ في نومي تحت تأثير الكحول. ومن حسن حظِّي أنّ السّتائر ظلّت مقفلة. لا أذكر حلم اللَّيلة الفائتة. لم يكن حلمًا ربّما، بقدر ما كان نثرات من مشاهد سهرة الأمس تقتحمني بأشكال مختلفة. رأيتُ الفتاة السّاكتة ترمي بزهرَي اللّعب أمامنا في البار نفسه، كأنّنا أمام لعبة ما. الجميع متسمّرٌ بانتظار النتيجة.

«Trois, Cinq»

صدحت بالفرنسيّة.

«Soleil» قال أحد الشّبان من على الطاولة خلفنا.

لعبة الصّنم. هذه لعبة الصّنم صرختُ بصوت عال. تجمّدوا جميعًا، ثمّ جعلوا ظهورهم تنحني تدريجيًا طاعجين أرجلهم إلى أن بقيتُ وحيدًا في وسط الغرفة. لم نعُد في البار، بل في مكان في الهواء الطّلق. سمعتُ صوت الرّصاص ولم أنحنِ. تناولتُ آلة التّصوير. ألتقط صورةً لكلٍّ منهم. وقفت من بينهم جميعًا فتاة بشعر أسود طويل أجعد.

«أرأيت؟ هذه اللّقطات أجمل من كلّ ما أضعته منذ سنين»

استفقتُ.

لا، هذا لم يكن حلم ليلة أمس.

السّاعة الآن الثالثة والثلث. إنّني ما زلتُ أهجس بمجموعة الشرائح الفوتوغرافيّة الشفّافة التي استغنيتُ عن البحث عنها يوم

الرَّحيل. سنرحل الأسبوع القادم، قالت لي. رتِّبوا لنا كلَّ التفاصيل. ثلاثون مترًا مكعَّبًا للشحن. لا داعي لأكثر، أجبتها. بدأنا بالتوضيب.

مرّ الوقت سريعًا. لم نعد نستطيع تمييز العلب بعضها من بعض. ما سيبقى هو ما نستغني عنه، قلتُ لها.

"Ok, even better!"

شجّعتني على التصرُّف بالكثير من أشيائي الخاصَّة. كلّ ما لم أستخدمه منذ سنوات. كلّ شيء. حياةٌ جديدة بانتظارنا. كرَّستُ الوقت المتبقّي لتظهير أفلامي الأخيرة، وانتقاء وتوضيب ما لا غنى عنه من كتب التَّصوير. انتقيتُ القليل القليل، وتركتُ خلفي الكثير، ولم أحزن إلَّا بسبب ضياع مغلَّف شرائح الصُّور تلك. خسرتها مثلما خسرنا رهان بقائنا في ذلك البيت...

تناولتُ الجهاز. عدتُ إلى وضعيتي الأولى، غير أنِّي ألقيتُ ظهري العاري مباشرةً على الحائط. خلفي هذه المرَّة. فتحتُ ملفًّا جديدًا. أسميته مفقودات.

عدتُ أقلِّب الصُّور على الموقع.

رنَّ هاتفي. ظهرَ اسم أحدهم. تركتُه يرنّ من دون أن أخفض صوته.

حملتُ الكاميرا واتَّجهتُ صوب المطبخ. غاب نور الشَّمس عن أرض الشُّرفة. ظلَّت رقعة ضوء ضئيلة عند الزاوية فوق الدرابزين. عدتُ بالكاميرا نحو الغرفة. رفعتُ الجهاز عن السَّرير وأعدته فوق الطاولة. ما زلتُ عاريًا والمنشفة ملفوفة حول وسطي. جئتُ بقاعدة التَّصوير من زاوية الغرفة. حاولتُ تركيزها، سقطت المنشفة وأنا أعالج براغي القضبان. رميتها على السَّرير. ركَّزتُ الكاميرا. أزحتُ الوسادات ونزعتُ الشراشف. بسطتُ المنشفة. أعددت برنامج التَّصوير التلقائيّ. إنَّها المرَّة الأولى التي ألتقط فيها صورًا لي منذ سنين، قلتُ. تقوقعتُ فوق السَّرير حانيًا ظهري وطاعجًا رجليَ. غرزتُ رأسي بين ركبتيَ. لم تنجح اللَّقطة الأولى. ثانية فثالثة. سبع لقطات على السَّرير، انتقلتُ بعدها إلى تحت الطاولة. ثلاث وعشرون لقطة من تحت الوضعيَّة الثانية. اخترتُ ثماني لقطات. حملتُ ثلاثًا في ملفّ المفقودات.

السَّاعة الرَّابعة والثلث تقريبًا.

مسحتُ العرق عن جبيني، ودخلتُ الحمَّام لأستحمَّ من جديد. تنشَّفتُ وارتديتُ كلّ ثيابي. قَرُب موعد التَّاسعة. قرَّرت أن أنزلَ إلى

الدُكّان القريب، لأتبضّع للّيلة قبل قدومها.

لو تعقَّب النَّاس تسلسل أحداث رسمت مسارهم، لاهتدوا في غالب الأحوال إلى شريط متقطِّع وصور منفصلة بعضها عن بعض. مشهدٌ من هنا ومن هناك، يشكِّلون منها قصصًا متحرِّكة في أزمنةٍ وأوقاتٍ متناثرة مثل ورق الخريف. وكلُّ مشهدٍ فيه أصواتٌ وألوانٌ تعبقُ بثناياه حتى يتوهَّج، فيدنو من حاضرنا أكثر فأكثر إلى أن يقتحمه، أو يتلاشى تدريجيًا لينزرع في صورةٍ جامدةٍ ترسخُ في خلفيَّة الذَّاكرة.

تذكَّر راجي لعبة الصُّور المتشابكة والسُّؤال عن الصُّورة الأولى والثَّانية من بيت شارع ليون، مستحضرًا ذكرى قديمة، لعلَّها من أوَّل أيَّام انتقالهم إلى بيروت الغربيَّة.

فراس وسارية جالسان صباح يوم عطلةٍ في غرفة الجلوس أوائل الخريف، أوَّل أيَّام الدِّراسة في المدرسة الجديدة. فراس متَّكئ على طاولة الرُّخام الأسود أمامه، ممسكًا بقلم الحبر السَّائل، ينكبُّ على كتابة ما تمليه عليه سارية من ورقة الخرطوش بين يديها. موضوع إنشاء اللُّغة العربيَّة عن يوم أمضاه في الطَّبيعة في فصل الرَّبيع أو الصَّيف.

راجي ممدَّدٌ أرضًا، يترقَّب انتهاء فراس من الكتابة علَّهما يشاهدان فيلم الفيديو معًا قبل موعد الغداء. فراس يستعجل سارية مستحسنًا طواعية قلمه الجديد. تدعوه سارية لأن يتمهَّل، وأن يتجنَّب ملامسة الورقة بطرف يده فيمسح ما كتبه.

«ما هو الداعي لتعديل الموضوع؟» ترميه بسؤال شاكيةً إصراره على تغيير سؤال تمرين الإنشاء.

يُجيبها أنَّ فصل الخريف يصف الوقت الحاضر، وأنَّ المدرِّسة لن تتوقَّف عند هذا التغيير البسيط على حدِّ قوله.

أدخل راجي رأسه في المدخنة. استسنح فرصة انشغال أمِّه، وسحب جسمه الصَّغير تدريجيًا من وسط الغرفة حيث طاولة الرِّخام الأسود. أرخى ذراعيه وألصقهما بوسطه، مستعيدًا حركة الأفعى التي كان يؤدِّيها في لعبته هو وفراس مع أولاد الجيران في بناية بيت السَّد. يلقون بأنفسهم فوق البلاط البارد، ويقذفون بأجسادهم الصَّغيرة بحركةٍ لولبيَّةٍ. تعلو ضحكاتهم ما إن يصطدموا ببعضهم بعضًا، أو حين يعلقُ رأس الأصغر منهم تحت قطعة من الأثاث. يتظاهرون عند كلِّ مرَّة بالمفاجأة، فيصيحون ثمَّ يهمُّون متابعين اللَّعب من جديد.

احترف الحركة الدّائريّة حول وسطه، فراح يضغطُ أرضًا ثمّ يُفلتُ يده اليمنى مضاعفًا من سرعة حركته، من وسط الغرفة نحو المدخنة فوق السّجّاد مستديرًا مرّتين أو ثلاثًا حول نفسه.

عالجت سارية تعثُّت فراس وتعثُّره في كتابة آخر الشّطور بكلام هادئ خفّف من توتُّره. التصق راجي بالمدخنة حتى لامس بوجهه صفّ المداميك الأسفل. حجرٌ باردٌ، ليس ببرودة بلاط الأرض، كأنّه كتلة ترابٍ متجمِّدة، اشتمّ فيها شيئًا من رائحة أرض بيوت الدّير الأزرق الإسمنتيّة الملساء.

«حقًّا، إنّ الطّبيعة في فصل الخريف تُنذر بألوانها المُتلألئة.» هذه الجملة مبتورة قالت سارية قلقةً. أدنى راجي فمه ملقيًا بشفتيه على مدماكٍ من القرميد كأنّه يُقبّله. فتح ثغره ودفع بلسانه إلى الأمام. لَعَق الحجر أمامه، فأحسّ بطعم يمزج بين التّراب النّاشف وطلاء الجدران.

«حقًّا إنّ الطّبيعة في فصل الخريف تُنذرُ بألوانها المُتلألئة بموسمٍ متجدّدٍ عامرٍ بالنّشاط والحياة»، ارتجلت سارية جملةً أغنت فراس عن الشّطب والمحو. دوّنها من غير تردُّد. واحدٌ وعشرون سطرًا بدلًا من عشرين. استبشر فراس خيرًا بأولى علاماته في المدرسة الجديدة، وازدادت حماسته على المطالعة.

ينطفئ المشهد ويُشعَلُ غيره في جوار مدخنة القرميد. جليل مستندٌ على الصّوفا، وفراس يقلّبُ مجلّةً بالقرب منه. جليل ساهِمٌ بأشرطة الكاسيت في علبة من الكرتون من بيت السّد وضعها بينه وبين فراس. يعبثُ بالأشرطة محاولًا قراءة ما كُتب على كلٍّ منها، ثمّ يفرزها بحسب ألوانها وأنواعها.

أخرِج رأسَك من المدخنة.

هزّ جليل رأسه معربًا عن استيائه من لعبة راجي، واستدار مجدّدًا صوب مجموعة الأشرطة.

هل صحيحٌ أنّ هذه المدخنة مبنيّة من حجر القرميد؟ سأل راجي مستعطفًا، علّه ينال رضا أبيه.

أومأ جليل لراجي أن يخرُجَ من الكوّة من غير أن يُجيب، إلى أن عقّب فراس على راجي بنبرةٍ باردة بسؤالٍ عن سبب استفساره، ما دام يعرف تمامًا جواب السّؤال. أخرج راجي رأسه متلمّسًا جانبي المدخنة كأنّه يتفحّصهما. حرّك جذع الخشب فيها من غير أن يلتفت صوب فراس،

موحيًا أنَّه انتهى من لعبته. أصلح جلسته وضرب كفًا بكفٍ، نافضًا ما علق عليهما من غبار وبقايا خيطان العناكب. جلس على طرف الكرسيّ المعاكس، وراح يردّد لحن أنشودةٍ يسمعها من المسجِّلة الرماديَّة الكبيرة. افتعل ابتسامة وتظاهر بعدّ مكعَّبات الخشب، علَّه يُقنع أخاه أنَّه أقلع عن لعبته الأولى بملء إرادته. قرّب يده اليمنى من أنفه، فعادت رائحة القرميد تتسرَّب إلى خياشيمه.

«إبصق ما في فمك»، صدح به فراس مرَّة على الشُّرفة.

«إبصقه الآن» مصرًا على رؤيته يستخرج قشرة طلاء الدرابزين من فمه. أشار بإصبعٍ إلى حوض الأزهار متَّخذًا تعابير غاضبة مثل أبيه. تكمَّش راجي بيديه بعارضة الحديد، وتسمَّر أمام مشهد الشَّارع لزمن طويل راقب خلاله السَّيَّارات تتقدَّم بطيئةً من اليسار إلى اليمين، ورصد أرتال العابرين يتقدَّمون متفادين مستوعبات النفايات، منتقلين من رصيف إلى رصيف. ظهر وفدٌ من الأولاد بعمر فراس، أطلّوا برؤوسهم وصيحاتهم العالية من خلف البناية المستديرة. اجتازوا الطريق مردِّدين معًا أغنيةً حفظوها من برامج أوَّل المساء «علِّ علِّ بطل فليد، هيا طِر يا غريندايزر» ثمَّ تواروا يمينًا خلف شجرتي السَّرو.

آخر العارضة عند زاوية غرفة الجلوس لونه مائلٌ إلى الحمرة، تتخلَّله خبيبات صفراء تلمع متى لفحتها شمس الصَّباح. طعمُ الزنجار أشبه باللَّيمون الحامض يلسعك إذا ما ذقته. صفحة عارضة الحديد العليا تميلُ إلى ألوانٍ قاتمة تتموَّج بين الرَّماديّ ومشتقَّات الأسود، وتميلُ إلى الكحليّ عندما تتجمَّع فوقها مياه المطر، يرتشفها راجي قطرةً قطرةً ضاغطًا بشفتيه عليها ساهمًا في بنايات بيروت أمامه. ينتقل إلى الزاوية الثانية المطلَّة على بيت الفرهود ليُلامس الطلاء المكتمل الزرقة، يمسحُ الغبار عنه ويتذوَّق طعم الملوحة المتعشِّش فيه. يشخص إلى النَّافذة فوقه، ويرى الفرهود مطلًّا من نافذة الحمَّام.

سنوات ثلاثٌ مرَّت قبل أن يتعرَّف به في صفوف المدرسة. أخبرهُ من على الشُّرفة يومًا أنَّ في بيتهم مدخنة. مدخنة من مداميك القرميد، كتلك التي يرونها في القصص عن البلدان الباردة.

أما زلتم تشعلونها ؟

لا، أجابه راجي. توقَّف أهلي عن إشعالها منذ أوَّل الحرب.

اتَّخذ راجي مطية الحرب للمرَّة الأولى. أعجب بلون الحجر البرتقاليّ

واستمدَّ منه وقودًا لروايته. لم يتذكَّر الفرهود من سكن البيت قبلهم أو تناساهم فجأةً. شرد في قصص راجي يختبئ وراء تفاصيلها، راسمًا له جذورًا في مكانه الجديد.

دعاه روكز إلى أن يسترجع لعبة ناضور أسطوانات الصُور. تنتقل به من صورةٍ إلى صورةٍ، بنقرك على مقبض أسود اللَّون إلى اليمين. كان منذ زمن طويل لم يُفكِّر به، فاستعاد في رأسه الصوت النَّاتج عن ضغط القطعة السَّوداء. اقتاده خياله إلى صورٍ كثيرة تفاجأ بها كلَّما ظهرت. علَّق على بعضها، ومرَّ على البعض الآخر بصمتٍ، كأنَّه مجرَّد متفرِّج شاردٍ أمام عرض شريطٍ قديم.

قال طالبي السّابق إنّه لم يكن يتوقّع أن يعود ويجد بطاقة هويّته التي كان أضاعها في بيتهم قبل أشهر.

انتهت حرب تموز، فعاد من شرق بيروت ليتفقّد ركام بنايتهم المدمّرة في ضاحية بيروت الجنوبيّة. ظنّ أنّه يحلم. مدّ يده بين كتل الإسمنت. وجدها.

ظننته يكذب. لم أصدّقه. ثمّ عدت وصدّقته.

هل وجدت شيئًا آخر؟

دفتر الرياضيّات لأختي الصّغرى.

لم أكن أعرف أن أعبّر عن تأثّري بما يحكيه سوى أنّي غرقتُ بالصمت.

لقد عادت أختي، ورمته حين انتقلنا إلى البيت الجديد.

لماذا؟

لأنّها قالت إنّه لم يغد يلزمها.

حفظتُ هذه الحكاية من دون أن أخبرها لأحد، كأنّني صمّمتُ على أن أكون أوّل من يدوّنها.

ذهلني ذلك الهدوء الذي يضرب المفجوعين والمصابين بالكارثة. إستوقفتني تفاصيل هذه القصّة حين سمعتها للمرّة الأولى، فرحتُ أحلّلها وأتخيّل مجراها في إطار عابس كإطار الحرب. حرب قصيرة مثل حرب تموز، وحرب طويلة مثل حربنا. كلاهما تبدآن في لحظةٍ محدّدة وتنتهيان بتاريخ واحد يتّفق عليه الأكثرية. كشريط الأفلام، له بداية ونهاية. وإذا أردت إكمال تسلسل ما في أحداثه تستخدم فيلمًا آخر بفارق زمني لا بدّ أن يظهر بين مجموعتين. تنفعلُ بشدّة عندما تكتشف تضرّر الفيلم واحتراقه بكلّ ما كان يحمله من مشاهد، صورةً خلف صورة. ومن ثمّ تتدارك الأمور معترفًا بالخطأ أو بالحظ السيئ، لتبدأ العمل من بعدها بفيلم جديد مستعيدًا هدوءك تدريجيًا.

لكنّ ما هو أصعب، رحتُ بتفكيري قائلًا، هو أن تفقد مشاهد منفردة من السلسلة، فتتزعزع المعاني لتصبح شريدة تائهة بين الكلمات.

خرجت المشاهدُ عن صمتها. ترابطت في ذهنه، فاتَّضح منها ما كان تائهًا. برزت صورة جديدة للفرهود. «فلننزل معًا إلى محلّ الأسطوانات بعد الغداء»، قال لراجي وهما في درب العودة من المدرسة. مرَّت دقائق على انتهائه من الطعام، هبَّ فراس كعادته إلى غرفة نومهما هو وراجي، أولى غرف الممشى الطويل. أغلق الباب خلفه، ولم يُبارحه حتى المساء. تناهى إلى مسمعه صوت حفيف الباب الخشبيّ بشرائط إمدادات الطاقة من بطّارية السّيّارة، التي ابتكرها جليل منذ قدموا إلى بيت شارع ليون. امتعض جليل من تعنُّت فراس ومن تماديه بالاستهتار بتعليماته، عالج انزعاجه بتنهيدة كانت كافية أن تُربكَ راجي، وأن يتريَّث قبل أن يطلبَ منه ثمن قلم الحبر من محلّ القرطاسيَّة في شارع جان دارك.

لمَح الفرهود من شرفة غرفة الاستقبال، وقد بدَّل لباس المدرسة بثياب ربيعيَّة فاتحة الألوان. أومأ له أنَّه سينزل بعد دقيقة واحدة، مشيرًا بسبَّابته بصمت كما أوصته سارية، خوفًا من أن يُزعج الجيران من سكّان البناية الأصليِّين. هرول نحو أمِّه وهي تُلملمُ الأطباق، وتردَّد قليلًا قبل أن يُفاتحها بالأمر، وعاد وجمع قواه، وطلب منها ستِّين ليرة ثمن قلم الحبر الأسود. تأمَّلها تمسح يديها بالمئزر حول وسطها، ثمَّ تنسحبُ نحو زاوية في غرفة الطعام الكبيرة، حيث طرحت حقيبة يدها عند عودتها من المدرسة. انطلق جليل يسأل عن طلبه كأنَّه يوبّخه على إزعاجه لأمِّه، أشعرهُ بالإحراج فصمت خاشيًا، شاهده يدنو من سارية وركوة القهوة بيده، يهمس سائلًا «ماذا يُريد»، من غير أن يلفظ اسمه، كأنَّ ابنه غير حاضر معه ومع زوجته في الغرفة نفسها. أيّ إثمٍ ارتكبه راجي ليُقاصصه جليل بالتنكُّر للفظ اسمه! وهل كان عليه أن يتحيَّن فرصةً أخرى ليُطالب بهذا المبلغ؟ تحدَّت سارية زوجها ولم تُجب، فتوارى إلى أوَّل الممشى حيث علَّق سترته عند عودته من عمله، سحب ورقة ماليَّة من فئة المئة ليرة، تعمَّد فتحها وإبرازها له بنظرة غائبة. أمسكها راجي شاكرًا، مدركًا أنَّه لن يحظى بأيّ جواب من والده كما لو أنَّه، بكلّ بساطة، فاقد قدرته على الكلام.

رافقته سارية إلى باب المدخل، وأوصته بصوتها الخافت أن ينتبه لكلّ المخاطر خارج البيت:

إنتبه للمال الذي أخذته من أبيك، إبقَ مع الفرهود ولا تتركه، إجتازا الطريق معًا قبل محلّات الإلكترونيّات لا عند التقاطع، ولا تتأخَّرا عن

السّادسة.

أقفلت الباب خلفه، ما إن بلغ الطّابق الثّاني تحت شقّتهم.

أغلق البوّابة الحديديّة الخارجيّة، ومن ثمّ وثب من فوق الدرجات الأربع أمام مدخل البناية. استدار الفرهود إثر وقع قفزته متوقّفًا لبرهة عن مراقبة موديلات السّيّارات المارّة في شارع ليون.

استفسر عن سبب تأخير راجي خمس دقائق أو أكثر عن موعد الخامسة. لم يُحِد نظره بالكامل عن الطريق، بل واظب على معاينة سيّارات المرسيدس، القديم منها والجديد. يستفسرُ عن سبب إرجاء أسرة راجي موعد الغداء للرّابعة والنصف. يرنّ جرس آخر حصّة عند الثانية والرّبع فينصرفان معًا باتّجاه حيّهما، ومن ثمّ يفترقان أمام الفندق، بعد عشرين دقيقة.

يُعيد الفرهود تركيب جدول عودتهما من المدرسة مبرّرًا استهجانه لهكذا تأخير. يتعثّر بالكلام، ثمّ يعود وينطلق في أحاديثه عن لعبة الأتاري الجديدة، يصفُها بتأنٍّ متناهٍ، ويسترسلُ بوصف تعليمات اللُّعبة وأشكال عناصرها. يُتابعه راجي صامتًا، فيُدني الفرهود ساعده الأيسر على كتفه ويحثُّه على السّير نحو محلّ الإلكترونيّات. بقعة النُّور برتقاليّة أمامهما تلوح في الأفق ناحية الغرب، أمّا بناية بيت راجي، فتبقى محجوبة عن تلك الألوان لتراجع واجهتها عن الطريق. يلمحُ الفرهود جليل على شرفة الطابق الثّالث، رجلًا مربوع القامة أجلح الرأس مكفهرًا. حنى الفرهود رأسه وهمس في أذن صديقه بوقار: «أبوك، أبوك على الشُّرفة». لم يكونا بوارد إلقاء التحيّة وقد اجتازا عشرة أمتار أو أكثر عن رصيف البناية. افتعل راجي اللّامبالاة لكلمات الفرهود، حثّ خطاه، فجاراه الأخير بسرعته المباغتة. اندسا بين المارة حتى توارى البيت عن الأنظار، فعاد جليل أدراجه يُقلّب الصحيفة تارةً، ويُعالج مشاكل الترانزيستور الأبيض تارةً أخرى.

اعتنى راجي بتطبيق تعليمات سارية خارج المنزل. لا بدّ أنّها عنت ما تقوله، عندما تمنّت عليه وعلى صديقه أن يجتازا الطريق قبل التقاطع مقابل زاوية البيت القديم. تمنّع الفرهود عن دخول محلّ الإلكترونيّات، وانصاع لطلب راجي بأن يغتنما الفرصة ليشتري هو قلم الحبر الأسود.

بكم تشتريه؟ يسأل الفرهود من دون تركيز.

ستّون ليرة.

التفت إليه الفرهود بعينين جاحظتين، ليردف «هذا غالٍ يا رجُل».

اختلطت على راجي الأمور، فاجتاحه إحساس عميق بالذّنب تجاه والديه وأبيه جليل بالذّات الذي لم يتلكأ عن إمداده بأكثر من المبلغ المطلوب. مرّ في باله أنّ والده لا يتوقّع منه إعادة المبلغ الفائض عن ثمن القلم، فتردّد بالحكم عليه، وجعل يُخطّط كيف يدّخر مئتي ليرة للشهر القادم فيشتري قلمًا جديدًا فور جفاف الحبر في آخر قلم اقتناه، من دون أن يرجِعَ بذلك إلى أبيه أو إلى سارية. حتى إذا ما أراد أن يُطالب باحتياجاتٍ أخرى كورق الكرتون المقوّى من ماركة كانسون أو ربّما قلم حبرٍ آخر بريشةٍ مختلفة، كان وقعُ الطلب أقلّ وطأة على مسمع والديه.

تحمّس الفرهود وعاد يسأله: كم تدوم مدّة استعمال القلم الواحد؟

أجابه راجي بارتباكٍ كمن يُعيد حساباته أنّ ذلك يعود لوتيرة استخدامها. ففي فترة الامتحانات، يتضاءل الوقت الضّائع، ويضطرّ أن يترك الرّسم جانبًا لمدّة أسبوع أو أكثر. أمّا أثناء العطل أو أيّام الدّراسة العاديّة أو حتى فترات الإشتباكات البعيدة، لا القريبة منها بطبيعة الحال، فهو ينكبُّ على الرّسم بقلم الحبر الأسود ما إن يتحرّر من وظائفه المدرسيّة. يمضي ساعات ولا يُبارح مكانه إلّا بعد أن يُكملَ ما بدأ برسمه. أمّا إذا اضطرّ لإرجاء عمله لتأخُّر الوقت، وضع الورقة داخل عددٍ من مجلّة قديمة وخبأها في الدّرج الثاني من مكتب فراس.

يتخثّر الحبر وتنبري الرّيشة الطرّيّة من كثرة الاستعمال، فيعالجُ راجي الأمر مؤقّتًا، يفكّ محتوى القلم، ويعمل على تبليل رأس الإسفنجة بداخله بسائل السبيرتو.

«شهر أو أكثر بحسب الاستخدام» يجيبُ الفرهود وقد اقتربا من باب محلّ القرطاسيّة، فيخلُص الأخير إلى أنّ قيمة المبلغ قياسًا مع فترة صلاحيّته ليست بالباهظة، خاصّةً، أردف، أنّها هوايتك. ابتسم راجي من طرف شفتيه لِما اعتبره مديحًا من صديقه وزميل المدرسة، يُباركُ له اهتمامه هذا بالرّسم، ويضعه تحت خانة الهوايات كتلك التي تشغل غيره من الصبيان في ملاعب المدرسة.

اختار راجي قلمه بتأنٍّ تحسُّبًا لأيّ مشكلة تُعيبه يكتشفها لاحقًا، فتغدو عمليّة استبداله صعبةً بالرّغم من خفّة ظلّ صاحب المحلّ المُسنّ. تفحّص الريشة، ثمّ خطّ به على ورقة زهريّة اللّون أمام علبة الأقلام فتأكّد من صلاحيّته. أخرج ورقة المئة ليرة من جيب سرواله القصير. رنّ صوت

آلة الحساب. أرجع صاحب المحلّ ورقة من فئة الخمسة والعشرين وثلاثًا من فئة الخمس ليرات. سارع راجي إلى زجّها في جيبه كمن اعتاد تداول الأموال والشراء أو البيع.

يتنقّلُ الفرهود بين أغراض المحلّ من دون أن يستوقفه شيءٌ معيَّن. التفت صاحب المحلّ نحوه وأسقط نظّارتيه الغليظتين حانيًا رأسه، بعد أن أقفلَ دُرج الآلة الحاسبة. اقترب منه، فسأله عن والده هاشم وعن صحّة أمّه وأخيه الأكبر، وأوصاه ألّا يتقاعس عن الدّراسة لكي يدخل الجامعة الأميركيّة في المستقبل.

تفاجأ راجي بذلك الرّابط بين صاحب محلّ القرطاسيّة، الذي يقصده هو مرّة أو مرّتين في الشّهر أو أكثر أحيانًا، وبين الفرهود وأفراد عائلته أجمعين. كما أنّه استغرب لامبالاة الفرهود لحديث الرّجل وكتمانه معرفته به قبل دخول المكان. اجتاز باب المحلّ والفرهود أمامه، فراح يبني الاستنتاجات في ذهنه. قصد المحلّ مع سارية ومع فراس مرّتين أوّل الخريف المنصرم، وفي المرّتين بينما كان يُكدّس الدفاتر الجديدة ينتقيها بحسب تعليمات المُدرّسين، كان رجل النّظّارتين يتسامر مع والدته ويُحدّثها عن ابنته التي تلقّت لتوّها خبر قبولها في الجامعة الأميركيّة في كلّيّة الطبّ. وبالرّغم من اندفاعه بالحديث عن ابنته، لم ينس في حينها أن يستفسر من سارية عن المناهج الدراسيّة، وإذا ما كانت لا تزال تولي الأهميّة ذاتها لدروس التّاريخ على الرّغم من تعليق الامتحانات الرسميّة بين الفترة والفترة منذ اندلاع الحرب.

لم يتعجّب من تجاهل صاحب محلّ القرطاسيّة سؤاله عن أمّه، فهو اعتاد على الصّلة الهشّة التي رسّخها والداه مع أهالي المنطقة منذ وفدا إليها من ضواحي بيروت الشرقيّة. لكنّ الاحساس بالتّمييز بينه وبين الفرهود استثاره، وعمق الهوّة بينه وبين زميل المدرسة الوحيد، وابن الجيران في بيت شارع ليون. استسلم لفضوله، فرأى في لحظة توقّفهما قبل اجتياز شارع الحمراء نحو محلّ الأسطوانات مناسبة للكلام. التفت نحو الفرهود وقد عاود معاينة إطارات عجلات السّيّارات المركونة.

موسى زعرب إسمُ صاحب محلّ القرطاسيّة في شارع جان دارك.

استفاض الفرهود بشرحه عن الرّجل وقد استشمّ في سؤال راجي مجالًا للمفاخرة بمعارف أبيه الرقيب المتقاعد، كما لو كان استفاق فجأة لهذه الفرصة. دلّه على مكان سكن صاحب المكتبة في بنايةٍ زرقاء، بالقرب من كنيسة نياح السيّدة، حيث كانت ابنة الزعرب تُخصّص صبيحة يوم

السبت لدروس البيانو الخصوصيّة، فكانت حصّة الفرهود. تؤنّبه إذا ما لم يتمرَّن، وتفقد أعصابها فتضربُ على خدّيها كالمجنونة على ذمّته، ولمَّا كانت تسأله عن المدّة التي خصّصها للتّمرين في بيته كان يُجيبها «دقيقة»، فتعود تُولول ثمّ يُبدّل قوله بنصف دقيقة، فعشر ثوانٍ، فثانية. تمرَّس بإزعاج مدرِّسة البيانو الشّابة هكذا، حتى أعفته أمُّه من وظيفة لم يفهم جدواها منذ الأساس، سوى أنّه كان يلتذُّ باستفزاز الآخرين. يمضي بعد الحصّة إلى ملعب المدرسة هناك، ويلعب بكرة القدم مع تلميذين من الصفوف المتوسّطة.

لم تترك الحادثة مجالًا للالتباس عند راجي. فعلى الرّغم من انسجام وتواطؤ الفرهود معه أثناء مغامرات بعد الظهر، فهو لن يُجازف بصلة أسرته الوطيدة مع الحي بل حتى مع الكثيرين من أبنائه من سكّان وعابرين وتجّار، أمثال موسى زعرب وابنته الحمقاء بحسب تعبيره.

أغلق الكلام على قهقهة الفرهود. يستذكر أمه الحلبيّة واقفة في شارع المكحول قرب كنيسة السّيّدة، تترقّب قدومه من بيت زعرب في الطابق الثّالث وقد استأخرته تحت رذاذ مطر الرّبيع. يستأنف لعب الكرة، بعد أن لمحها خلف القضبان، كي لا يُعيّره أولاد مدرسة السّيّدة بخوفه من أمه وقد تجاوز سنته الثانية عشرة. رفس آخر ضربة نحو جدار السّور، ورفع ذراعه عاليًا إشارة منه بأنّ اللُّعبة انتهت. خرج من باب جانبيّ. لمح مرّة أحد العاملين يستخدمه لمدّ خراطيم المياه لريّ الحديقة. تقدّم نحو أمه، فجحظت عيناها لرؤيته آتيًا من اتّجاه غير متوقّع.

متى وصلتِ؟ يقول لها معاتبًا. نزلت ولم أجدكِ عند الحادية عشرة كما اتّفقنا. فخُيّل إليّ أنّك أخطأت العنوان، فاتّجهت صوب المدرسة.

يهزُّ بكتفيه مطلقًا ضحكةً متصاعدة ساخرًا من أمه ومن تصديقها لأكاذيبه. ثمّ يعودُ ويلتهي بمراقبة السّيّارات، فالدّراجات الناريّة المركونة على الرّصيف، قبل أن يبلغا محلّ الأسطوانات.

يختلجُ قلب راجي لروايات الفرهود. في تلك الفترة من أوّل حزيران، وهما في الصّف الأوّل متوسّط، أكثرا من مشاوير الحيّ. قصدا مكتبة الجان دارك ومحلّ الأسطوانات مرارًا. وحين كانا ينجرفان بإحساسهما الاستقلالي كانا يُطيلان طريق العودة، فعوضًا عن سلوك الطريق نفسه يمرّان بشارع الحمراء من أمام المكتبة الكبيرة، ويلتفّان يمينًا فيعودان أدراجهما نحو شارع ليون، أو يُطيلان الطريق أكثر فيمرّان من أمام سينما ألدورادو فمحلّ التحف الشرقيّة. يعبران أمام طاولات المقهى،

يجرُّ الفرهود جسقه المُكتنز فيتعثّر أحيانًا بأرجل الكراسي المعدنيّة. يمرّان في الجهة المقابلة للمسرح، يلتفتُ راجي في كلّ مرّة صوب واجهات المدخل. واجهات زجاجيّة ظلّت تعلوها اللّافتة الضوئيّة الكبيرة بالخطوط المتعرّجة. يحتمي بأشكال واجهات البنايات، يحدّقُ إلى نتوءاتها وألوانها المتبدّلة، ويتشبّثُ بصورها أكثر فأكثر، كلّما اقترب من شارع ليون ومن بيتهم بالتّحديد وعاودته صورة جليل مقطّب الحاجبين غارقًا في حزنه الدّفين.

زوّدني مصمّم الموقع بإرشادات دقيقة عن طريقة رفع الصّور. خصّص لي كلمة سرّ أستخدمها لإضافة أيّ بيانٍ. استخدمتها حتى الشتاء الماضي إلى أن تعقّدت العمليّة بسبب عطلٍ طرأ على الشبكة. هكذا قيل لي. أرفعُ الصّورة، تظهرُ دقائق، ثمّ تختفي بوصول رسالةٍ تحثُّك على المحاولة من جديد، على أمل تصحيح الخطأ الفنّي.

تعقّدت الأمور، فأقلعتُ عن تحديث الموقع من دون أن أتكبّد عناء الاتّصال به.

قلتُ لنفسي إنّه سبق وفعل خيرًا، فتطوّع أن يُصمّم الموقع من غير مقابل. فإمّا أن أقبل بالأعطال الفنّيّة من دون أن أشعره بلزوم مساعدتي، أو ألجأ إلى غيره من المتطوّعين الشّبّان.

كيسٌ من مكعّبات الثلج. علبتا تونا. ثلاث علب سردين. كيسٌ من الفستق. كيسان من الموالح. مرطبان من الخيار المُخلّل. زجاجتان من البيرة في حال تعذّر عليها شراؤها لسبب من الأسباب، أو في حال اكتفت بشراء القليل منها. قالبٌ صغير من الجبنة الصّفراء للطوارئ. رجعتُ إلى البيت بعد أن ألحّيتُ على صاحب الدّكّان الجديد أن يُرسل عامله في أسرع وقت، ليوصل صندوقي قناني المياه المعدنيّة للطابق التّاسع.

سأعود وأتّصل بمصمّم الموقع، ربّما. قد لا يُطالبني بأي بدل إذا كانت المشكلة غير مستعصية. عزمتُ على رفع صورٍ جديدة وتخصيص قسم خاصّ بها. صورة لي عارٍ ومنحنٍ تحت الطاولة، قد تصدم البعض وتُعرّضني لمزيد من الانتقاد. قد يعود ذلك المهاجم بزخم أكبر. كائنًا من يكون، سأعتبره من متتبّعيّ أعمالي منذ عودتي من سنوات الهجرة.

السّاعة الخامسة وتسع دقائق.

في ملفّ المفقودات على الجهاز ثلاث صور.

اللّقطة الأولى، جالسٌ فيها على السّرير أتأبّط ركبتي. نصف جانبيّة. محوتها وتركتُ اثنتين. قلتُ إنّه لا ضرر من إظهار وجهي كما في الأخريين تحت الطاولة. ثمّ إنّ في الصّورة الأولى وبالرّغم من انتباهي، فقد ظهر جزءٌ من عضوي، فخفتُ أن يُقال إنّه خبّأ وجهه لأنّه عارٍ علمًا أنّي كنتُ أفضّل ألّا آخذ الوضعيّة تلك.

صورةٌ تحت الطاولة. الطاولة فوق ظهري كالسلاحف التي أراها

في مناماتي بين الحين والحين. تلك الأشكال التي تأبى الرحيل متمسّكةً ببقائها على الميناء. أو إذا ما فسّرنا الحلم بطريقة أخرى، هي الأشكال التي تنعتق عمّا حولها، وتعزل نفسها متى شعرت أنّ الخطر سيداهمها.

مثل الصُور.

مثل مجموعتي التي فُقدت.

مثل الفكرة التي لمعت بخيالي في الماضي البعيد بتجسيد الخوف والترقُّب من الخطر المُحدق بنا في بيتنا القديم. يتقوقع الجسد على ذاته. تلتصق الأعضاء بعضها ببعض، ويتقلّص الحجم ليُصبح كتلةً شبه كرويّة.

تتّسع لها فضاءات لم تكن لتأويها في الزّمن وفي الظروف الطبيعيّة.

كلّما بلغنا الخوف انحسرت مساحة حركتنا.

كلّما بلغنا الخوف شعرنا بضآلة أنفسنا وأجسادنا.

في مدخنة البيت القديم.

اللّقطات كلُّها من المدخنة. عشرون رجلًا وامرأةً حشروا أجسادهم فيها. عراة. كأنَّهم يبحثون عن الدفء محتمين بالهيكل المبنيّ فوقهم، كبيت السلحفاة.

دقّ جرس الباب.

وصل الفتى لاهثًا يتصبّب جبينه عرقًا. ألقى الصندوقين.

هل أنهيت عملك؟

تردّد قبل أن يُجيب، كأنّه لم يفهم.

صندوقا مياه كما طلبت من المعلّم.

هل عليك أن ترجع فوزًا إلى الدُكّان؟

تراجع معتذرًا. سمع كلمة تصوير، فخاف. خاف منّي. أصبحوا يخافون من التّصوير. حتى بثيابهم. ربّما لم يكن لينصرف لو قلتُ له إنّه يستطيع خلعها والظهور عاريًا. عاريًا خفيفًا فلا يعرفه أحد.

جليل في الرَّدهة المستطيلة متَّكئًا على الخزانة الحديديَّة خلفه. اتَّضحت الصُّورة الغائمة أمام راجي. انطفأت علامات الغضب عن وجه أبيه، واشتعلت عيناه كما تكونان عادة عند لحظات ارتياحه. مدَّ ذراعه إلى الأمام. بسط كفَّه وفردَ أصابع يده مشيرًا إلى الرَّقم خمسة.

المتر الواحد يُساوي خمس بلاطات.

انسابت منه الكلمات بعفويَّةٍ بالغة وبشيءٍ من الرَّهبة في آنٍ معًا، كأنَّه حشد كلّ ما اختزنه من صيغ علميَّة في تلك الجملة البسيطة. شعر راجي أمامه بأهمّيَّة اللَّحظة، فالتصقت الكلمات برأسه. لازمته الجملة بترتيب كلماتها الأوَّل، وبالطبقة الصوتيَّة التي لفظها بها والده ذاك المساء. تمسَّك بالإكتشاف، وراح يستذكره ويردِّده في ذهنه بين الحين والآخر. أخذ يراقبُ البلاطات في أرجاء البيت من الرَّدهة المستطيلة، انتقالًا إلى الممرّ الطَّويل وحتى غرف النوم. ثمَّ انتقل بها إلى ممرَّات المدرسة في شارع المكحول. يخطو خطوةً ثمَّ أخرى، ويجتازُ مسافة مترٍ فمترين ثمَّ ثلاثة. شعر كأنَّه ورث من والده جليل خيطًا لحلّ أحجيَّة قد تعصى على غيره من فتيان الصفوف الابتدائيَّة. استهواه عدد المربَّعات الخمسة ضمن هذه المسافة، وجذبه تناسقها. حتى إنَّه اقتنع تمامًا أنَّه لا سبيل لتغيير المعادلة، بل إنَّ وحدة القياس قد استُنتجت أساسًا من المربَّعات التي تفترش أرضيَّة البيوت والأرصفة في بيروت.

لم يكن ذلك هو الدَّرس الوحيد الذي أعطاه جليل لابنه في بيت شارع ليون. لربَّما كان أوَّل الدُّروس التي أخذت تتكرَّر على مسمع راجي ضمن فترةٍ زمنيَّة، تأكَّد لاحقًا وهو يسأل ذاكرته في عيادة روكز أنَّها كانت وجيزة. عاد وتصوَّر المدَّة التي أعقبت درس البلاطات الأوَّل، فتراءت له أيَّام هنيئة الملامح هادئة، كان جليل يصطحبه خلالها في جولاتٍ مسائيَّة في أرجاء الحي، يروي له قصصًا عن زياراته الأولى لبيروت مع أمِّه طاهرة. يتعجَّب راجي لطلاقة أبيه الذي لم يكن يتفوَّه إلَّا بالقليل وبنبرةٍ متوتِّرة غالب الأحيان. استعاض عن جمله المبتورة برواية طويلة، كان يستلذّ بسرد تفاصيلها أمام إبنه وهما يتمشَّيان من أسفل شارع جان دارك صعودًا حتى الحمراء، ومن ثمَّ يسارًا تجاه المكتبة فالفندق عائدين إلى البيت. استفاض بقصَّته عن رحلة البوسطة وعبورها من طريق الكحَّالة باتِّجاه بيروت. يستوقفه منظر البحر من كوع عاريًا. يتمهَّل السَّائق،

فيتسمَّر الرُّكاب الجالسون في المقاعد على يمين البوسطة وراء الزجاج يراقبون بيروت خلف غابات شجر الصنوبر الكثيف. عمل بحسب كلام أمِّه طاهرة، فلم يقترب من الحافَّة عند الكوع يوم تسنَّى له أن يراقب البحر والمدينة عن كثب. توقَّف السَّائق ليقضي حاجته، فتبعه رتلٌ من الشُّبَّان والمراهقين من ركَّاب الصفوف الأولى، ليراقبوا الطائرات تقترب من مدرج المطار الجديد. تذكَّر صورة بيروت من فوق الهضاب القريبة. توقَّف خلف السُّور الحجريّ وتعرَّف على موقع المرفأ على اليمين، وعلم أنَّ رحلتهم إلى البلد ما زالت طويلة. حتى إذا وصلوا إلى الساحة، جعل يسترجعُ منظر المدينة وحزامها الأخضر التي كان رآها لتوِّه من الجبل القريب.

تتداخل صورتان يستحضرهما للمدينة من ماضيه. الأولى يُشكّلها من مجموعة مشاهد لحمَّالي درج خان البيض وحوانيت سوق سرسق تنبعث منها الأصوات والرَّوائح. أمَّا الثانية، فهي اللَّوحة الأوسع التي اختزنها من تلال عاريًا يوم ترجَّل من الحافلة.

كان راجي يزدادُ حيرةً كلَّما أسهب جليل بوصف الجلبة التي كانت تسحره في بيروت. ما إن يصل بسيرته إلى لحظة توقُّف البوسطة أمام سينما ريڤولي، حتى تنخفض نبرة صوته ويروح يُطيل بكلمات يصف بها الضوضاء وحركة المارَّة غير المألوفة لأبناء الرِّيف أو المدن الأخرى.

لا يقطع راجي الأمل من معرفة سرِّ انجذاب والده جليل ابن الاثني عشر عامًا إلى أصوات الباعة وزحمة السَّيَّارات. يلتفت إلى الشَّوارع التي اجتازاها منذ مدخل الجامعة الأميركيَّة حتى شارع البيت. تمرّ ذكرى بيتهم في السدّ سريعًا، فيتوقَّف عند صورة أشجار اللَّيمون والبيوت الحجريَّة في أوَّل الطريق لا غير. لم يُكتب له أن يتنقَّل بالبوسطة مثل أبيه، ولا أن يستذكر لذَّة رؤيته للبحر الأزرق للمرَّة الأولى. لكنَّه بات شيئًا فشيئًا يُجاري أباه في صياغة رواية اكتشافه للمدينة. يغيب عن محيط مدرسته الجديدة في شارع المكحول، وينسحبُ إلى ما يتذكَّره من بيت السدّ البعيد، حين كانت جدَّته فيوليت تحمله بين ذراعيها ليزورا معًا الإسطبل القريب خلف أشجار البرتقال.

ما يفصل الرِّيف عن المدينة هو مسافة اجتياز الطَّريق الطويل بين بيت السدّ وبيت شارع ليون. يستعيض عن صورة الحمَّالين وسط بيروت بمشهد بائعيْ الصُّحف والمجلَّات الذين كانوا يفترشون الأرصفة عند المقهى، ساعيًا أن يُشكِّل بدوره صورته هو للمدينة. غير أنَّ الصُّورة هذه لم تكن لتُقنعه، فلهفة والده جليل حين كان يسرد قصَّة زياراته الأولى لبيروت

كانت تتعدّى أضعافًا ما قد يُثيره مشهد المجلّات المفروشة على بلاطات الرَّصيف المُضلّعة. وإن كان له أن يعتبر أنّ بُعد بيت السدّ عن الحمراء يشبه بُعد بيت جدّته طاهرة في الكرك عن بيروت قبل الحرب، فإنّ أكثر ما يكون قد لفته بالمدينة هي الأرصفة التي تحدّد شكل الشّوارع. تنعطف عند زواياها وتستديرُ وتتقوّس، آخذة أحيانًا شكل البناء فوقها. لم يذكُر في شارع بيتهم في السدّ إلّا حافّة إسمنتيّة ضيّقة تُركن أمامها السّيّارات. أمّا البيوت الحجريّة الثلاثة، فكان زفت الطريق يلتصق بواجهاتها أو بجدار سورها، ويتشقّق عند الأطراف، فتنمو بينه الأعشاب وتتكاثر بيوت النّمل.

أخذ يرصد أشكال بلاط الرَّصيف ولونه فور اكتفائه من لعبة عدّ المربّعات الأولى. طالعه لونٌ فريد أمام محلّ الزهور، نبّهه أنّ لونها عادةً هو رماديٌّ يميل أحيانًا إلى السّواد متى بُري سطحها بفعل عجلات السّيّارات المركونة عنوةً. أمّا الشّكل الأكثر انتشارًا، فهو البلاطة المقسّمة إلى تسعة مربّعات متساوية داخل البلاطة الواحدة، تفصلها خطوط مقعّرة تمتلئ مياهًا أيّام الشتاء. لفته نموذجٌ مختلفٌ آخر عند مفترق طريق المسرح وشارع الحمراء، بلاطات مضلّعة أفقيًا لثلاثة صفوف متوازية. الصفّ الأوسط فيها أبيض والآخران أسودان. هكذا، عندما اصطفّت على الرصيف، بدا وكأنّها شريط أسود غليظ يُزنّر شريطًا آخر أبيض في لعبةٍ أنيقة ميّزت تلك الزّاوية عن غيرها.

اكتفى بتعداد التقاسيم الهندسيّة المختلفة لبلاط الأرصفة، من دون أن يشارك أحدهم، ولا حتى أباه، بما بات يشغله أثناء إغارتهما المسائيّة على أزقّة وشوارع المحيط. حفظ الأشكال من خلف بيتهم في شارع ليون حتى الكنيسة فالمسرح ثمّ شارع الحمراء.

لم يكن جليل قد زار الحمراء إلّا عندما التحق بكلّيّة الآداب في محلّة الأونيسكو قبل سنتين على الحرب، حين تزوّج من سارية وأقاما في السدّ. عمل في دار النشر بالقرب من بيتهم في قسم التّدقيق اللُغويّ، ريثما ينتقل إلى قسم آخر. لم ير رأس بيروت إلّا في ما ندر، ضمن رحلات مع زملاء له لا تشترك فيها سارية. اصطحبه جاك الواكد بسيّارته من الحازميّة إلى بيت السدّ عند الواحدة ظهرًا. طلب منه أن ينتظره بالسّيّارة مطمئنًا إيّاه أنّه سيتولّى بنفسه مهمة تبليغ سارية واستئذانها في ذهاب زوجها معه نحو الحمراء. سوف يُشاهدان مسرحيّة في حفلة الماتينيه، ويرجعان من بعدها مباشرةً. باتت الحوادث تتكرّر في محيط بيتهم، لكنّهما لن يتأخّرا. سوف يتدبّر جاك الواكد بطاقات أخرى لحضور المسرحيّة عينها

من صديق قريب له في الفرقة الشعبيّة. سَمِع من خلف الباب الخشبيّ أنين ابنهما الرّضيع فراس، الذي كان هدأ عندما همَّت سارية بالعودة إلى الدّاخل من أمام السّيّارة. مرّا على بيت الواكد في حارة حريك بسرعة خاطفة. أبت أم جاك إلّا أن تُعدّ لجليل كوبًا من شراب الورد. ارتشف جليل القليل منه مستحسنًا طعمه، معتذرًا سلفًا عن عدم إكماله. انطلقا معًا بسيّارة البيجو نحو الحمراء. ركن جاك السّيّارة قرب كنيسة القدّيس فرنسيس قبل الصيدليّة. سارا معًا في الشّارع الرّئيسيّ نحو الهورس شو، يوم كان ما زال مقهىً، وانعطفا يسارًا باتّجاه مسرح البيكاديلّي.

يتّخذ راجي هيئة المندهش كلّما استفاض جليل بحديثه عن حركته وحريّة التنقُّل التي تمتّع بها في السّنوات القليلة التي عاشها في ضواحي بيروت. من السدّ إلى حارة حريك ومنها إلى الحمراء في يوم واحد، بل في ظرف ساعة واحدة. استخلص من رواية أبيه أنّه لم يتعرّف على الحمراء إلّا من خلال الواكد الذي أحبّه مثل أخيه، قبل أن ينعزل في بيروت الغربيّة ويُغادر مركز عمله الأوّل. يُكرّر في كلّ مرّة الرواية عينها: يوم قدم مع جاك لمشاهدة فيروز في مسرحيّة المحطّة، أو مرّةً أخرى قصد بها بيت مانويل مع جاك وسارية بُعيد تسلُّمها وظيفتها في مدرسة مار أفرام.

أمّا روايته عن وسط المدينة بتفاصيلها، فهي التي كانت تنال الاستحسان الأكبر عنده، هو المُستمع. إذ إنّه بات يدرك في تلك الحقبة من أيّامهم في شارع ليون أنّ الكلام يفيض سلاسة عند جليل، متى اقتربت سيرته من أيّام سن المراهقة، حيث تُصبح الصُّور واضحة جذّابة تمتزج بانطباعاته الأولى عن بيروت وعن مراكب المرفأ خلف سوق الخضار تعوم فوق البحر الأزرق الشاسع مثل سهل البقاع.

انصرف جليل عن وصف داخل صالة المسرح، لكنّه حدّد تاريخ العرض بدقّة: يوم الأحد في العاشر من آذار من العام ١٩٧٣، واكتفى بخلاصة أنّ الجمهور وجاك في ما بينهم كان متحمّسًا لمشاهدة الفصل الثّاني حيث كان العرض سيتحوّل إلى فيلم سينمائيّ، كما أخذ يردّد بعض الحضور من الشُّبّان. انتظر راجي أشهرًا طويلة حتى رأى عن كثب ثريّا الكريستال تتدلّى فوق الصّالة من مقعده في بلكون المسرح. تسمّر على الكرسيّ ذي القماش المخمليّ الأحمر القاتم، وراح يختزن في ذهنه تفاصيل ما يراه. أقلع عن عدّ صفوف المقاعد مسندًا ذلك إلى فراس الجالس إلى يمينه. ركّز نظره نحو مصابيح ممدودة مثبّتة على الجدران. شكلها نصف دائريّ محدّب في أسفلها، يعود حجمها ليتقلّص ويمتدّ ممشوقًا إلى الأعلى.

راقبها حين أطفئت الثريّا. ظلّت مضاءةً إلى أن أخذ نورها يخفت تدريجيًا، فغرقت الصالة في ظلام دامسٍ إلى أن رُفعت السّتارة.

انتهت عروض المسرحيّة التاريخيّة في المنطقة الشرقيّة، وانتقلت إلى مسرح الپيكاديلّي. تقلّص عدد الممثّلين المشتركين في العرض الثاني، وخُصّص إلى جانب الطريق أمام لافتة الإعلانات مكان لركن حافلتين كبيرتين، أقلّتا الفرقة من وإلى بيروت الشرقيّة عبر معبر المتحف، تقدّمها سيّارة عسكريّة للواء السّادس في الجيش اللبناني. أعدّ جليل وسارية له مفاجأةً بحجز أربع بطاقات ليلة الجمعة. لم يكترث فراس بالبوح بالسرّ لراجي، الذي أوصته سارية بحفظه، عندما لمح البطاقات في خزانة المدخل السّوداء. تذرّعوا بزيارة أشخاص في حي الورديّة على غير عادتهم. مرّوا أمام الواجهة الزجاجيّة، حيث احتشد الحضور. دخلوا إلى البهو بحجّة مشاهدة الصّور المعلّقة. وما لبثت سارية أن عانقته راسمة ضحكة على ثغرها، وأبلغته أنّهم سيدخلون مع الحشد المنتظر لحضور المسرحيّة. توجّهت مع البطاقات نحو الدّرج. تبيّن لراجي من خلف الأشخاص صورة كبيرة لفيروز بفستان أسود. جعل يتأمّل حركة يدها اليمنى معطوفةً على صدرها. شعر بنبضات قلبه تتسارع. خُيّل إليه أن فيروز ستظهر على المسرح أمامه، كما اليوم الذي قصده فيه والده جليل مع جاك الواكد. ظلّت صورة فيروز تتربّع على عرش ذكرى تلك اللّيلة، كما المرّة الأولى التي ظهرت فيها بيروت أمام جليل من أكواع عاريّا.

عاد جليل لصمته. دفءٌ غريب يمتدّ إلى راجي بسماعه كلام والده. يُشعره بوجوده وبجدوى انشغاله عن دروسه بالرّسم وبمراقبة الأرصفة ومداخل الأبنية الفسيحة. دفءٌ يعود ويتبدّد كلّما عاد جليل وانزلق نحو صمته المطبق. ينسلخُ راجي عن أفكاره لوجه المدينة المُشرق، ويسرعُ به خياله نحو صور أبنية معبر المتحف نخرها الرّصاص والسّلاح الثقيل، يرتمي أرضًا ويرسمها. يبقى فراس مسمّرًا فوق سريره مسندًا ظهره على وسادة، يقلبها رأسًا على عقب بعصبيّةٍ بين الفينة والفينة، يحشرُ أشرطة الموسيقى في آلة التسجيل، ويضغط براحتي يديه على السمّاعتين في أذنيه.

صار لون الغرفة بُرتقاليًا بلون المغيب.

لم أعد أنظر إلى السّاعة. كلُّ شيء بات جاهزًا للّيلة. قد أعود وأتّصل بالفرن آخر الشّارع لأطلب دزينة فطائر بالسبانخ.

«يبي نسيت الخبز»، قلت بصوت عالٍ.

لن أخرُج من جديد. اتّصلت بالدُّكّان طالبًا كيسًا من أرغفة خبز الشوفان، ثمّ عدت وأضفتُ على الطلبيّة قنينة فودكا من الصنف الإقتصاديّ.

وقفتُ أمام الجهاز. النصّ صار جاهزًا في ذهني، غير أنّي كلّما نظرتُ إلى الجهاز تشتّتت أفكاري وأنا أحدّق بالأزرار وبالصّفحة البيضاء على الشاشة. سأُسجّلُ صوتي. ضغطْتُ على علامة المذياع.

«مجموعة المفقودات هي احتفاليّة بما ضاع منّا من وقتٍ ومن أشياء ومن وجوه»

أوقفت التّسجيل. أحسستُ أنّي أُحرّف الأفكار. ما سجّلته يصلح لعنوان فقط، لكنّه لا يُعبّر عن فكرة العمل وخصوصيّاته. ضغطْتُ على المذياع من جديد.

«كلّما أضعنا شيئًا عزيزًا علينا انتابنا إحساسٌ بالضّيق وبالخسارة. نسترجع اللّحظات الأولى التي اكتشفنا فيها فقداننا للشيء مستحضرين أحاسيس القَلق الأولى. ننصرفُ بعدها لاستنباط حلول لملء الفراغ. يخزنا شعورنا بالخسارة فنسعى أن نعوّض ما فقدناه.»

ربّما لم نُضِع شيئًا في البيت القديم. حملنا منه ثلاثين مترًا، لم أعُد أملك منها ما يُذكر اليوم. الكتب ضاعت بين البيوت التي تنقّلنا بينها هناك، قبل أن يختار كلٌّ منّا طريقه. ما ارتأينا أنّه ذو قيمةٍ احتفظنا به لفترةٍ من دون استخدامه أحيانًا، إلى أن تلاشت قيمته تدريجيًّا.

كانت فكرتها في ذلك البيت أن نوضّب حتى الأغراض التي استغنينا عنها. نجمعها أرتالًا أرتالًا في غرفةٍ واحدة، يسهل إقفالها وعزلها عن باقي أرجاء البيت الفسيح، في حال استأمنّا أحدًا ليسكنه في غيابنا. لم أدرِ لماذا نقوم بذلك العمل الفضنيّ!

لن نعود، ربّما. ألم نقُل إنّنا نستغني عن كلّ ما تركناه؟

معك حقّ. لن نعود على الأرجح، لكنّي أستبق الأمور. لربّما استطعنا نقل ما خلّفناه هنا ونحنُ في الخارج. نطالبُ مثلًا على الأقلّ

بما تركناه في هذه الغرفة I don’t now...

تلاعبت بمشاعري حينها. ظننتُ بدايةً أنّ كلانا مصمِّم على التخلُّص من عبء هذا البيت. فجأةً، عُدنا لترتيبٍ آخر يرمي إلى ربط ما نتركه بفكرة العودة، أو التواصل مع من سيسكنه بعدنا مؤقتًا.

أنا واقعيّة كما تعرفني. لا تفهمني غلط. أنا لا أريدُ الأغراض. أريدُ فقط أن يعترف أصدقاؤك المقرَّبون أو غيرهم ممَّن سيقيمون هنا أنَّ هذا البيت ليس لهم، بل لغيرهم، وأنَّنا عائدان إليه إذا تحسَّنت الأوضاع.

أنت مخطئة، قلتُ لها. من سيأتي للإقامة هنا لن يتوانى عن رمي الكراتين والعلب هذه، إذا خطر له ذلك.

فلندع الخيار له إذًا. لكنَّني أشك بذلك. إذا ائتمنت أحدًا من المقرَّبين أو من المبعدين على منزلك، فلن يفعل ما تقول.

نسيتُ ما قلتُ لها، لكنِّي كنتُ في الأساس مترفِّعًا عمَّا كنَّا سنتركه. لم أخسر شيئًا في ذاك البيت سوى مغلَّف الشرائح الفوتوغرافيَّة.

عدتُ إلى التَّسجيل.

«كلَّما أضعنا شيئًا عزيزًا تأرجحت أحاسيسنا بين الخسارة وبين الرَّغبة بتعويضها. يزورنا القلق، فننأى عنه بالانعتاق والهروب من محيطنا.»

دقَّ جرسُ الباب.

رجع الفتى بكيس خبز الشوفان. حمل في كيسٍ أسود آخر قنينة الفودكا. يضعون الكحول بأكياس سوداء. كم تغيَّر هذا الحي!

وقف عند الباب، كأنَّه ينتظر أن أبادره بالكلام من جديد. حاولتُ استفزازه بصمتي.

نعم؟

أنا فيِّي إتصوَّر إستاذ بس مو هلَّق، بعد الدوام.

كيف؟

كيف ما بدَّك. بالزُّلط كمان. بس بغطِّي وجِّي. وإذا بدَّك أنا بتصوَّر وببعتلك ياهن. وقدَ ما بدَّك أستاذ. لا تهكل همّ.

قالها واثقًا، كأنَّها ليست المرَّة الأولى التي يتجرَّأ فيها على ذلك. فكَّر بالموضوع بين الطلبيَّتين ظانًّا أنِّي أرشيه من أجل خدمات جنسيَّة. تردَّدتُ قبل أن أسترسل بالحديث. هل أتركه يروي ما يرويه عنِّي؟

وزنتُ كلامي. عسى يفهم ما أريد.

لا، لا، أنا مصوِّر محترف أصوِّر عارضين وعارضات، وأحببتُ أن أصوِّرك أنت من دون أن تُخبِئ وجهك.

سكت.

فهمت ما قلتُ؟

أعطاني رقمه. فَهِم على الأرجح.

السَّاعة صارت الخامسة وسبعًا وثلاثين دقيقة.

سألني طالبي السَّابق مرَّةً لماذا لا أخصِّص مجموعة للعزي بين الصُّور. لم أفهم جدوى سؤاله، كأنَّ للعُزي خاصيَّة تتعارض وباقي الصُّور. صوَّرت الكثير من العراة، نساءً ورجالًا، قبل أن نرحل منذ سنين. في الأستوديو وفي البيت، وحتى في المكتب والطَّبيعة. لكنَّ الموضوع الأساسيَّ لم يكن هذا. شرحتُ له أنَّ النَّظرة إلى الجسد اختلفت تمامًا اليوم، بعد أن كان ما يزال للعري موقعٌ في سير الحياة اليوميَّة البسيطة. ثمَّ أخبرته أنِّي انتبهتُ للأمر في حمَّامات المسابح الخاصَّة في بيروت، حيث صار من شبه المستحيل أن تُظهر عريك حتى بين أفراد الجنس الواحد. بدا مستغربًا كلامي في تلكّؤه بالإجابة، ثمَّ ظهرت عليه تعابير منفرجة، كأنَّه استوعب واستحسن ما أقول.

سأخبره عن صور المدخنة، قلتُ في نفسي. لربَّما ساعدني في مشروع صور المفقودات الجديد.

تخرجُ الصُور عن صمتها فعلًا، وتكادُ أن تنطق بل أن تصرخ عاليًا. عاد ليرى سارية من خلف زجاج باب الممشى الطويل. تصوغُ كلامها من قلقها عليهما، هو وفراس، ومن خشيتها من عزلة إبنها الأكبر في سنّ المراهقة. يكاد صوتها أن ينكسر بعباراتٍ ملتهبة حزنًا، تسكن كلماتها نبرةٌ متوسّلة. تكاد أن تختنق بكلماتها، فتتلعثم، ثمّ تصمت برهةً، تتنهّد، يتذبذب صوتها ثمّ يعلو فجأةً، فيغلبها البكاء. يبقى جليل مسمّرًا بأرضه بعيدًا عنها، يُلقي جبينه على الحائط إلى يمينه، ويحدّق بالطّلاء البرتقالي، يُرخي بجسمه وذراعيه كأنّه تخدّر في وقفته تلك.

رصدوا حركة نظراته عند جلوسهم إلى المائدة بعد عودتها من المدرسة. يتفرّس بابنه الأكبر: يلتهمُ الطعام، ويُلقي راحة يده اليسرى على كيس أرغفة الخبز إلى جانبه. يرمقه بلفتةٍ قاسية كلّما تجرّأ وعاين يده الثابتة، فما يلبث أن يُعدّل نظره صوب جدار الغرفة خلفه خوفًا من إيقاظ غضبه، كان ينقرُ بإصبعيه فوق الكيس الشفّاف بحركةٍ تُشبه حركة عازفيّ البيانو المحترفين. يعود ويلوي ذراعه ليتأبّط الكرسي الفارغ إلى جانبه، يُبقي عينًا على كيس الأرغفة ممتحنًا تصرُّف ابنه. يثابر فراس على مضغ طعامه بصمتٍ، تحت وطأة المراقبة الصّارمة التي يفرضها عليه جليل. ينتظر بفارغ صبره إشارةً من سارية تدعوه لتناول المزيد من طبق الخضار المقليّة. يبتكرُ حركةً توحي باللّامبالاة: يرفعُ حاجبه الأيسر ويضغط على شفتيه، ثمّ يُدني صحنه بحذرٍ. تُسعفه سارية فتسارع إلى التقاطه. تملأ الصحن بقطع الكوسى والباذنجان المقلي، وتضيف رأسًا واحدًا من البطاطا المسلوقة. تعلمُ أنّ حصّةً واحدة لن تُقيت فراس، إن ظلّ جليل مصرًّا على تقنين مصروف الخبز عليهم جميعًا.

راقب راجي أخاه الاكبر مرارًا، وحفظ أدنى حركاته. قرأ السعادة في عينيه الشاردتين وهو يمدّ برأسه وبأنفه نحو المطبخ قبل موعد الغداء، يومَ زارتهم عمّته زهريّة. تقدّم بخطًى خجولة نحو الممشى المفضي إلى المطبخ، يشمُ رائحة البطاطا المقليّة تنبعث من خلف الباب. تمسّك بكتاب الرياضيّات وضغطه مفتوحًا على صدره. ارتطمت قطع البطاطا بالزيت المغلي، فسال لعابه، وجعل يعدّ التواني ليحين وقت الغداء.

«أول فوج» سمع عمّته زهريّة من داخل المطبخ تصدح بصوتها المُتهدّج. هدأ صوت قرقعة الزيت، فتابع فراس القراءة. دوّى الصّوت من

جديد غلب عليه صوت زهريَّة «ثاني فوج»، أرفقته زهريَّة بقهقهة متصاعدة. اقترب من راجي، وهمس في أذنه وهو ما يزال متمسّكًا بكتابه «لا تتلعثم في أكل البطاطا، وكُل ببطءٍ أمام عمَّتك».

يتذكَّر راجي يوم العطلة ذلك الذي زارتهم فيه عمَّته زهريَّة قادمةً من الكرك، عبر طريق دير القمر. حضَّرت سارية التبُّولة ولم تبخل بسكب زيت الزيتون. أوصت جليل أن يُحضر لحمًا للشيّ، بعد أن استدرجت زهريَّة إلى المطبخ. ناولتها صينيَّة البطاطا بعد إلحاحها، وانصرفت إلى فرم ورق البقدونس فرمًا ناعمًا ومنتظمًا.

كان راجي يدركُ أنَّ فراس كلَّما أفرغ صحنه ترقَّب المزيد من الطعام، فلم يكن ليلجم إحساسه بالجوع إذا ظلَّ ما يؤكل على المائدة. ينتظر اللَّحظة التي يتظاهر فيها بالتُّخمة، حين ينقطعُ أمله بالحصول على المزيد. تُفلتُ الشوكة من يده محدثةً رنينًا على الطبق الأبيض، منتصرًا على صمت والديه ورهبة جلسات الطعام نهاية الأسبوع. أمَّا عند إحدى الزيارات النادرة لأحد الأقرباء وبقائه لوجبة طعامهم، فكانت حماسته تزداد كلَّما أكثرت سارية من الأطباق على المائدة. يُحصيها واحدًا واحدًا.. صحن بطاطا مقليَّة، صحنين من الحمُّص الفتبَل، صحن تبُّولة، صحنًا من لبن زهريَّة، صحن زيتون أخضر، علبة طون مع الحامض والزيت أفرغتها أمّه في صحن بلاستيكي، صحفة اللَّحم المشويّ، فيها تسع شرحات تكبر إحداها الأخريَات مرَّةً ونصف المرَّة.

«صرت متل القمر. اسمالله، قامة غزال... شبَه المرحوم جدّك نايف!» تقولها زهريَّة مزايدةً بلطفها.

تكوَّنت معالم رجولته. أقلع عن تمشيط شعره الأملس وردِّه إلى الوراء، فانقشع جبينه الصَّغير واكتملت استدارة وجهه. لم تره زهريَّة منذ غادروا بيت السدّ، ربَّما، أو بعدها مباشرةً. يتغاضى فراس عن إطراء عمَّته ثمّ يخرجُ عن صمته. يشكرها بكلماتٍ مقتضبة تكاد لا تُسمع. يجلسون إلى المائدة ويلتهي جليل عن كيس الخبز، ليستمع إلى شقيقته الكبرى تسرد آخر أخبار البقاع. يصمتُ تمامًا مسندًا إلى سارية مهمَّة السُّؤال والجواب. ينقص الطعام في الأطباق الممدودة. يمضغُ فراس أكله شاردًا. هكذا، كما في باقي أيَّام الأسبوع، حيث يكون الصَّمتُ سائدًا من غير أن يشوبه كلام الزوَّار.

ينتهون من الطعام، فتُسارع سارية لوضع الفاكهة قرب الأطباق إذا شاركهم أحدٌ من غير أفراد الأسرة. تُلحّ عليه في الدَّعوة لتناولها. تكاد أن

تتوسّله، فيُذعنُ لها. أمّا في الأيّام الأخرى، فتبقى سلّة الفاكهة مستقرّة فوق البرّاد. يمضي فراس بطبقه الفارغ نحو المطبخ. يضعه على حافّة جرن المجلى الرّخامي. يغسلُ يديه بقليلٍ من المياه فوق أوانٍ متّسخة استخدمتها سارية لتسخين الطعام. يسلكُ الممشى الجانبي وينصرفُ نحو الغرفة الأولى. يعرف راجي أنّ فراس سيعود ويخرج منها خلسةً بعد دقائق معدودة، مستغلًا اختلاء سارية بجليل في ردهة الاستقبال. يجتاز المسافة مسرعًا. يتقدّم نحو المدخل، فيعبرُ غرفة الطعام ويصل عند المطبخ. يُخرجُ وعاء الحليب المجفّف المعدنيّ، ويغرف منه أربع أو خمس ملاعق كبار يقذف بها في كأسٍ زجاجي، يُعيدُ الوعاء ثمّ يلقي بالسُكّر الأبيض النّاعم فوق الحليب، غير آبهٍ بمراقبة الكمّيّة. ينزوي خلف ستائر باب شرفة المطبخ، يلعقها بشهيّة شاخصًا نحو الخارج. تكادُ تنحبسُ أنفاسه وهو يلتهم كُتل البودرة مسرعًا، خاشيًا أن يعكّر صفوه أحدهم. يعود إلى الغرفة الأولى التي يشغلها مع راجي، ويستلقي مع كتبه على السّرير حتى أوّل المساء.

قامت سارية بتحضير القهوة، كما كانت تفعلُ في كلّ يومٍ بعد الغداء. تحمل الصينيّة المعدنيّة المستديرة بخطى بطيئة تدفع بجسمها نحو غرفة الاستقبال، حيث تسمُر جليل على الأريكة قرب مصباح الضوء الخافت، يدوّنُ بعيدًا عن الولدين أحداث وحسابات النهارعلى دفتره الصغير.

«ألن نُقلِع عن زجّ الولدين في حساباتنا؟» تقول له من دون أن تنتظر جوابًا.

لم تتركْ وسيلة إلّا واستعانت بها لتثنيه عن صمته وعصبيّته المُفرطة. روت له مرّةً كيف كان ابن جيرانهم في الطّابق الثّالث في السذ يغافل والديه على مدّة سنةً كاملة، ويعبّ خلسةً جرعات من زجاجات الويسكي في واجهة خزانة الصالون، في الصّباح وفي المساء، هكذا أتى عليها بالكامل. لم ينكشف أمره إلّا قبيل عيد الميلاد، حين أدركت والدته عن طريق المصادفة أنّ المشروب قد شحّ في الزجاجات الثلاث داخل واجهة خزانة الصالون. ذهبت إلى سارية تولول خائفةً من أن يكون ابنها إبن الرّابعة عشرة هو من أقدم على تلك الفعلة، مستغيبًا أباه في رحلته الطويلة خارج البلد. استخلصت أنّ العلّة هي في غياب الأب، وأنّ جليل بصمته قد كرّس الهوّة بينه وبين الولدين. تستحضر الرواية، ثمّ تسردها في أحاديثهما بعد الظهر، حين يعاودهما الضجر، بعيدًا عن مسمع الولدين.

تتأمّل ردّات فعله، تنتظرُ قليلًا، ثمّ تُردف تأفُّفها من الوضع الماديّ. تتراكم الأمور في بالها، فتستعطفه بنظراتها الحزينة. لا حيلةَ لها على الوضع المتدهور ولا على مردودهما المتدنّي، منذ انتقلا إلى غرب العاصمة قبل الاجتياح.

يغيبُ عنها لدقائق طويلة. تحثُّه على الكلام مخفضةً صوتها، حانية رأسها. تجلسُ على طرف المقعد لتقترب منه. يستسلم لها. يتفوّه بكلام غير مترابط. يبرّزُ بعده عن الولدين بتصرُّفاتهما الرعناء. ليتهما بقيا في مدرسة الراهبات. تُطيّب خاطره، فيعالج الوضع باستدعاء راجي يُداعبه بسؤال مفتعل عن المدرسة، وعمّا إذا كان سيرسم له بيتًا ليبنيه لهم عند تلّة الجوز حيث أرض والده. يُدرك راجي أنّ سارية غير مقتنعة بهذه المحبّة المفاجئة. يصطنع السّعادة لاهتمام أبيه بأموره، ويدعوه لكي يرى آخر رسوماته.

يوم وصلت زهريّة من الكرك إلى بيروت أواخر شهر تشرين الأوّل، حملت معها «برنيّة» من لبن الماعز وكيسًا من الكشك. حملها لها السّائق حتى مدخل البناية، فوضعها على إحدى الدرجات أمام المدخل. رآها راجي من الشُرفة واقفة أمام البوّابة الموصودة. تطلّعت إلى أعلى، فرأته متمسّكًا بدرابزين الحديد يحدّق بها كأنّه لا يعرفها. تريّث قبل الحديث اليها. استغرب مجيئها إليهم في ذلك البيت. استعاد الأيّام الماضية في بيت السد، حين كان أقارب أبيه يأتون إليهم وفودًا لغاية سنتين ونيّف قبل الاجتياح الإسرائيلي. يفترشون أرض الصالون الصّغير، وتعلو أصواتهم في كلّ زاوية. أمّا في بيت شارع ليون، فقد انكفأت العادة وكأنّ البيت الفسيح الذي شغلوه في قلب المدينة لم يَعد يتّسع لغيرهم، هم الأربعة.

اقتصرت زيارات زهريّة إلى بيروت على مرّةٍ أو مرّتين في السّنة كحدٍّ أقصى. أسرّت لزوجة أخيها بأنّ المشوار بات يُحسبُ له ألف حساب، وبأنّها لن تستجدي رفقة الطريق من أيّ من رجال العائلة. تنتظرُ نهاية الموسم أواخر تشرين، أو أوّل الرّبيع، حين تنقشعُ طريق ضهر البيدر من الثلوج. تستقلّ سيّارة سائق عمومي من قرى الجوار. وصفته لسارية وصفًا متناهي الدقّة. «أكتفي بسؤال صغير عن الأوضاع في العاصمة أطرحه على السّائق أثناء انتظار باقي الركّاب». تعرف الجواب سلفًا بأنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنّ كلّ الطرقات سالكة. تُوقن تمامًا أنّ أيًا من السّائقين لن يتخلّى عن راكب مثلها، يدفع التعرفة وفوقها حبّة مسك، ليوصلها إلى بيت أخيها قرب محلّات نصّار، كما دوّنت عنوانهم في المرّة الأولى. لا تخشى

الأحداث. تردِّدها مرارًا وتكرارًا. تُثني سارية على كلامها. تعرف أنَّها ستسترجع أيَّام حرب السنتين كما في كلِّ مرَّة. حلَّت ضيفةً لشهر كامل عندهم في بيت السدّ عند ولادة فراس. نظَّفت البيت ورتَّبت الغرف، وأسهمت بتحضير كاسات المغلي وسكبها مع فيوليت. قصدت أقرباءهم في عين الرمَّانة وفي شارع المصبغة وفي الشيَّاح أكثر من مرَّة بحسب قولها، رغم الحواجز وخطر التجوُّل. تُفاخر بجرأتها. تتحدَّى الصِّعاب منذ أيَّام الصغر حين فقدوا والدهم. «كان جليل في السَّادسة، وكنت أنا في الرابعة عشرة ربَّيته وربَّيت أختيَ مروى وابتسام» تنجرُّ للمبالغة، فتنسى أنَّ الفارق بينها وبين جليل، الأخ الأصغر، لا يتجاوز الأربع سنوات.

لكنَّها تُقرُّ أنَّها تخاف من الطرقات الوعرة كالطريق المؤدِّي إلى بيروت. لا شيء مثل طرقات البقاع سهلة منبسطة. تشترطُ على السَّائق أن يسلك طريق الشوف، وإن كانت «طريق الكرامة» الطريق المُستحدثة، تختصر الكثير من المسافة إلى بيروت. تُقسمُ للسَّائق أنَّ المنعطفات فيها هي أخطر المنعطفات في لبنان، وتروي لهم كيف انزلقت سيَّارة جارهم مسعد به وبأختها الصغرى ابتسام آخر الصَّيف السَّابق. تستطردُ وتعود بها الذَّاكرة إلى تلك الحادثة، فتفصِّلها وتعيشها لحظةً بلحظة. كاد ذراعُ ابتسام أن يلتوي لو لم يُسارع مسعد ويجذبها لصوبه. صاحت من الألم، إلى أن حضر شابَّان من الحزب الإشتراكي كانا يمرَّان بسيَّارةٍ عسكريَّة. دفعا بسيَّارة الداتسون للأعلى، فخلَّصاها من الفجوة التي وقعت فيها على يمين الطريق. «لو كانت سيَّارة مرسيديس عوضناك البركة»، تختتم زهريَّة قصَّتها في كلِّ مرَّة بالخلاصة عينها.

سلكت الطَّريق مرَّةً واحدة بعد الحادثة تلك، يوم توفي خالها عبداللّه في مستشفى الجامعة الأميركيَّة في بيروت. سبع مرَّات تلت فيها آيَة الكرسي. مرَّت شاحنة بالاتِّجاه المعاكس، فارتاعت من الخوف. أغمضت عينيها واستأنفت بصوت عالٍ. مثَّلت المشهد لسارية، فأغمضت عينيها وتلت بخفَّةٍ «لا نَوم لَهُ ما في السَّموات وما في الأرض مَن ذا الذي يَشفعُ عنده إلَّا بإذنه». تمنَّت لو تُفتح طريق الكحَّالة. كان المشوار يستغرق نصف ساعة كحدٍّ أقصى بين الكرك وبيروت، عبر ذلك الطريق. تقولها بحسمٍ قاطعةً الطريق على من سيغالطها، أو من سيشكِّك بما تقول. تعرف أن لا سارية ولا جليل سيصوِّبان كلامها، وأنَّ مجرى الحديث سيبقى سالكًا آمنًا مهما استرسلت بالوصف.

« ما قولك جليل؟ ستفتح طريق الكحَّالة ؟» يستيقظ من سباته.

قال في نفسه إنّ سارية ستستمع وتستطيب الكلام وتُدير جلسة بعد الظهر. تعرف سارية على أتمّ وجه المواضيع التي تثيرُ اهتمام إبنة حميْها الكبرى. طريق الكحّالة المقطوع الرّابط بين بيروت والبقاع، نوادر المستشفيات والطبابة، أسعار المواد الغذائيّة، بيت السدّ... تُخاطبها بلغتها. تُتقنها. تترقّب انفعالات وجهها فتعيد وتكرّرها. تعرف أنّ جليل لن يتكبّد عناء المشاركة في الحديث، طالما أنّه يرى زهريّة هي هي، على حالها منذ سنوات، تكرّرُ الأخبار عينها، تتعاطى معه وأحيانًا معها، كالوصيّة عليهما، تُرشدهما، توصيهما بادّخار المال. أشبعتها زوجته سارية إبتساماتٍ وتعليقات إيجابيّة على كلّ ما تقول.

ما دخل جليل بطريق الكحّالة.

فتحت، أقفلت، فُتح معبرا المتحف والفرانسيسكان، أقفل المرفأ، ممرّ غاليري سمعان، لن يقوى على الكلام. سيظلّ صامتًا، ويرفع كتفيه إشارةً منه بأنّ الأمر خارج عن نطاق معرفته.

«أنت منطوٍ على نفسك يا جليل. خذ وأعط».

قالتها جازمةً بحضور عشرة زِلم، على حدّ تعبير جليل، في بيت الكرك قبل زواجه بشهر. جاء كلامها ردًّا على موقفه الغاضب من أحد علماء آل رضوان. سأله الشيخ حمد إذا كان متأكّدًا من قراره بالزواج من مسيحيّة. هبّ من على مقعده، وهمّ بالخروج إلى فسحة الدّار الأماميّة متجاهلًا أسئلة الرّجل المُسنّ. شعر بالنفور من ذلك الحديث المتكرّر. هدّه التعب لكثرة ما ألحّت عليه شقيقته الكبرى وابتسام من بعدها أن يعدلَ عن خياره. «لقد رأيناها وأحببناها. نخشى فقط من تربية الأولاد، ومن أن يزلّ لسان أمّك طاهرة أمامها». سعت ابتسام أن تُحيد تهمة العصبيّة عنها لتلصقها بأمّها. عزّ عليه أن يسائله أيّ كان عن ارتباطه بسارية. انتفض مرارًا. انزلق نحو الكلام القاسي، شتمهم وشتم الكرك وأهلها ومن لفّ لفهم. أمضى عشر سنواتٍ شرق بيروت بعيدًا عن ذلك الجوّ العائليّ، وها هو ينغمس به من جديد. توزّعت مهام شقيقاته الثلاث وأمّه طاهرة على مراقبته ومحاسبته، هو الإبن الذكر الوحيد. حثّته أمُه طاهرة على التقدُّم بدراسته وأرسلته حتى الصفّ الخامس الإبتدائي إلى مدرسة الآباء البيض. شجّعته زهريّة على رفع اسم العائلة عاليًا نكاية برجال الحي، كما كانت تردّد. كُتب له أن يتحمّل هواجس أمّه وشقيقته الكبرى لسنوات طويلة.

X

أشعرُ أنَّ الصُور الجامدة أبلغ من سرد الوقائع وتفصيلها.

تتحرَّر فيها الكلمات من القيود اللُغويَّة، فتأتي عذبةً ناعمة، تتسلَّلُ نحوك بانسياب الحركة والضوء والهواء والعطور وتراكيب الأشياء.

ذكَّرني طالبي السَابق بما قلته له مرَّةً في دروس التَّصوير. لم أكن أذكر كلامي بالتَّرتيب الذي استحضره في حديثه. غير أنِّي واثقٌ من هذه الفكرة ولم أُبدِّلها. قد أعود لصياغتها من جديد, قائلًا مثلًا إنَّ الكلام الفائض يحجبُ مصداقيَّة الصُورة، ويُبدِّد سكينة تركيباتها. أو مثلًا إنَّ الصُوَر هي كالكلام الصَادق الذي لا يُباح به.. وغيرها. قرأتُ الكثير عن تعريف الصُور وعن ارتقائها إلى منزلة الحقيقة والنُبل فيما مضى. وكلّ ما قرأته كان يصبُ في الخانة نفسها.

كلّ من اتَّخذ مسيرتي وامتلكه شغف التَّصوير, سيشاركني هذا المنطق. سيتفهَّم على الأرجح ماذا يُعيقني ويشلّ أفكاري, كلَّما صمَّمتُ على استعراض عملي بالكلام.

«إذا فُقد الكلام تبقى الصُور»، قلتُ له في الماضي.

«وإذا خسرنا الصُور»، أجاب ممازحًا بحسب ما يرويه.

«قد تُفقَد الصُور وقد لا تُفقد. تبقى تركيباتها محفورة في ذهنك» قلتُ له، ثمَّ أردفتُ مضيفًا: «وإذا فُقدت بقي منها عطر المشاعر الأولى التي ولَّدتها. أمَّا الكلام، فمن النَّادر ألَّا يُحرَّف إلَّا إذا دُوِّن وحُفظ مكتوبًا».

قال لي اليوم إنَّني لم أتردَّد في إجاباتي في حديثنا السَابق هذا. شعرتُ وأنا أسترجع موضوع طرحنا القديم أنَّني التمستُ ما كنتُ أعنيه بداية بالفقدان، وبالفارق بينه وبين الخسارة. الإحساس بالخسارة هي عندما تنتقلُ من حالة استجداء ما كان وزال إلى حالة الاعتراف باختفائه وتقبُل فكرة زواله... قلتُ في نفسي، وردَّدتُ الجملة مرَّتين.

حتى ليلة الأمس فقط، كنتُ أمتنع عن التفكير بهذه المواضيع. عاندتُ فكرة فقداني لأعمال كانت لتُعتبر اليوم حُكمًا ذا قيمةٍ فنِّيَّةٍ وتوثيقيَّة بالغة. رجعتُ من السَّفر مستنفدًا كلّ طاقاتي لاستعادة نشاطي الأوَّل بعد سنين، أبعدتني فيها ظروف الحياة الجديدة عن التَّصوير. هيَّأتُ لعودتي المهنيَّة بإقامة موقع أعرض فيه صورًا من السَّنوات الخمس الأخيرة، وقليلًا ممَّا احتفظتُ به من أعمالي الأولى

والبيت القديم في بيروت. ها قد حان الوقتُ، ربَّما، لأنظر عن كثب إلى ما سلبته منّي الأيّام.

نظرتُ إلى الجهاز وإلى لوحة أسماء الأصدقاء.

بادرته بالتحيَّة، فردَّها كعادته بسرعةٍ فائقة.

استأذنته سائلًا إذا ما كان قادرًا على الاستماع، فرحَّب كعادته أيضًا.

في الباخرة التي أقلَّتنا من مرفأ جونيه إلى لارنكا، أوهمتُ نفسي أنَّ مغلَّف شرائح الصُّور يقبع في قعر أحد الصناديق. هكذا أصلُ إلى أميركا وأفاجأ بوجوده بين الكتب والصُّور الأخرى. الحقيقة هي أنَّ الشحن لم يصل إلَّا بعد ثلاثة أشهر ونيِّف، وقد كنتُ في ذلك الحين قد ابتعدتُ تدريجيًا عن تعلُّقي بأيِّ أمرٍ يذكِّرني ببيروت، أو ببيتنا القديم. أردتُ أن أنسى كلَّ شيء، وأن أنتقل بالفعل إلى عالم جديد. استرقتُ النَّظر إلى الصناديق الواردة ثمَّ أقفلتها من جديد. من حسن الحظ، أنَّ البيت كان فسيحًا أيضًا يتَّسع لها كلِّها. ولحسن حظِّي أنَّ أغراضي الشخصيَّة كانت في صناديق خاصَّة بها. أسمعَتني كلامًا حول عدم جدوى إبقائها مقفلة وعن وجوب التصرُّف بها. مرَّت سنوات قبل أن أفتحها للمرَّة الأولى. تخلَّصتُ تدريجيًا من الأوراق والمجلَّات، ووزَّعت بعض الكتُب، واحتفظتُ بشرائح الصُّور كنتُ ألتقطها أحيانًا في بيروت وأحيانًا في أسفاري إلى اليونان وإيطاليا وفرنسا وسويسرا وبعض البلدان المجاورة لنا، حتى في فلسطين. لم يعُد يُعجبني الكثير منها، فصرتُ أختزلُ من المجموعة شيئًا فشيئًا. استغنيتُ عن قسم كبير، رميتُ به في الصناديق، فأصابته الرطوبة وما لبث أن أتلف كلّه. من بين ما احتفظتُ به صور كنتُ التقطتها في الحيّ، عندما شُلَّت حركتنا وامتنعنا عن التجوال شرقًا. صورٌ من الكورنيش البحريّ. صورٌ من البار القريب. وصورٌ من الدُّكَّان خلف البيت.. ترى منها اليوم نموذجًا على الموقع. أمَّا الباقي، فلا يزال محفوظًا وسأرفعه عمَّا قريب.

عودتي إلى هنا لم تُحرِّك فيَ أيَّ إحساس أو رغبةٍ بقلب الأحداث. أبدًا. ذاكرتي ليست مرتبطة بموقع واحد، بل هي تمتدّ عبر المسافات والأحداث والشخصيَّات. هربتُ من اكتظاظها، فلجأتُ إلى واحةٍ جديدة صنعتُ حدودها من هوايتي التي اخترتها مهنةً لي منذ غادرتُ أميركا عائدًا. ما ضاع منّي هو الصُّور. سلسلة الصُّور، التي لو بقيت لشكَّلت اليوم مجموعة استثنائيَّة بتناغمها وتركيبها وقيمتها التوثيقيَّة والفنِّيَّة.

«لهذا، أنا حزينٌ بعض الشيء اليوم»، قلتُ له.

ثمّ أضفتُ ممازحًا «حذارِ أن تدعوني بالنوستالجي».

بدا كأنّه لم ينتبه لآخر تعليق. ظلَّ مركّزًا على ما كتبتُه أعلى المحادثة.

أنت تقول إنَّ الصُّور لا تُفقد.

نعم.

وإنّك إذا فقدت شيئًا بحثت عن أسلوبٍ لاستعادته، عبر الصُّور أحيانًا.

نعم، هكذا بدأنا حوارنا. لقد صمّمت على تحضير مشروع سلسلة صور، سأسمّيه احتفاليّة المفقودات.

سألني ما كان اسم سلسلة الصُّور القديمة.

بالإنكليزيّة «شيلز Shells»، أجبته، أي الصّدف بالمعنى الأوّل. عنوان أردت فيه لعبًا على الكلام.

«والمعنى الآخر هو الشّظايا؟» كتب لي.

أجبته بنقطتين وهلال. ابتسمتُ بعدها من خلف شاشة الجهاز.

أنهيتُ الحديث مع طالبي السّابق، والتفتُّ نحو السّاعة. السّادسة تمامًا.

سأغفو دقائق معدودة. بعدها أقوم لأفعل شيئًا ما. قد أستحمُّ من جديد.

لم تنقطع سارية عن الدير الأزرق، هي أيضًا. مشاهد وصور تحتلّ أحيانًا أماكن بعضها بعضًا، تبرزُ الأخيرة منها بالترتيب الزّمني، ثمّ تعود وتطفو أخرى ركّبها راجي بلسان الآخرين من أزمنةٍ لم يعرفها.

لم تنقطع سارية عن قرية الدّير، بالرّغم من صعوبات التنقّل الكثيرة بين المناطق سوى لفتراتٍ وجيزة. ذكّرها راجي بتلك الحقبة يوم مكثت خالتها فيوليت معهم في شارع ليون طيلة فترة حرب الإلغاء، التي أنهكت المنطقة الشرقيّة مدّة عشرة أشهر. أصرّت سارية سنتها أن تصطحب خالتها إلى بيتهم في بيروت الغربيّة، قبل المعارك، لتجري فحصًا لعينها بعد أن عانت من ألمٍ حادٍّ لم يهدأ إلّا بتغطيتها بقطعة ثلج. قصدتها عشية رأس السنة مستقلّة سيّارة رامز الحاج من مسلميّ القرية المقيمين في المنطقة الشرقيّة عند سواحل المتن. اجتازت المعبر من البربير للمتحف سيرًا، واستقلّت بوسطة للنقل المشترك أنزلتها عند مستديرة الدورة، حيث أوصلها رامز بانتظاره. لم يكن يتنقّل بين المنطقتين، بل كان يُجاهر بتحيّزه لمنطقة إقامته وبنفوره من بيروت الغربيّة وضواحيها. يعمل على خط الدورة العاقورة في جرود جبيل مرّتين أو ثلاثًا في الأسبوع ليس أكثر، ويتشارك مع أحد أقربائه إدارة مصلحة حدادة للسّيّارات في حيّ النبعة. يُشدّدُ في حديثه أنّه يخشى الذهاب إلى الغربيّة حتى سيرًا على الأقدام، وأنّه إذا اضطرّ لذلك لسببٍ من الأسباب، فهو لا يطمئنّ إلّا عند اجتيازه ساحة الأعمدة عند اخر حاجز لجهة الشرق للحدود بين شطرَيْ العاصمة. يتنفّس الصعداء وهو يسرد الرواية. سمعتها سارية منه مرّةً سابقة أو ربّما أكثر. يستأنفُ حديثه بنبرة العارف، ويدعو مستمعيه من سكّان بيروت الغربيّة خصوصًا إلى أن يقيموا جدول مقارنةٍ عادلة بين ما تُقدّمه المنطقتان من خدماتٍ وأمنٍ، وأن يختاروا الأنسب، بحسب تعبيره.

تعسّرت المخابرات بين المناطق، وانحصر استخدام خطوط الهاتف النادرة في القرية باستقبال بعض المكالمات من السّواحل القريبة ومن بعض أحياء شرق العاصمة، ما دفع سارية إلى استنباط حلول بديلة للتواصل مع فيوليت أو الإطمئنان عنها. قصدت ملحمة شوقي، شقيق رامز الحاج، في محلّة السان سيمون، حين شعرت بضرورة الاتّصال بخالتها مبلّغة إيّاه فحوى رسالتها إلى فيوليت. اتّصل بأخيه في النّبعة من هاتف المطعم القريب، فحظي بإجابة من دون انتظار يُذكر على السماعة. عاد رامز ككلّ مرّة ليتّصل بصاحب الدّكّان أوّل القرية، ليُبلّغ الرّسالة، أو ينتظر

يوم صعوده إلى الدّير الأزرق ليقصد فيوليت في بيتها قرب القلعة آخر الطريق.

قصدت ملحمة الحاج بعد يومين على الميلاد. بشَّرها أنَّ رامز يُكثر من تنقُّلاته من وإلى القرية، لتصليحات يجريها على مستودع في الجوار. الطقسُ جيِّد، والثلوج سقطت مرَّةً واحدة منذ أسبوع. غطَّت قشرةً بيضاء نحيلة حفافي الجنائن، ما لبثت أن تلاشت بعد أيّام قليلة. ظلَّت الطريق سالكة في النّهار، وتخوَّف السّائقون القلائل ممَّن يسلكون طرقات المنطقة من تشكُّل الجليد فوق أكواع المشنقة. بلَّغ شوقي أخاه صاحب سيّارة المرسيدس الزرقاء عند حلول المساء عن جدّيَّة طلب سارية، وأكَّد له أنَّ إبنة ميخائيل ليس لها غيره في منطقة بيروت الغربيّة.

قصدته مجدَّدًا صباح الثلاثين من شهر كانون الأوّل.

«غدًا، ينتظركِ أخي رامز عند المستديرة أمام المصرف، عند السّاعة الثامنة بالتّمام. أنت تعرفينه لن يتأخَّر» أعاد الكلام نفسه، وأكَّد أنَّ الطرقات سالكة، إلَّا أنَّ رامز ذكَّره بضرورة العودة قبل الثانية ظهرًا خوفًا من الانزلاق. ثمَّ أردف ممازحًا وقد قارب الدُّخول من باب الملحمة: «فليجرؤ رامز على التأخير دقيقة واحدة عن الثّامنة، سأذبحه على الفور إذا داست رجلهُ الغربيّة». جارته سارية في مزاحه، فابتسمت وابتسم جليل قربها مودِّعًا. انعطف بالسّيّارة عائدًا باتّجاه الحمراء متذمِّرًا من كثافة السّير في فترة الأعياد.

عبر رامز الطريق السّريع بثلاثة ركّاب، شاب جلس في المقعد الأمامي، وسيِّدة إلى يمين سارية في الخلف. كلاهما من قرية يانوح. قالت إنَّها تعرَّفت على المرأة البدينة من نبرة صوتها ولفظها الغليظ، لحظة تحيتها لها، ما أعادها أعوامًا إلى الماضي حين كانت تلهو خلال عطلة الصيف في باحة المدرسة الصيفيّة. ترجَّل رامز ودعاها للصُّعود إلى السّيّارة، بعد أن رحَّب بها، كما يفعل أخوه شوقي. هتف «أهلًا بالأقارب»، وفتح باب السّيّارة. لم تحمل معها سوى حقيبة يدها. حشرت في جيب منها ثمانية عَشر ألف ليرة. أربع ورقاتٍ نقديَّة من فئة الألف ليرة الزرقاء الجديدة، استلمتها عند الفجر من جليل في مغلَّفٍ ورزمةً من أوراق المئتين والخمسين ربطتها بشريط مطّاطي. وضعت وثيقة هويَّتها القديمة في محفظة بنيَّة تُقفل بسحّاب غليظ، وفي محفظةٍ أخرى أدخلت أوراقها الثبوتيَّة العائليَّة تُبرزها عند نقاط التفتيش للجهة الغربيّة. استأذن رامز منها ومن الراكبين الآخرين لاضطراره لقضاء أمرٍ ضروريّ في مكتب عقاريّ

قريب. مشى بخطى سريعة حاملًا مغلّفًا ورقيًا باليًا، ظهر أعلاه رمز الأرزة اللبنانيّة ومن تحتها «وزارة البرق». توارى عند بوابة حديد سوداء ألصقت عليها صورة الزّعيم الرّاحل.

لم يبدُ الراكبان على عجلةٍ من أمرهما مثلها، قالت. بعد ساعتين أو ثلاث كحدٍّ أقصى، سيتوجّب عليها أن تُبرِّر لفيوليت ضرورة قدومها حالًا إلى بيروت، وأن تُقنعها بمغادرة بيتها لمدّةٍ وجيزة مساعدةً إيّاها على حزم أمتعتها وإقفال الستائر والشّبابيك. ستتمسّك بها خوفًا عليها من أن تتعثّر بالأحجار المُنجرفة مع أمطار ليلة الميلاد على الدروب الوعرة، إلى أن تصلا إلى بيت عمّها بطرس. سوف يوصيان زوجة عمّها بالبيت ويأتمنانها على المفتاح، بعد أن تعلّل لهم سارية سبب هذا السّفر المفاجئ. لن تتوارى مع خالتها في بيروت وتنقطعا عن القرية، كما ستغمز زوجة عمّها، وستعود لتصطحبها بعد الفحوصات الطبيّة اللّازمة، إن قدّر اللّه، بعد أسبوعين على الاكثر. ستتّكئ فيوليت عليها تحسّبًا لتكوُّم الثلج في الزوايا المخفيّة لدرج بيت بطرس، وتسير معها نحو الدُّكّان أوّل الطريق المعبّد، حيث يركن رامز سيّارته. سيبتسم لهما من بعيد محيّيًا، وسينطلقان معه نحو معبر المتحف بُعيدَ السّاعة الواحدة.

تحفّظت عن الكلام كعادتها. سجّلت تحرُّكات السّيّدة قربها، تهمّ بتغيير وضعيّتها على الفراش الجلديّ الرثّ، تُصدر زمجرةً وتُقهقه عاليًا متذمّرةً من المقعد الضيّق. اعتدلت في جلستها، فحوّلت نظرها إلى سارية، وما لبثت أن همست «عارفتك ومش عارفتك». عاد رامز فصعد إلى مقعد القيادة، وأدار المُحرّك متأسّفًا لتأخيره البسيط. السّاعة الثّامنة وستّ دقائق. سأله الشابّ الثلاثينيّ الجالس في المقعد الأماميّ إذا ما تسهّلت أموره. ابتسمت سارية للسّيّدة بشيءٍ من الخجل والارتباك، ثمّ ما لبثت أن تشجّعت، واعتمدت جوابًا كانت أعدّته من قبل بأنّ جميع من في المركبة من أهل الجوار، والجميع أقارب. راهنت سارية على اكتفاء السّيّدة بالإجابة تلك. لكنّها انحنت قليلًا واضعةً يدها اليسرى على رجلها: «عرفتك! أنتِ التي تزوّجت المُسلم أليس كذلك؟». سمعها الإثنان في المقعد الأماميّ بالرّغم من جلبة الطريق وازدحام المستديرة والجسر من فوقها. عالج الشابّ في الأمام الأمر بضحكةٍ، ليخرج من الإحراج الذي فرضته السّيّدة بسؤالها وهم جميعًا برفقة سائق من أقليّات منطقتهم الجرديّة. حارت سارية أمام سذاجة المرأة التي أعادت وأصرّت على السّؤال نفسه بنبرةٍ جعلتها أعلى: «يا عمّي، ألستِ أنت إبنة المرحوم ميخائيل وزوجك مسلم

من البقاع؟» انفجر الرجلان ضحكًا لسؤالها المُتطفِّل، وكبتت سارية ضحكتها مطأطئةً رأسها إيجابًا. تعجَّبت السَّيِّدة لردَّة فعل رامز والرَّاكب الشاب إبن قريتها، مستفسرة عن الإثم الذي ارتكبته بسؤالها: «يا جماعة، أش قلنا؟» غمز رامز سارية من المرآة قبالته تواطؤًا. ساد طيلة الرِّحلة جوٌّ طمأن قلق سارية، وأنساها ثقل واجباتها المُنتظرة عند وصولهم إلى القرية ولقائها بفيوليت.

كان لكلِّ عائلة وبيت في القرية مرجعيَّة واحدة، بحسب الرواية التي حفظها راجي، رجلٌ أو امرأة يُمثِّل أهله في المناسبات الإجتماعيَّة وفي العلاقات الودِّيَّة بين أبناء الجوار القريب. وحده بيت ميخائيل والد سارية بقي خارج هذه المُعادلة. فالصَّداقة التي ربطت الرجل الأربعينيَ بأبناء السَّاحل إبَّان عمله في متجر الحبوب في حيِ النَّهر، أبعدته عن أخويه بطرس وسليمان، حتى إنَّه لم يعُد يُذكر في الحسابات والواجبات الاجتماعيَّة. في الأحزان وفي الأفراح، يتصدَّر بطرس وفد عائلتهم الصَّغيرة، يليه سليمان ومن ثمَّ أولادهما الذكور سيمون وجاك وأمين من جهةٍ وجهاد من جهة سليمان الأخ الأصغر. حتى عندما يحضر ميخائيل إلى بيت العائلة، أو إلى بيته الذي شيَّده قبل وفاة زوجته الأولى وداد، يبقى مشهد رحيله إلى بيروت وابتعاده عن أجواء القرية وطقوسها طاغيًا. حزم بعض أمتعته، وغادر البيت أواخر الأربعينيَّات. قصدَ إبن الصقر صديقًا له من البلدة القريبة في محلَّة الجعيتاوي خلف مطرانيَّة الأرمن، شهرًا قبل رحيله، ثمَّ أوعز له أن يحضر إليه إلى بيروت علَّهما يرحلان معًا إلى أميركا، عند أقرباء لهم من جرود المنطقة. جاء إلى بيروت بمبلغ محترم، ادَّخره منذ توفي والده، وزاد عليه حصَّته من محصود السَّنة، لكنَّه ما لبث أن وُفِّق في بيروت بوظيفة في متجرٍ للحبوب في محلَّة النَّهر أبعدت عنه فكرة السَّفر مؤقَّتا. بل إنَّه أعاد النظر تمامًا بهكذا خطوة تنفيه تمامًا عن أرزاقه وعن أمِّه المسنَّة. فآثر القبول بالعمل في طواحين بيت الأشقر براتب متوسِّط، بانتظار فرصة عملٍ وسط المدينة في أحد النوادي أو في دار سينما، أو حتى في مكتبةٍ كما كان يحلُم. أخذ يتردَّد على نجارٍ من بلدة الدَّامور السَّاحليَّة، يُقيم بجوار بيت الصقر عند درج ثكنة الدرك.

دَع السَّفر لأولاد الشمال يا ميخائيل، قال له نبيل النجَّار على مسمع من إبن الصقر، كما تقول الرواية. ودَع وسط البلد للأكراد ولتجَّار الرُّوم، فهم في كلِّ الأحوال يُفضِّلون المسلمين على جماعتنا. أراضيكم غنيَّة، ولا بُدَّ من العودة إليها بعد وقتٍ وجيز. أمَّا أعمال ومصالح السُّوق في البلد،

فهي لم تعُد مثمرة كما كانت في الماضي. ليس أمامك إلّا تدبُّر وظيفةٍ لك في جوارنا.

اقتنع بالعمل في الطواحين.

قضى عمله الجديد بأن يقيم إلى جوار محطّة القطار في محلّة مار ميخائيل. تشارك مع قريب لابن الصّقر من بلدته أعباء إيجار غرفةٍ في بيت حدّادٍ أرمني في شارع القبيّات. ثابر على الصعود إلى القرية أولى سنوات غيابه عشيّة كلّ عيد ميلادٍ، متحدّيًا الثلوج التي كانت تتساقط كثيفة أيّامها. تعرّف إلى زوجته وداد إبنة منطقته الجرديّة في بيروت. دلّته على طابق بيتها، حيث تُقيم مع والديها وإخوانها الشباب الأربعة في آخر الشّارع. شاهدها في متجر الحبوب، حيث أخذت تتردّد يومًا بعد يوم. تتأبّط كيسًا من القماش وترمي سلامًا بصوت عالٍ. «العوافي» قالتها مرّة، فذكّرته بأهل منطقته. لفتته بشرتها البيضاء وشعرها الأسود القصير مثل بعض من رآهنّ من سيّدات بيروت. سردت له بعض الرّوايات التي تُنسب لأهل المنطقة في الحي، وعن حرصهم الشديد على مصروفهم ومثابرتهم على ادّخار الأموال، حتى عندما تيسّرت أمورهم في العاصمة. أرسلتها والدتها لتتعلّم الخياطة على يد معلّمٍ من آل فليفل قرب حيّ المدافن. مارست مهنتها الجديدة من بعدُ لفترة سبعة أشهر في بيوت الميسورين من سكّان الحي. خاطت لهم ستائر الدّار، ورتت أكوامًا من الثياب، وطرّزت على أغطية الوسادات أشكال طاووس وسمكةٍ وحيوانات أخرى نقلتها عن عدد مجلّةٍ قديمة من مشغل معلّمها. أسرّت لميخائيل بحبّها للسينما ومطالعتها الدائمة لمجلّة الإذاعة. قصدا سينما الفاندوم يوم سبت، واستقلّا من بعدها الترام باتّجاه البلد، حيث تناولت وداد البوظة وجلست على حافّة البركة منتظرةً من ميخائيل أن يُبادرها بكلام رقيق. تزوّجا في المطرانيّة في حيّ الحكمة، بحضور والدته مريم وأخويه وأخواته وصهره قزحيا زوج فدوى أخته البكر. قَبِل به والد وداد على مضض، عندما استفسر عن عائلته وعن أملاكهم في الجبل. عاوده الشك حين علم أنّه سيُسكن زوجته في أيّام زواجها الأولفي بيت شارع القبيّات. عدّل ميخائيل عن خطّته الأولى، واستأجر بما ادّخره من المال بعد سنة من عمله، شقّة صغيرة في حيّ الجسر، أثّثها بغرفة نومٍ من موبيليا نبيل النجّار.

زارت وداد القرية أوّل زواجهما مرّات قليلة. أسبوعًا كاملًا أمضته مع حماتها مريم في بيت العائلة مع أبنائها بطرس وسليمان ولور وثريّا،

وزارت فدوى في بيت زوجها قزحيًا قرب النبع. راقبت ميخائيل مع معلّم الإسمنت يتشاوران حول سماكة أعمدة الأساس، وابتعادها الواحد عن الآخر. راحت فدوى تتباهى أنّ أخاها سيشيّد أوّل بيت من الإسمنت المُسلّح في القرية. بدا المبنى بجدرانه المطليّة باللّون الأصفر شبيهًا بأبنية بيروت، التي كان ميخائيل يمرّ عند أبوابها بالقرب من جامع الخُضر. حُدّدت نوافذه بحواجب نافرة مستطيلة الشّكل على خلاف بيوت القرية الحجريّة، ودُهنت الردّات الخشبيّة باللّون الأزرق الفاتح.

لم يتسنّ لوداد أن تسكن البيت عند انتهائه، بل كانت أقامت في الرّدهة الكبيرة في بيت العائلة أثناء الزيارة الصيفيّة الأخيرة. ولفرط ما أسمعها ميخائيل كلامًا أمام شقيقتيه عن وجوب الانتباه إلى حملها وحركتها المتثاقلة، قدّمت لها لور السّرير النحاسي في زاوية الدّار، وانتقلت ثريّا إلى بيت أختها الكُبرى قرب العين محتجّة بموسم الكشك الذي انطلق تلك السّنة من بيت صهرها قزحيّا. خلت لهما الغرفة، وبدأت مشاكل وداد الصّحيّة تزداد إلى أن استدعوا لها الطبيب من السّاحل، فزارها ليلة عيد سيّدة النجاة في الثامن من أيلول. أنجبت ابنتها الوحيدة في القرية، وفارقت الحياة بعد ساعة واحدة على الولادة. تحلّق أهل الجوار حول البيت وانسحبوا تدريجيًا نحو كنيسة مار قرياقوس أوّل القرية. اضطرّ كاهن الرعيّة إلى تعليق صلاة التأبين أكثر من مرّة تحت وقع نحيب والدة المرحومة وخالتيها. ثابر ميخائيل على تماسكه متوسّطًا أخويه، إلى جانبهم صهرهم قزحيّا، وحشرت النساء بعضهنّ في مقعد واحد وراءهم. أخذت فدوى تربّت على كتف أخيها الاكبر أمامها بضربات متتالية، واتّكأت أمّه مريم على الحافّة منهكة. أدار رأسه، فاستقرّ نظره عليها راكعةً متلفّحة بمنديلها الأسود. ذرف دمعته الأولى عندما شاهدها تحتضن البنت باكيةً، وتخيّل نفسه يعودُ إلى غرفته الوضيعة في بيروت بعد مراسم الدّفن تاركًا طفلته من غير إسمٍ ومن دون أمّ.. هكذا، إلى أجلٍ غير مسمًى.

انتفض بطرس على أثر الكلام اللّاذع الذي كان يصدر بين الفينة والفينة من جانب الكنيسة الأيمن، حيث جلست قريبات والدة وداد الثكلى. نساء من البلدة القريبة، عرف ميخائيل بعضهنّ ممن دخلن مكشوفات الرأس. انتحبن وكرّرن الكلام نفسه، كأنّهنّ أجمعن على إبلاغ رسالة واحدة إلى عائلة صهرهم.

كنتِ أميرة بِبيروت، أش رَجعِك عالفلاحة؟

صرخت أكبرهنّ، بينما كانت والدة وداد شبه غائبة في صلواتها. نهض والد وداد محاولًا احتواء الموقف، وقام من مقعد أولاده الشُبّان الأربعة، وسار خطوات قليلة تجاه عائلة ميخائيل. حشر نفسه بين صهره وأخيه سليمان، فانتصب بطرس واقفًا وأسند ظهره إلى الحائط خلفه. لم تكفِ مبادرة رجل عائلة الفقيدة، فظلّ رجال ونساء من أقارب وجيران بيت ميخائيل يتلقّون التُهم شمالًا ويسارًا من قِبل خالة وداد الكبرى، وقد أطنبت برثائها. انتظرت لحظات السكون، وراحت تعلو بصيحاتها مفتعلةً الإغماء:

يا بنت بيروت، حظوك بالتابوت! بالتابوووت!

كرّرتها وهي تتعمّد مذ المقاطع اللّفظيّة الأخيرة للكلمات، قاذفةً برأسها يمنةً ويسرةً، كأنّ مسًا من الجنون قد أصابها.

سمِع راجي أنّ فدوى عمّة أمّه كانت تُعيد تركيب الأحداث بحذافيرها، في كلّ مرّة روت فيها القصّة لسارية. تنطلق بخفّةٍ متناهية، كأنّها تمرّست بسرد تلك المأساة التي حلّت بهم وبأخيها الأكبر. أشبعت إبنة أخيها عتبًا وحقدًا على جدّتها لوالدتها وداد وعلى أخوالها الأربعة الذين تمنّعوا عن زيارتهم لسنوات طويلة، إلى أن كبُرت سارية والتحقت بالمدرسة الدّاخليّة في بلدتهم القريبة. حتى اسمها لم ينل رضاهم. فالاسم لم يُعجبْ أساسًا أفراد أسرة أبيها. تناقل رجال القرية والنساء من بعدهم أنّ ميخائيل اختار الاسم لابنته تيمُّنا بسوريا والحزب القومي، نكايةً بميول عائلة وداد السياسيّة. أمّا بطرس، فتكهّن أنّ أخاه يُنفّذ عهدًا قطعه بالابتعاد النهائي عن القرية وعاداتها. وعوضًا من أن يُطلق عليها اسم أمّه مريم أو ماري، كونه الإبن البكر، فقد اتّجه إلى اسمٍ عروبي لم يقع على مسمع أيٍّ منهم من قبل. لكنّ بطرس عاد وفرح في قرارة نفسه، وآثر القول إنّ أخاه الأكبر أفسح له المجال هو أن يحمل اسم العائلة ما إن يتزوّج ويُنجب. يُطلق اسم والده المرحوم سمعان منقولًا إلى سيمون، أمّا إذا رُزق ببنت فيُسمّيها ماري. هكذا، يترسّخ امتيازه كحاضنٍ للعائلة ووصيٍّ على أرزاقها وعلى اسمها، خلافًا للأخ الأكبر الذي هجر القرية إلى بيروت وتزوّج امراة من العائلات التي سوحلت هربًا من الفقر والأرض ومسؤوليّاتها. سيصون اسم عائلتهم الصغيرة، وسوف يسعى أن يُمثّلها في المحافل وبين أعلام المنطقة، وفي كلّ لقاءٍ ينظّمه الحزب في البلدة القريبة.

تتلكأ فدوى في تفصيل القصّة الثانية التي ستطبعُ اسم ميخائيل بسوء الحظ لمدى بعيد. أوصى ميخائيل أخته الكبرى فدوى بسارية.

نذرتها لسيّدة النجاة التي أنقذتها عند ولادتها، واحتضنت أمَّها في السَّماء. عاد إلى حي الجسر في بيروت. أرهقه العمل وخفَّت عزيمته على الحراك. أكثرَ من المشروب في بعض اللَّيالي. اشتاق إلى أهله، فبات يتَّصل بمركز الهاتف في البلدة في بعض اللَّيالي. يتفوَّه بكلماتٍ متقطِّعة بصوتٍ مرتجف. أبلغ عامل الهاتف أخاه الأصغر في قرية الجوار حالما رآه في السَّاحة. لم يعد أخوك يقوى على البقاء وحيدًا بعد ترمُّله. نهشته العزلة في بيروت.

حتى هو لم يقتنع أنَّ والدة وداد وحدها بوسعها أن تأخذ على عاتقها تربية طفلته. قصده حموه أكثر من مرَّة. خلُص لقاؤهما إلى أن تُمضي البنت الشتاء المقبل مع جدَّتها لأمُها في بيتهم القريب، فيمرّ ليراها عند كلِّ مساء. أمَّا في الصَّيف، فيعود بها ميخائيل إلى قريته في جرود بلاد جبيل.

تمَّ الاتفاق بمباركة صهره قزحيا وأخته فدوى، على الرّغم من تعلُّقها الشَّديد بالبنت. هكذا كان إلى أن تعرَّض ميخائيل لحادث الترامواي عند كاتيدرائيَّة مار جريس، وشُلّت رجله اليسرى. تذرَّع السَّائق بعدم التزام ميخائيل بوجوب التراجع عند مروره بحسب الرواية. أطلق زمُوره من دون جدوَى، فارتطم بالرجل الأجعد الشعر وقد بدا مخمورًا بحركته. أمضى أسبوعين كاملين في عناية مستشفى الكرنتينا. زاره والد وداد مع إبنه سركيس وصديقه ابن الصقر. تذرَّع أخوانه بطرس وسليمان وأخته لور أمام أمّهم أنَّهم يقصدون بيروت، لينطلقوا من هناك مع شقيقهم البكر إلى دمشق. أحجموا عن حمل سلَّة خضارٍ كانت قد حضَّرتها مريم، واكتفوا بحقيبة ملأتها لور بشراشف وبياضات.

تُكملُ فدوى سرد روايتها لتصل للشق الذي كانت تترقَّبه سارية، كما أسرَّت لراجي كلَّما تردَّدت القصَّة على مسامعها. تطلَّب علاج الجرح أسبوعين كاملين، لم تبارحه خلالها فيوليت الممرِّضة. أحبَّت ميخائيل، كما لم يُحبّه أحد، كما تقول فدوى. روى لها عن توقه للسَّفر وخشيته من عزلة القرية. أخبرته عن عائلة أبيها الوافدة من مدينة ماردين في الأناضول، وصفت له حيَّهم في المصيطبة، وعلَّمته كلمات بالسّريانيَّة ذكَّرته بكلام الكتاب المُقدَّس. جذبه صوتها الرَّقيق تلفظ إسمه ميخائيل من دون إمالة الألف، كما يلفظه هو أو غيره من أهل المنطقة. هدَّأت من روع لور، وبادرت وجالستها على طرف سرير شاغر، ثمَّ ترافقتا نحو الحديقة الخلفيَّة تتسامران. أفاضت لور بوصف حزنها على ميخائيل وحظّه البائس في المدينة، منذ ترمُّله وتيتُّم ابنته الوحيدة. ارتاحت إليها، واسترسلت

بأسئلتها عن شغلها في المستشفى وعن بيت والدها في حيّ المصيطبة. أعادت إسم الحيّ مرّتين في ذهنها قبل أن تستعيده في الحديث. سألتها إذا كانت قريتها بعيدة، ظنًّا منها أنّ المصيطبة خارج المدينة. جارَتها فيوليت في جهلها لأحياء بيروت مجيبةً أنّ حيّهم، حيّ السّريان، يُشبه فعلًا القرية مع أنّه قريبٌ من وسط البلد. سألتها عن السّريان الأرثوذوكس وعن عائلات روم بيروت من أقارب أمّها. كلّما سألتها لور سؤالًا كانت تُخرجها من حيرتها، فتُسارع بالإجابة عن طقوس الصلاة، والفارق بين كنائسهم وكنائس الرُّوم والموارنة.

تغيبُ فدوى في ضحكةٍ طويلةٍ عند هذا المقطع من الرّواية، ما إن تسترجع صور أختها لور بعد عودتها إلى القرية متأثّرةً باهتمام فيوليت بأخيها الاكبر. تُعدّد مزايا فيوليت، وتستهجن ما تعلّمته عن الرُّوم وعن السّريان، كأنّهما فئتان لم تسمع بهما من قبل.

«يا ابنتي، بيروت كلّها روم وسريان» تزجرها أمّها مريم، كأنّها عالمة بأمور المدينة.

«كأمّي أنا بهالجرد محسّبة في بس موارنة ومتاولة بهالدني» نسبة للأقليّة من المسلمين الشيعة في قريتهم وفي المنطقة.

انتظرت فيوليت رسائل ميخائيل منذ عودته إلى القرية، تقول سارية. أعرب في أوّل رسالةٍ عن امتنانه لمعاملتها الفاضلة، وأكّد مطمئِنًا أنّ شقيقتيه العزباوين لور وثريّا تقومان بالواجب وأكثر، بل وأنّه عاد ليشعر بالدفء بعد السَّنة المريرة التي قضاها بين وفاة زوجته وداد وحادث الاصطدام المشؤوم.

لن يعود إلى بيروت من بعدها. سيمكثُ في القرية، ويُسارع إلى تركيب النّوافذ الخشبيّة وتجهيز المطبخ بحوض وخزائن. سيسعى أن يشتري طبّاخًا على الغاز. لن يكون بيته الصغير مختلفًا عن بيوت بيروت. بيتٌ صلب من الإسمنت المسلّح والخفّان، غرفة شتاءٍ وغرفة للمنامة، ومطبخ وبيت خلاء متّصلان بالبيت.

تعلّقت سارية بحذافير قصّة انتقال فيوليت إلى القرية. تسرح في خيالها وهي تستمع لخالتها، زوجة أبيها، في جلسات الصّيف قبيل زواجها من جليل. تجلسان على الصوفا أمام البيت، حيث منضدة الخشب. تضع فوقها فيوليت علبةَ الحلوى المعدنيّة، وتُخرج منها قصاصات الورق والصُّور القديمة. تنشرح سارية كلّما راحت فيوليت تقرأ لها بصوتها

المرتجف أبيات الشعر التي راح ميخائيل ينظمها على ورقٍ زهريّ. يكتب شعره بالعاميَّة على ورقةٍ صغيرةٍ منفصلةٍ، يزجُّها في ظرف الرِّسالة، وكأنَّه يخجل من البوح بمشاعره بين سطور الأخبار والكلام العابر.

قرأت لها فيوليت بعض الأبيات، كان دوَّنها ميخائيل في رسائلهما الأسبوعيَّة.

«لو عنّا بضيعتنا مواج، من بَحرِك لَنلمّ اسرار

ولو عندِك سَجرة وسراج، من صَوبك توميلي خبار»

تحبس غصّةً، وما تلبث أن تعاود البحث بين الأوراق والصُّور المُبعثرة. تقع على قصاصة أخرى أرَّخها ميخائيل بقلم الرّصاص، في السّادس والعشرين من شهر كانون الأوَّل.

«بيتِك بالجنَّة صار، باب شبابيك ومونِة

من صوبِك ناطر عَ نار، صورة إشكِلها قونِة»

تنهض ما إن تلمح ميخائيل قادمًا آخر جلّ التفّاح، يقذف بثقل جسمه أمامه نحو البيت. تُعيدُ العلبة إلى خزانة الغرفة متوخّيةً ألّا تُثير إحراجه أمام ابنته سارية، المقبلة على الزَّواج من جليل بمباركته.

درَّبت سارية نفسها على ألّا تنسى. لم تُفرّط بأيٍّ من أوراق ذكرياتها، ولا بما وردها عن قصَّة خالتها زوجة أبيها على لسان عمَّتها فدوى، ولور من بعدها. حضنتها فيوليت وواكبتها في سنيّ دراستها في المدرسة الدّاخليَّة، ومن ثمَّ في ثانويَّة البلدة القريبة، ثمَّ شجَّعتها مع والدها ميخائيل أن تنزل إلى بيروت إلى بيت جدَّتها ربيعة لتلتحق بكلِّيَّة الآداب. ائتمنتها على الرواية، فصانت الوعد وسردتها كما هي، مشهدًا خلف مشهدٍ. كالأقصوصة النّاصعة في زمنٍ رماديٍّ ملبّد.

ظننتُ أنّ الصّوت الذي صدر من الجهاز كان مرتبطًا بتسلسل أحداث المنام الطويل.

جميعنا جالس في غرفة المدخنة في فترة الصّيف. هرجٌ ومرجٌ في أنحاء البيت الواسع. بعيدًا عنّا. النّور مسلّط نحو الفجوة. الوقت متأخّرٌ في اللّيل، وكلّ من الموجودين بيده كأسٌ من النبيذ. تعرّفتُ بينهم على نايجل وعلى فتاة أخرى نسيتُ اسمها. كلاهما إنكليزيّان. «جاين» كان اسمها على ما أظنّ. هو يرتمي بخفّته رغم تقدُّم سنّه قياسًا بأعمارنا داخل الفجوة. «هكذا علّمونا في المدرسة» يقول لنا صائحًا. نقفز كالجندب تحت الطاولات إذا ما سمعنا انفجاراتٍ قريبة من دون أن تُطلق صفّارات الإنذار قبلها.

رمى بنفسه في الفجوة فعلًا. جلس القرفصاء. دعا الآخرين ليحذوا حذوه. «إنّها نظيفة» قال. تبعته مشجّعًا الآخرين. كنت أنحف وأخف من اليوم بطبيعة الحال. جميعنا كان أنحف من شباب اليوم. خرجتُ من الفجوة، فدخلت جاين من بعدي، ثمّ بريدا وفاليري. وغيرهم ربّما، في تلك الجلسة. منهم دايزي شقيقة فاليري التي أتت لتزورنا. صوّرتهم جميعًا. الكلّ بدوره.

«كفوا عن اللّهو قليلًا» صاح بهم نايجل، «أعطونا ملامح قلقة» قالها، كأنّه فهم قصدي. ثمّ وثب هو من بعدهم مجدّدًا. خلع قميصه. ضحك الاخرون. الموضوع بات جدّيًا، وبدأت أقتنع أكثر فأكثر بذلك الإخراج.

«من يريد القهقهة، فلينتظرنا في الصالون» أمرهم نايجل. انسحب قسمٌ منهم. خلع نايجل كلّ ملابسه. خجلت دايزي، ثمّ تحمّست. انسحب راوول الشابّ الفرنسي. ظلّ نايجل مراقبًا وقد ارتدى سرواله. دخلت فاليري. أعدنا الكرّة مرّة أخرى، حين احتدمت المعارك. انضمّت إلينا صديقة جاين، فأخرى فأخرى. انضم معارف لبنانيّون وعرب، اثر بعض الشُّبّان فيهم على إبقاء بعض ملابسهم، بينما اختلف الوضع مع النساء. لما اشتدّت المحنة صيفًا، أعدنا الكرّة من جديد حتى صارت ليالي السهر جميعها في بيتنا. يأتوننا بالسندويشات والمشروب. حبّذت فاليري الفكرة، وحمّستني على نشر الصّور في مجلّات عالميّة كنت بدأتُ مراسلة إحداها. رحل الكثيرون. طالبوا بصورهم، وحصل البعض منهم عليها، وسافر الاخرون برًّا من دون أن يتسنّى له أن يودّعنا. صرنا

ثلاثة أو أربعة. قال نايجل إنَّه لن يغادر لبنان قبل أن يُقتل سفيرهم. ضحكنا لسخريَّته. انتهت لعبتنا. ضعنا في أنحاء الكون، وتاهت عنَّا الصُّور.

كنتُ إذًا أتأرجح بين النوم واليقظة. لم يكن منامًا. عادت الصُّور إلى ذهني، فانغمستُ بإحساس الإثارة الأوَّل الذي علق في خيالي. إثارتي لرؤية الجميع في عريه يحتمي داخل الكوَّة الحمراء، وحماسي بتحقيق مشروع تصويريّ متكاملٍ أنشر أجزاءً منه في مجلَّات العالم. ساعدني نايجل على عنونة السلسلة. الصُّور المُقاوِمة من بيروت كان اقتراحه الأوَّل. ثمَّ كان أن اتَّفقنا على «Shells» أو شظايا. ثمَّ عاد وساعدني على الردّ على بعضهم، ممَّن استدرك وندم على فعلته متحجِّجًا بفعل المشروب أو غيره...

«لن تُتلِف أيّ صورة»، قال نايجل بحسمٍ.

«لن أنشُر صور من يهدِّدني، أجبته. سأنشُر صورك وفاليري ودايزي وآبو، وربَّما رائد وكريستينا، لم يمانعا حتى الآن»

لم يُنشر شيء، وظلَّت شرائح الصُّور الأصليَّة في المغلَّف. مات نايجل بعدها بسنوات، ظلَّ مصمِّمًا فيها على البقاء في بيته في شارع بلس. غلبنا الخوف، وقرَّرنا الرَّحيل.

«لم تعُد المدخنة تتَّسع لكما»، كتب طالبي.

استحسنتُ ما كتب. فتحتُ زاوية الرُّموز، وأرسلتُ رمز أوكي للاستحسان.

السَّاعة ناهزت السَّادسة والنِّصف. مرَّ نصف ساعةٍ بين الحلم وبين التذكُّر وبين مكاتبتي الأخيرة مع طالبي السَّابق.

نهضتُ متَّجهًا صوب الحمَّام. هذه آخر مرَّة أستحمّ فيها اليوم، قلتُ لنفسي.

وصلت فيوليت إلى بيت شارع ليون.

الصّورة منقشعة المعالم.

استلقى راجي أرضًا أمامها على السّجّاد في الغرفة التي ستشغلها لفترة حرب الإلغاء الطويلة. اتّكأت بجسمها النحيل على طرف السّرير واضعةً يدًا على يدٍ، كأنّها تتأهّب للرّحيل من جديد. رسمت ابتسامةً على ثغرها، فاغرورقت عيناها الزرقاوان في ضحكةٍ متلألئة كمن تستجمع قواها بعد السّفر المضني واجتياز المناطق من أعالي الجرود إلى ساحل المنطقة الشرقيّة، فمعبر المتحف سيرًا على الأقدام نحو بيروت الغربيّة. انبرت تضربُ الأرض بقدميها ضرباتٍ منتظمة وهي تبحثُ في فضاء الغرفة عمّا يوحي لها بالطمأنينة في غربتها عن بيتها البعيد، ليستقرّ نظرها في آخر المطاف على شراشف السّرير مطويةً عند حافّته. اشترتها مع سارية من تاجر أرمني في آخر سوق الجميل بسبع عشرة ليرة. نسيت لوهلةٍ أين هي واختلطت الأوراق في ذهنها، فظنّت لبرهةٍ أنّها في بيت أختها فيرا. ثمّ عاد صوت راجي ليوقظها من سُباتها، فتحوّلت عيناها نحو الحقيبة الجلديّة عند قدميها، ومنها إلى راجي الممدّد على السّجّاد مثل هرر الشّتاء.

استمالها صوت راجي بسؤاله عن رحلة الطّريق من القرية إلى بيروت الغربيّة ومن ثمّ عن حمل الحقيبة، وإذا ما فُتّشت عند المعبر أثناء مرورها على الحواجز الأخيرة كما جرى معها في مرّات سالفة. اجتاز صوتها الخافت جلبة سيّارات الحي والمولّدات الكهربائيّة الموزّعة على شرفات بعض البيوت من المستأجرين القدامى. مدّت يدها بثقل نحو جيب الحقيبة الخارجي. أخرجت مشطها من كيسٍ من النايلون بهتت ألوانه، وراحت تُسرّح شعرها الشّائب الطويل. حزرت ما أراده راجي عندما طالعها بسؤال عن التنقّل بين أحياء بيروت بين الأمس واليوم. بدأت بسرد قصّة ارتباطها بجدّه، متجنّبةً التطرّق إلى وفاة والدة سارية وداد زوجة ميخائيل الأولى. طالعته بأقصوصةٍ عن لعب ورق الشدّة في المستشفى في ساعات الرّاحة، وعن براعة زميلتين لها بلعبة الطرنيب. شتّت عن قصّتها الرئيسيّة، وعمّا كان يؤثر راجي إبن سارية سماعه عن مشاويرها، من وإلى وسط المدينة، من بيتهم في المصيطبة مرورًا بحيّ زقاق البلاط. استجابت لمطلبه، وعادت لتستفيض بشرحها متوخّية الدقّة بإعادة رسم مسار

مشاويرها مع شقيقتها فيرا. اصطحبته بحديثها من زاروب بيتهم مرورًا بسور المدرسة فدكّان آل الطّبيب، نزولًا صوب بطريركيّة الكاثولكيّين، ومنها إلى البلد. استأنس بسردها ودعاها إلى أن تتمهّل أحيانًا وأن تُحدّد له شكل أبواب الدُّكّان الخشبيّة أو ارتفاع الأبنية التي حدّدت شكل الطريق. تتردّد في كلّ مرّةٍ حين يُباغتها إبن سارية الصغير بهكذا سؤال. تستغربُ، ثمّ تُلملمُ كلماتها وتُعيد صياغة قصّتها التي لازمتها من عقودٍ، يوم تزوّجت من ميخائيل وانتقلت من بيروت إلى أعالي الجبل.

«كانت البيوت قديمةً، صغيرةً، متراصّةً في حيّنا، يتقدّم القليل منها حديقة لجانب الطريق. لم يكن بقي الكثيرُ منها، عندما زرتُ الحي قبيل مجيئكم إلى بيروت الغربيّة.»

يطأطئ رأسه امتنانًا على استجابتها. يُلحُّ عليه فضوله من جديد، فيطلبُ منها أن تتعمّق أكثر في وصفها.

«كانت قديمةً، سقوف البعض منها عالية، بيتنا نحن كان مؤلّفًا من غرفتين. عشنا فيهما أنا وشقيقتايَ فيرا وسليمة مع والديَ، وكنّا نتقاسم غرفةً من القصب على سطح البيت مع جيراننا من آل السِمري، استخدمناها حتى فترة مرض والدي ووفاته قبيل انتقالي إلى الكرنتينا. قد لا تذكرُ سليمة قبل أن تُهاجر إلى أستراليا، كُنتَ صغيرًا جدًا.»

قالتها وكأنّها تحسُم الأمر أمامه لتعفيه من محاولات التذكُّر. يتحرّكُ شيءٌ في داخله. كيف يُتّهم بالنسيان؟

«بلى أذكرُها، رأيتُهنّ هي وفيرا وجدّتي ربيعة في البيت الذي سكنه قرب مستشفى مار يوسف. جدّتي ربيعة جالسة على الفراش في غرفة استقبال، على وجهها علامات المرض، تُتمتم كلماتٍ مبهمة منتظرةً من يعاونها على الوقوف. كنتُ وحدي في الغرفة آنذاك، وجميعكنّ منشغلات بأخي فراس في المطبخ يطلقُ أنينه ألمًا من جرح في يده. شخصَت إليّ مبتسمةً يومها، كأنّها تُطمئنني، وعادت فوقفت بمفردها، وتقدّمت بجسمها النحيل نحوكنّ غير عابئةٍ بقميص نومها الذي علِق بسروالها الداخليّ الطويل.»

أصغت إليه صامتةً مترقّبةً نهاية سرده. نقل إليها تفاصيل الأحداث، عساها تُقلع عن لصق تهمة النسيان به بين الحين والآخر. ارتفعت نبرة صوته، وجحظت عيناه تأكيدًا على صدق ما يقول وجدّيته.

«إيه، إيه... أذكرهنّ جميعًا. لكنْ ماذا عن بيت المصيطبة قبل أن

تغادره أسرتك عشيّة الحرب؟»

واظب على سؤالها عن تفاصيل ذكرياتها، آملًا أن تتأثّر بدقّته فتتماهى معها. كانت رحلته الخياليّة نحو وسط بيروت الذي لم يعرفه في الواقع، تبدأ إمّا من طريق الجبل المُتعرّج تسلكه بوسطات زحلة نزولًا حتى البلد، أو من دروب رحلة فيوليت مع أختها فيرا من المصيطبة نحو باب ادريس. يمرّ مع جدّته بشجرة الغار وبحوض الأزهار الطويل. هكذا، كأنّه حفظ زوايا البيت. يلتفتُ إلى الأعلى فيرى ربيعة، والدة جدّته. يتخيّلها بثوب مزهّر شاهدها ترتديه في إحدى الصّور. أصفر كان ربما، أو أزرق فاتح، كما تكهّنت سارية يومًا وهي تُقلّب الألبومات القديمة. يصنع خلفيّة للقصّة من شوارع آمنة، نسج منها صورًا في ذهنه لبيروت قبل الحرب هذه. تعطّش لحبك الرّواية ولتزيينها ببيوتٍ وعماراتٍ ونوافذ مشرّعة على الطُّرقات.

استجمعت فيوليت بقايا صورها المبعثرة، فعاد إليها شيء من شكل البيت القديم.

«بيت أبو رزق حيث سكنّا نحن وآل السمري، كان قديمًا، سقفه عالٍ، ندخلهُ من ممشى ضيّق من الطريق العامّ، زُرعت في أحواضه بمحاذاة جدار البيوت المتاخمة نبتات الحبق والنعناع والأزاليا. في وسط الممشى، فسحة صغيرة حيث مدخل بيتنا وبيت السّمري تُظلّلها شجرة غار، قيل لنا إنّها من عمر البيت.»

توقّفت قليلًا، كأنّها تبحثُ عن كلامها، ثمّ تابعت:

«كنّا نلهو عند الأحواض في صغرنا مع صبيان بيت السّمري، ومع لوريس إبنة بيت أبو رزق في البناية خلفنا. نجتثُّ أوراق النعناع ونقطّعها بأيدينا في وعاءٍ نحاسي، ثمّ نجبلها مع التراب النّاشف والبحص الصغير، نجمعه من كعب جزع شجرة الغار لتشابه صحن التبّولة. نملأ فناجين القهوة بالمياه، ونستسنح فرصة خروج أمّي وجارتنا مارشا إلى السّوق القريب، لنضعها على طبق الخشب ونجلس خارجًا عند القناطر نحتسيها كالكبار...»

ابتسم راجي مستحسنًا قصّة جدّته. لا ضرر من الاستطراد هذا قال، إذا كان سيوصله في النّهاية إلى رسم صورة البيت والشّارع، ثمّ عاد فجاراها بالحكاية نفسها.

«نحن أيضًا... نحن أيضًا، كنّا نُقلّد الكبار أيّام الصّيف في الدّير

الأزرق. كنّا نتقاسم حصص الحلوى، تصنعها ابنة سيمون الكبرى من الوحل والشّعير، وتضعها في أطباق بلاستيكيّة ملوّنة. قد تذكّرينني تحت العريشة آخر ذلك الصّيف عند الدّرج المفضي إلى بيتهم، ألهو مع ابنتي سيمون ومع أطفالٍ آخرين، بينما تسلّى فراس عنّا مع فتيانٍ أكبر منّا انصرفوا إلى رمي الحصى في محقن المياه.»

صمت قليلًا، ثمّ أردف:

«هلّا ثبّتت الصّورة لديك لواجهة القناطر ومدخل بيت السّمري؟»

أدركت فيوليت أنّه لا بدّ لها أن تحتمي وراء صورٍ، حفظتها من يوم رحيل أمّها وأختيها إلى محيط مستشفى مار يوسف. تنهّدت عميقًا ماسحة أرجاء الغرفة بعينيها من جديد، يُراقبها راجي صامتًا. ثمّ تابعت كلامها.

«كان البيت بيتًا فسيحًا قبل أن يغادره مالكوه وينتقلوا إلى البناية القريبة المحاذية للحديقة الخلفيّة، قبل فترةٍ وجيزةٍ من انتقالنا إلى المصيطبة. فرزوا الدّار إلى وحدتين سكنيّتين للإيجار. أقمنا في الأصغر، واستقرّت عائلة بيت السّمري في الأخرى. عائلة من ثمانية أفراد، بينهم ابنة عازبة اسمها مارشا. أقاموا هم في الدّار وشغلوا غرفتيّ النوم، وعزلوا الممشى الصّغير المُفضي إلى المطبخ والحمّام ببابٍ خشبيّ. هكذا، كي يتسنّى لهم أن يفصلوا غرَفهم عن المساحة المشتركة بين الوحدتين، حيث كانت أمّي تجتمعُ بمارشا تتعاونان على تقريص كبّة العيد، وكنت أنا أعد طعام العشاء، وأضعه على صِدر نحاسيّ أحمله لوالدي فور عودته من مشغل الموبيليا. أتأكّد من موضع السلّم الخشبيّ تحت النّافذة، وأصعد الدّرجات بحذرٍ كي لا تنزلق منّي الصّحون، ثمّ أعود وأنزلُ على درجات من الإسمنت أضافها آل أبو رزق حين قسّموا بيتهم إلى جزأين يومَ مات الجد الأكبر، كما روت لنا هيلانة. أنطلق في دربٍ ضيّقٍ مستقيم يُحاذي السّور الخارجيّ، حيث نبتت عريشتان وظلّلته أيّام الصّيف. أنعطف يسارًا في آخره باتّجاه ممرّ المدخل الرّئيسيّ، أخفض رأسي تحت أغصان شجرة الغار، وأعودُ وأصعد درجةً واحدة لأدخل غرفتنا.»

رأى عينيها تغيبان شاردتين كلّما أشارت إلى تفصيلٍ من تفاصيل البيت، كأنّها بدأت ترسم الخريطة بذهنها، ثمّ تعودان من تلقائهما كلّما انسحبت روايتها صوب أخبارٍ أكثر بساطة. اعترضها مستوضحًا عن عمارة بيت أبو رزق المحاذية للحديقة الخلفيّة. سألها عن تاريخ بنائها، وعن شكل مدخلها لناحية الطّريق، وعن لون نوافذها الخشبيّة. شعر كأنّها تؤجّل وصف بعض التفاصيل عن قصدٍ ليزداد حيرةً، مطيلةً بذلك استعادتها

لحركتها هي ذهابًا وإيابًا من وإلى المطبخ في البيت القديم. تعجَّب كيف كانت تولي أولويَّة تذكُّرها لأسماء السُّكَّان المستأجرين عوضًا عن أن تحدِّد له شكلًا يرسمه على الورق. أفلحت بتخليص نفسها من إلحاحه، وجعلت تُغذِّي سردها بما ظنّته يشفي غليله.

«بوَّابة بنايتهم حديديَّة مطليَّة باللَّون الأسود، ولها مقبض مذهَّب. ما زالت كما هي إلى اليوم، ربّما. لم أزُر الحي منذ تركناه، فلم يعُد من حاجة لزيارته. حتى حين غادرت أمِّي وشقيقتاي البيت، أخذن معهنَّ القليل. فكلّ ما نملكه كان باليًا.»

توقَّفت عن سردها من جديد، ومدَّت يدها نحو جيب حقيبة سفرها الجلديَّة. تناولت مشطها الأسود من جديد، لامست أسنانه بإبهامها بحركةٍ سريعة كأنَّها تتفحَّصه، وانصرفت تُصلح خصلة من شعرها، كأنَّها نسيت أن تُسرِّحها من قبل. شاركها راجي في الصَّمت الذي رانَ عليها، وراح يُلاعب شراشيب السَّجَّادة إلى أن عادت وتكلَّمت.

«ما إن تدخل بهو الدَّرج حتى تطالعك صورة لمار جريس وتملأ أنفك رائحة البخور. كُنتُ تسمع أحيانًا عند الصَّباح صوت ماكينة الحياكة من سكَّان الطَّابق الأوَّل في فتراتٍ متباعدة ومنتظمة. وحين تفتحُ هيلانة، زوجة وريث بيتنا من آل بو رزق، باب دارها في الطَّابق الأرضي، كنتُ أسترقُ النَّظر متى رافقت والدي لدفع الإيجار على منضدةٍ خشبيَّة طويلة، لم أرَ مثلها إلَّا في مكتب مديرة المدرسة، زيَّنتها بساعة كبيرة وبتحفٍ مختلفة وعلَّقت من فوقها آلة البُزق. جئتها ذات صباح لفحص ضغطها بعد زواجي من جدّك وانتقالي إلى الدير الأزرق. فرحت بي فرحًا لا يوصف، وقالت لي: أنت مثل بنتي عايدة، أنت مثل بنتي عايدة...»

دمعت عيناها. لامست إحداهما بإبهامها، ثمّ ابتسمت وأكملت.

«وقفتُ عند الباب المسدود في غرفتنا الخلفيَّة مرَّةً أسترقُ النَّظر علَّني أجد مصدر صوت البُزق. تكهَّنتُ أنَّ عمِّي اسبيرو كان في غرفة نومهم، ربَّما أو في حديقتهم الخلفيَّة. سورٌ عالٍ يحجب النظر تعلوه نباتات متسلِّقة.... آخ، بيتنا هُدم كما تعلَم، وبقيت بناية بيت أبو رزق مكانها. هجرها أغلب سكَّانها بعد موجات الخطف المتكرِّرة. تغيَّر كلّ شيء.»

تفحَّص روايتها يُشذبها، فيقتض الفائض منها ويحتفظُ بالأساسي. يُعيب بعض وصفها ضبابيَّة في تناول تفاصيل الأمكنة التي لم تختبرها قال، أو تلك التي لم تلفتها أساسًا. لكنَّها تتدارك هذا النَّقص أحيانًا، وتعود

وتُثبّت معالمها بأن تنقل له شكل فتحةِ أو لون حائطِ أو درفة شبّاك. خلُص راجي إلى أنّ جدّته تحتفظ بالكثير، لكنّها تتسرّع في روايتها مرارًا، لقلّة احتكاكها بالمدينة من بعد قرانها بجدّه وهجرتها إلى جرود جبيل. أخبارها القصيرة أمتع من الطويلة. تلمعُ فجأةً من غير إنذار، كأنّها خرجت لحظةً عن النسيان، وتراءت لها الأشياء جليّةً كما في الماضي، لا كما اليوم الذي غادرت فيه أمّها وشقيقتاها البيت في السبعينيّات، بل مثل الأيّام الأولى قبل انتقالها للإقامة في المستشفى. أمهلها الوقت الكافي كي تكون راضيةً عن حذف الزّائد، وأن تختصّ في ما ترويه بما يشغله هو فقط.

قد تُصبح مهندسًا، تقول له. «ستبني عماراتٍ كثيرة. ما بالك تسأل عن شكل بيتنا. كان فقيرًا ومتداعيًا!»

أفرجت عن ضحكةِ بسيطة حرّكت تعابير وجهها. احتار بما يُجيبها.

«ألا تحبّين بيتك في القرية؟» قال لها ساعيًا أن يردّ على قولها بسؤاله.

«معلوم.... جدّك ميخائيل بنى بما ادّخره وما أنعمت عليه أراضينا في الجبل بيتًا جميلًا متواضعًا، أثثناه واهتممنا به قدر المستطاع، وعشنا فيه وربّينا أمّك خير تربية. ظلّ جدّك يفتخر بما أنجز، وبما حقّقته سارية بتحصيلها العلمي من البكالوريا إلى الجامعة وإجازتها في اللُّغة العربيّة. ظلّ مرفوع الرّأس أمام أهل القرية جميعهم، فخورًا بأبيك جليل، غير آبهٍ بنميمتهم واغتيابه في مجالس العائلة لغزل القصص حول زيجة ابنته من مسلمٍ زميل لها في الجامعة. عشتُ بمنأىً عن مساجلات أهل القرية والأقارب، إلى أن توفّي جدّك ميخائيل رحمه الله سنة بداية الحرب في أوّل الرّبيع.»

تذكّرت موضوع السّؤال. تابعت:

«بيت المصيطبة بناه جيل بيت أبو رزق الأوّل أو غيرهم ربّما. قطنوه لأعوام طويلة قبل أن يُفرزَ إلى شقّتين وأن نسكنه نحن. شعرنا فيه بالألفة، وأحببنا الحيّ وأهله من أمثالنا وغيرهم، لكنّنا لم ننتم إليه انتماءً كاملًا. كانت أختي سليمة ما تزال رضيعةً حين انتقلنا من الحوش قرب المرفأ، حيث كان يعمل أبي.»

كأنّها استعجلت باختتام حديثها. شردت عيناها من جديد، ثمّ قالت:

«لم ألحظ التفاصيل التي تسألني عنها، ربّما لأنّنا لم نشهد على بنائه، أو لأنّه لم يكن بيتنا لوحدنا. لكنّني أتذكّر البلاط المزركش الملوّن في كلتا

الغرفتين، وأذكرُ أيضًا هيلانة وهي تتباهى أمام أمّي ببلاط شقّتهم الجديدة خلفنا. موحّد اللّون والشّكل كان في كلّ أنحاء البيت كمرج زهورٍ، قالت. ولا يتخلّله سوى حزامٍ أسود رفيع عند الزوايا. فلا يحكمُكِ بلونٍ معيّنٍ للأثاث، أردفت لأمّي. ولا يجعل من الأرض فرجة على حساب اللّوحات والأيقونات التي لا بدّ أن تزيّن كلّ بيتٍ حديثٍ على حدّ تعبيرها. برّر زوجها اسبيرو استياءه من السّقف العالي في بيت جدّه القديم، بما يترتّب على السّاكن فيه من تعقيداتٍ في صيانة التجهيز الكهربائيّ وتكلفةٍ في التدفئة.»

بلعت ريقها، ثمّ نظرت صوبه تتهيّأ لقول المزيد، كأنّها التقطت خيط روايةٍ ضائعة بعد بحثٍ طويل.

«مرّة، زُرنا إبنة عمّ والدتي الصغرى حسيبة زوجة خليل صادر في بيتها الزوجيّ الجديد في حيّ الظّريف، يوم أحد الشعانين. قد تُعجبُك هذه القصّة. كنتُ في أوّل صباي. بدأتُ انتعال الكعب العالي، وقد آلمتني قدماي من طول المشوار بين كنيستنا وبيتهم. تهنا عن البيت، وبدأت أختي سليمة تئنّ. تريد العودة للعب مع آخر من أنجبته زوجة السّمري من أولاد. طالعتنا رائحة الدّهان من بوّابة المدخل، وحاذرنا ألّا نمسّ طلاء جدران الدرج كما أوصانا عاملٌ أرشدنا إلى بيت خليل. وطِئنا أرض دارهم في الطّابق الرّابع، فظهرت لنا صفحة بلاط أسود مطعّم بالحصى الأبيض الصغير، ونوافذ عريضة على طول واجهة ردهة الاستقبال الفسيحة، حيث أجلستنا حسيبة، وقدّمت لنا اللّيموناضة. كلّ ما في بيتهم كان غريبًا. حتى مفتاح الكهرباء شكله مربّع وملتصق بالحائط، على خلاف المفاتيح في بيت أبو رزق المستديرة والنّاتئة. كان خليل صادر أوّل من استأجر في البناية ببدلٍ مرتفعٍ، كما أسرّت أمّي لمارشا قبل زيارتنا هذه، وكنتُ أفتخرُ بصلتنا بحسيبة وبزوجها خليل، التي رحنا نوطّدها أنا وأمّي سنة بعد سنةٍ بزيارات منتظمة حتى بعد وفاة أبي. وكانت حسيبة تأتينا وحدها، فنستقبلها في دار بيت السّمري. شاهدنا البحر من شرفة بيتها يومها، ودلّني خليل بفرحٍ على البيوت القديمة أمامهم التي ستُقتلع بيتًا بيتًا كي لا تبقى سوى العمارة الجديدة مثل بنايتهم تمامًا على حدّ قوله. اليوم، نبتت البنايات واختفى منظر البحر. ولولا الحرب هذه، لما كان بقي بيتٌ من البيوت القديمة أمام بيت صادر عند سيزار. فالدّنيا تغيّرت والحرب بدّلت نفوس البشر...»

تروّى راجي قليلًا قبل أن يقول لفيوليت إنّه زار معها بيت أقربائها

في الظّريف، حيث تعرَّف بسيزار ابن حسيبة. استمع إلى أصغر تفصيلٍ في حديثه عن توريث الإيجار، والضغط الذي يخشى أن يُمارس عليه وعلى أمثاله من مسيحيِّي الحيّ. بلغها النسيان، قال. فصمت.

«سيزار بات وحيدًا مثلي أنا في القرية. عاش الحيّ في حلوه ومرّه. سيرحل عن ذلك البيت كما رحلت أمّي عن المصيطبة، وسنعتاد على كلّ أمرٍ وكلّ المصائب ريثما تنتهي الحرب اللّعينة هذه.» قالتها، ثمّ تنهّدت معلنةً نهاية هذا الحوار.

فرِح راجي ضمنًا أنّ فيوليت لم تشمل أسرته بموجة التغيير والتّرحال بين المناطق، فهي نسيت أن تتذكّر هجرته هو من بيت السدّ إلى بيت مانويل؛ أمّا هو، فقد انتزع الصُّورة تلك من خياله، وجعل يتآلف فقط مع ما يردِّه من أخبار ممّن عاصر أيّام السّلم قبل أن يولَد بسنوات.

كانت صناديقنا المشتركة تفرغُ تدريجيًا من محتوياتها.

لم يبق سوى صناديقي الخاصّة، ظلّت هكذا على حالها. جلسنا وانتظرنا رجوع المحامي. هي باقية في بيتها، وأنا! إمّا أعود إلى لبنان متى تحسّنت الأوضاع تمامًا، أو أنتقل إلى نيويورك إلى بيت أحد الأصحاب مؤقّتًا.

لم أدرِ لماذا راحت تسترجع ذكرياتها في العمل في بيروت، ورحلات نهاية الأسبوع، وسهرات الأصحاب والأيّام اللّاهية كما أسمتها. وعوضًا من أن أحنّ أنا إلى بلدي وإلى بعض أفراد عائلتي الذين تشبّثوا بالبقاء فيه، أخذت هي المبادرة لتعداد مزايا العيش في بيروت، وما يفقده من اعتاد على ذلك النمط من الحياة حين يغادرها بعد إقامةٍ طويلة. خلتُ أنّها تحثّني على العودة. أعوذ إلى البيت إذا استطعتُ، إذا كان ما زال مكانه، أو إذا سهُل اليوم التواصل من أميركا مع شاغليه الجدد ومع مالكيه. لكنّها بدت تتودّد بلطف زائد، بالرغم من الظرف الصّعب الذي كنّا نمرّ به. تصف المطبخ وموعد يوم الجمعة بعد الظهر المخصّص للطهي مع زميلتها بريدا. تتذكّر الكوريدور وقيامنا فيه أسابيع طويلة فترة حرب السنتين, قبل انتقالنا مؤقتًا إلى قبرص. الكرسي الهزّاز والشرفات الفسيحة, والمدخنة...

المدخنة كانت صلتي الوحيدة بشيكاغو, قالت. لم أر جدارًا من القرميد في بيروت أو لبنان إلّا في بيتنا في الحمراء.

المدخنة والصُور. الصُور الصُور...

يُلاحقني هذا المغلّف كيفما اتّجهتُ بأفكاري. يمينًا ويسارًا أرتطم بشظاياه. خلتُ أنّي لا أسهب في تفكيري, وظننتني منطقيًا وعقلانيًا لا أنجرّ خلف المشاهد الملبّدة, وأنّني باحثٌ عن غرضٍ واحدٍ. لن أجده على الأرجح, لكنّني سأستعيض عنه بمشروع جديد. لا، يبدو أنّي صرتُ مثلها في آخر أيّامنا معًا، تأخذني المشاعر والأحاديث إلى أماكن دفينة مختبئة, لم تكن ترى النّور من قبل.

أضحيتُ مثلها أتنقّل بين موضوع وموضوع, حتى يضيع الخطّ المستقيم الذي كنتُ قد رسمته لحياتي الجديدة. كم كنتُ أمقت الأحاديث والحوارات والجدل حول حكايات الآخرين! يُطلعني أحدٌ ما عن قصّة جرت مع أحد المعارف، على حدّ تعبيره؛ يدّعي أنّه تألّم وزار

الطبيب، ثمَّ اضطرَ لتغيير مركز عمله وإلى آخره.. حتى أتوه عن المعنى خلف الرواية كلّها. أنتج فلانٌ عملًا ثمَّ صدَّته الرقابة، فعاد واتّصل بشخصيَّة نافذة تدبَّرت الأمور، ثمَّ استقبله ابن فلان لمشاريع جديدة. كلّها قصصٌ وأخبارٌ وتشعُّبات لا تتَّفق مع منطقي، فلا أفهمها، وأستغرب أن يستطيع أيٌّ منهم أن يتابع مثل هذه الأحاديث...

أصبحتُ مثلها اليوم، كأنّي حدتُ عن الطريق العقلانيّ المرسوم في حياتي الجديدة. كانت أفكارُها دقيقة واضحة تغيَّرت مع رحيلنا، وازدادت ضبابيَّة. أصبحتُ مثلها قلتُ.

كتبتُها.

«اقتحمتْكِ بيروت من جديد»، قال لي.

«لا، ليست بيروت التي اقتحمتني...» كتبتُ كلامي من دون أن أكمل، تاركًا التأويل لمراسلي.

أوَّل ما لفتني إلى أنَّ ذهني ازدحم بالقصص هو تذكُّري لأسماء كنتُ محوتها منذ سنين. عادت تستولي على أفكاري. هكذا، منذ أتى أحدهم على ذكر صوري الضَّائعة. عدت إلى ذلك البيت راكضًا في أرجائه بين الكوريدور وغرفة الأورغ وغرفة المدخنة، ومحطَّات صغيرة أخرى بدأت تردني بوضوحٍ أكثر فأكثر.

«ليست عودتي إلى بيروت، لا. هو الفراغ بعد خسارة السنين»، كتبتها منهيًا حديثي.

عدتُ إلى الانتظار.

مرَّ بخيالي طيف اسم. جاكي، جاكي الذي تولَّى أمر تسليم مفتاح ذلك البيت إلى صديق له، رأيته مرَّةً أو مرَّتين. قضى جاكي من بعد رحيلي. ولم أعرف شيئًا بعد ذلك عن صديقه سوى أنَّه اتَّصل بشقيقتي الكبرى قبل أن تُغادر هي أيضًا لبنان بعد الحرب، ليسألها ماذا يفعل بأغراضنا الخاصَّة وبأثاثنا. قالت له أن يتصرَّف بها. حسنًا فعلت. ربَّما!...

مشهد سارية وهي تعزّل البيت هو نفسه في كلّ البيوت.

تعتلي كرسيًا لتتمكّن من تنظيف الرفوف وأعالي الخزائن والأثاث. ترفع الأغراض من كتبٍ وعلبٍ وأوراق لتمسح الغبار، ثمّ تعود تكدّسها صغيرها فوق الكبير بشكلٍ هرمي، فتتراكم كألعاب المكعّبات.

امتلأت سرورًا كلّما شعرت أنّها أتمّت عملها. راقبها تعتزم ترتيب المطبخ ذات مرّة.

صفّت أكوام الصحون فوق مجلى الرّخام، ومسحت الغبار عن كلٍّ منها بخرقةٍ بالية. أفرغت القسم الأسفل في الخزانة البيضاء من علب الكرتون الملوّنة، نفضت الصالح منها من الغبار، قلّبتها واحدة واحدة، ونقرت كعبها بطرف يدها فوق كيس المهملات في زاوية المطبخ. اجتزأت المهترئ منها، وقذفته نحو الأسفل، وحشرت العلب المتضرّرة في السليم منها. خضّصت خرقةً من القطن للتنظيف الأخير، اقتطعتها من قميص داخلي قديم لجليل، بلّلتها قليلًا من وعاء البلاستيك، وراحت تمرّرها بتأنٍّ عند الزوايا والأطراف فغطاء العلبة.

جاء دور أكواب الورق المقوّى. جميعها بحال جيّدة. غسلت خرقة القطن وعصرتها فوق الوعاء. ألقتها جانبًا للحظة، أزالت خلالها الغبار من جوف الأكواب بمحرمة ورقية. عادت للخرقة المبلّلة ومسحت بها الصفحة الخارجيّة فقط، فلمع رسمُ شجرة عيد الميلاد عليها. كوبًا وراء كوبٍ. أربعًا وعشرين. أدخلتها ببعضها بعضًا، ووضّبتها في كيس نايلون أحكمت ربطه بشريط مطاطي.

ستفعل الشيء نفسه بعلب الكرتون، بعد أن تُعيد إليها طقم الشوك والسكاكين. لم تترك المجال أمام راجي للتردّد، بل بدت متحمّسة لإشراكه مناولةً إيّاه ما نظّفته من علب الكرتون. أوصته أن يلفّها ويوضّبها هي أيضًا في الأكياس، كلّ اثنتين أو ثلاثٍ في كيسٍ بحسب أحجامها، وأن يلصقها بشريط لاصق من الأسفل. ها هو المقص، قالت. وها هي السكاكين والشوك قد مسحتها، فعادت تلمع كأنّها جديدة. ستحضر من الحمّام ما استطاعت من أكياسٍ لحفلة التوضيب هذه، وستعدُ فراس وجليل بمائدة طيّبة ما أن تُنجز قسمًا من عملها. انصاع لطلب سارية وجعل يُسرّع في إعادة ترتيب الأواني الفضّيّة، كلٌّ منها في المساحة المخصّصة لها. تلمّس شوكةً رفيعة بسنين فقط، حملها بقبضة يده وغرزها في داخل العلبة محدثًا ثقبين، كأنّه

استاء من جهله لوظيفة تلك الأداة الصغيرة.

كانت الرُّفوف تفرغ تدريجيًا من محتوياتها، صحونٌ وأوعيةٌ من السيراميك، قرأت على ظاهرها أنَّها من صناعة فرنسيَّة. جميعها من المَصنَع نفسه، إلَّا أربعة حملت إسم «موستييه»، متقنة الأطراف، اكتظَّت برسوم الزُّهور المذهَّبة عند أطرافها وبأشكالٍ هندسيَّة مختلفة في الوسط. جميع الصُّحون نظيفة قالت، ولن يتطلَّب الأمر عناء نفض الغبار الذي تكبدته مع علب الفضِّيات. مسحةٌ أو مسحتان، ثمَ تلفّ كلُّ منها بورقة جريدة وتضعها في صناديق الكرتون في الغرفة الوسطى، حيث تكدَّست أغراض مانويل منذ غادر بيته.

أربكها وعاءٌ شفَّافٌ انشق طرفه، فوضعت قطعة مزخرفة منه في قعره. لم تُحدث في نقل الصحون أيّ صوت يذكر، بل كانت ترفع الأواني بتمهُّلٍ شديد. ما جرى لهذا الوعاء هو إذًا من أحداث الماضي، لا دخل لها فيه. حملت القطعة بأصبعيها ووضعتها فوق رفّ الخزانة من جهة الخارج، مسحت قلب الوعاء بخرقة الغبار ثمَ بخرقة القطن الرطبة، متجنّبة ملامسة المنطقة المكسورة أعلاه. لفَّت القطعة الصغيرة بقصاصة من الجريدة بالقرب منها، وأعادتها إلى قلب الوعاء، ووضعتهما في كيس من أحد محلَّات شارع الحمراء. كتبت بقلم الحبر النّاشف «مكسور»، ووضعته فوق مجموعةٍ من الصُّحون والأواني داخل الصندوق. كادت تُبادر لتلصقه بأنبوب اللَّصق السَّريع. رأت جليل يُعالج مزهريَّة بيت السد التي أتوا بها إلى بيت شارع ليون هذا. أحضرتها هي في ثاني أو ثالث نقلةٍ إلى الغربيّة مع سائقٍ مسلم، لازم الحيّ هناك حتى بعد رحيلهم. ضغط جليل على الأنبوب شادًا على إبهامه، ومرغ السّائل الأصفر فوق الطرف المشقوق، ثمَ ركّب القطعة المبتورة، وعادت المزهريَّة هديَّة جاك الواكد من محلَّات A.N.F.، كأنَّها جديدة لم تنكسر أبدًا. كادت أن تفعلها، وتضع الكيس الأصفر جانبًا فتطلب من جليل أن يُساعدها، غير أنَّها تذكَّرت دزّينة أكواب المغلي الحمراء ووعاء الحساء الذي تركته في بيت السد. تحسَّرت على ما ضاع منها وهي تنقل الأمتعة مع وجدي سائق سيَّارة الدودج القديمة، فعدلت عن الفكرة. تطوَّع راجي بحمل الصناديق، ولم ينتظر مساعدة أبيه. تابعته بقلق شديد وهو ينتقل من المطبخ نحو الغرفة الوسطى في الممر الطويل، حيث تكدَّست حقائب السفر ورفوف الكتب وعلب الصُّور وكراتين أنابيب الألوان.

اكتسبت سارية خبرةً بترتيب الأغراض. أغراضها وأغراض غيرها.

صنعت لنفسها دورًا محدّدًا منذ شغلت مع زوجها وابنيها هذا البيت. ستُحافظُ على ما خلّفه سكّانه. وستختلقُ ضمن أرجائه الفسيحة مساحاتٍ لها ولأسرتها الصغيرة، تُشبهها هي وتُشبه ذوقها وإحساسها بفضاء البيوت ومساحاتها. عزفت عن نقل أيِّ من الأثاث، وامتنعت عن نزع اللّوحات في غرفتي الاستقبال والجلوس. علا صوتها بوجه جليل حين قرّر تعليق روزنامة سنة ٨٥ في غرفة الجلوس، وذكّرته أنّ إقامتهم مؤقّتة. قالت إنّهم إن عادوا إلى المنطقة الشرقيّة أو لم يعودوا، إن انتهت الحرب في المدى القريب أو لم تنته، فهم في جميع الأحوال لن يمكثوا في بيت مانويل مدّةً أطول من السنوات الخمس التي كانوا أمضوها. سنةً أخرى أو سنتين كحدٍّ أقصى. يستأجران شقّةً في ضواحي بيروت قرب المطار، إسوةً بزملاءٍ لها من مُعلّمي المدرسة. يأتون في الأوتوكار معًا ليصلوا قبل الجميع ويعودوا سويًا مع أولادهم وتلاميذ آخرين. المشكلة هي في انعدام عروض الإيجار، من سيؤجّرهم وبأيّ ثمنٍ بيتًا في هذه الأوضاع؟ زمن الإيجارات انتهى، قال لها أكثر من ناطور بنايةٍ في أحياء المصيطبة والمزرعة وغيرها. والمستأجر الجديد يثيرُ ريبة المالكين الذين باتوا يُدلّلون على بيوتهم بين الأقارب والمعارف، ليشغلوها من غير مقابل خوفًا من أن تحتلّها الميليشيّات في ساعة سفاعة. بل صار منهم من يتمنّى أن تقع الواقعة، وينهار البناء بمن فيه، علّه يسترجع ملكه، وإن كان عليه أن يُشيِّد بنايةً من جديد. تنقطع عن التفكير في بيت أحلامها، بيت ليس كبيت السدّ في الطّابق الأرضيّ بل على طابقٍ مرتفع، الثالث أو الرّابع، يزيدُ غرفةً أو غرفتين عنه. تعود إلى الواقع وتردّد في ما بينها أنّها ستعامل بيت شارع ليون مثل بيتها تمامًا، لكنّها ستُبقي في خلفيّة أفكارها شعار رحيلهم المُحتَّم عنه. إقامتنا مؤقّتة، قالت، كأنّها تُراجع حسابات في بالها. مؤقّتة، لكنّها ستجعلها مريحةً ولن تُبدّد حلمها بالسَّكن الهانئ حتى وسط هذه الظروف، ظروف الهجرة عن بيتهم الأوّل، وتقلُّص إمكانيّاتهم الماديّة، ورغم إحساس لازمها بالتقصير تجاه الولدين.

كلّما وقع نظرها على اللّوحتين المُعلّقتين في الصالون، تفرّست بتعابير الفتاتين فيهما واستغربت حركة الشفاه وأعلى الثغر. قالت في نفسها مرارًا إنّ اللّوحتين لا تُعجبانها، لا لأنّها من خيار سكّان البيت من مانويل وزوجته، أو ربّما غيرهم من الأوروبيّين من أصدقائهم، بل لأنّها ميّالة فعلًا إلى القُبح أكثر منها إلى الجمال. رسمان لامرأتين، واحدة شقراء، وأخرى بشعرٍ بُنيّ متهدّل، تُطلّان من كوّةٍ مستديرة. لم يكتف راسمها بتجسيد علامات توحي بالتردّد أو بالخوف عوضًا من الابتسامة أو الفرح

مثلًا، بل جعل الأنف والعينين والذّقن وباقي تفاصيل الوجه غليظةً، كأنّها تفترش المُشاهد. سيّدتان توحيان بضخامة الجسم مثل عمّتيها فدوى ولور. لا مثلها أو مثل أفراد عائلة أمّها وداد الذين رأتهم في الصُّور، أو حتى مثل خالتها فيوليت التي تربّت على يديها.

لكنّ اللّوحتين هنا، قالت، باقيتان أمامها وأمام من أراد زيارتها في هذا البيت. رسمتان خائبتان، فكّرت، عالقتان على لوحين من الخشب المضغوط، أو هكذا قال جليل لها مرّةً وقد أوحى لها أنّه يُشاطرها رأيها.

فليبق كلّ شيء مكانه مهما طال الوقت، فلتبق اللّوحات، فليبق الأثاث على ما هو، ولتبق الكتُب البوليسيّة الإنكليزيّة، ولتظلّ رائحة أنابيب التلوين تملأ خياشيمها كلّما مرّت في الممشى أمام الغرفة الوسطى، ولتبق الكتابات الغريبة فوق الحائط في الغرفة الأخيرة، حيث تنام هي وجليل، وليبق السّجّاد العفن والطرّاحات المُقلّمة في غرفة الجلوس أمام مدخنة القرميد، ولتبق التُحف الروسيّة فوق رخامها الأسود، وليبق فيها الحطب المُتآكل وخيوط العنكبوت.. لكنّها ستجعل المطبخ مطبخها، ستكنس أرضه مثلما فعلت في بيت السد قبل الحرب، وستلمّع المجلى ببرش الصّابون والملح، كما كانت تفعل مع فيوليت في بيت والدها في الدّير الأزرق، وستجعل من الخزائن مكانًا آمنًا تحتفظ فيه بما تمكّنت من نقله من بيتهم الأوّل، فلا يبقى شريدًا تائهًا في فضاء هذا البيت الواسع مثل أراضي البور خلف الكنيسة في الدّير الأزرق.

شبك راجي ذراعيه حول علبة الكرتون الثانية، ومضى عابرًا مدخل الخدمة حيث الحمّام العربي والغرفة الصغيرة. اجتاز غرفة الطعام فالمدخل الرئيسي، وانعطف يسارًا نحو الممشى متوخّيًا الحذر كلّما ألقى برجله أرضًا، خوفًا من أن يتعثّر بالسّجّاد المنتشر. من خلفه سارية تلاطفه مستحسنةً مساعدته لها في يوم التعزيل هذا، اليوم الذي شرّعت فيه باب الغرفة الوسطى، التي كانت دائمًا موصدة مظلمة طيلة أيّام السّنة.

نظرت إلى السّاعة في يدها. الحادية عشرة والثلث. ستكرّس ساعات فراغها في الأسبوع الآتي لإنجاز العمليّة كلّها. وضعا الصندوق الثاني، وانصرفا لنقل ما استطاعا من الأكياس دفعةً واحدة من غير تأخيرٍ، كأنّهما اعتادا على أن لا شغل لهم في غرفة أغراض مانويل. ضربت سارية كفّيها مختتمةً عمل اليوم، مصمّمةً على التحرّر ممّا يعيق حركتها في المطبخ في أقرب مهلةٍ. اليوم تجزّأت ونفّذت بعد خمس سنوات طوال.

كان الطبخ يُتعبها. تُعدّ أغلب الوصفات بشكل آليّ، جولةً لتحضير

كلّ ما تحتاجُه من مكوّنات تجمعها جانبًا فوق صينيّة معدنيّة، جولةٌ للغسل وللتقطيع والحشو، وجولةٌ للطهو ترمي فيها بجميع المكوّنات معًا في الحين نفسه. تغرف بملعقة الخشب من الطبخة وهي تغلي فوق النّار. تسكبُ في صحن صغير وتتذوّق النتيجة، ثم تضيف رشّة من البهار الحلو أو من الكمّون. ترفع يديها بحركة انتصار معلنةً أنّ دورها انتهى، وأنّ ما عليها الآن سوى انتظار أن تنضج الخضار واللّحم المفروم، كأنّها أنزلت حملًا عنها وعادت إلى صفوف المُشاهدين.

لكنّها وجدت طريقها إلى التعبير عن اهتمامها بالطّعام في وصفة المعكرونة بالبيشاميل. تعلّمتها من إذاعة لبنان من بيروت في برنامج مع الأسرة أيّام تحضيرها لشهادة البكالوريا في الدّير الأزرق. حفظت الكلمة ودوّنتها مع باقي مقادير الوصفة وطريقة التحضير على ظاهر ورقة من روزنامة الرعيّة فوق الأقوال والأمثال. كتبتها أوّل مرّةٍ في كلمتين، كما تبيّنتها من لفظ المذيعة. «با شمال» ظنًّا منها أوّلًا أنّ التّسمية تتألّف من «البي» أو حرف الباء ملفوظًا باللّهجة المحكيّة اللُّبنانيّة بإمالة حرف الألف. انتظرت حتى سمعت الإسم الغريب بصوت المذيعة المغناج مرّة ثانية، لتشطب ما كانت كتبته وتجمعه من جديد بكلمةٍ واحدة. هذه المرّة ستتجرّأ وستتعاون مع فيوليت وسيحضّران وصفةً من الرّاديو. قالت لخالتها إنّها ستعدّ لها ما إن تنتهي من الإمتحانات طبقًا جديدًا مختلفًا عن كلّ الأطباق التي تعدّها لها من أكلات بيروت. الطحين متوافر، كذلك الحليب والزّبدة، وستستبدل الجبنة الفرنسيّة التي ذكرتها المذيعة باسمها الصّعب بالجبنة المطبوخة المعبّأة في علب الكرتون من دكّانة الدّير. خيرًا فَعلتِ، قالت لها فيوليت ما إن عادت من المستوصف في البلدة، لكنّنا نسينا أمر الفرن. اندفعت بكلّ ثقةٍ مصمّمةً على مفاجأة ميخائيل، وجعلت تتخيّل كيف ستفاخر بلفظ اسم الوصفة مناولةً زوجة عمّها بطرس الصّحن المملوء على باب بيتها. اندفعت بأفكارها، فالتبست الكلمة عليها، وخالت أنّ طبّاخ الغاز المُثلّث سيغنيها عن الفرن الكهربائي. كما أنّها نسيت أنّ الفرن الوحيد الذي شاهدته كان في المدرسة الدّاخليّة، وعند آل مرهج جيران جدّتها ربيعة في بيتها الجديد قرب مستشفى مار يوسف في بيروت. تناست الموضوع وظلّ إسما البيشاميل وجبنة الغرويار يحفران في ذهنها، وتصوّرت أنّها إذا أقامت مع جدّتها ربيعة للدّراسة الجامعيّة، كما ألمح ميخائيل يومًا. ستتفنّن بتطبيق وصفات الرّاديو التي لا تستدعي استخدام حرارة الفرن القويّة، وستعتني بانتقاء الأطعمة والأجبان المتوافرة، فلا يلجم حماستها بُعدها عن بيروت وعن المصطلحات الطارئة على

المستهلكين فيها. مصطلحاتٍ يُردِّدونها من معاجم اللُّغة الفرنسيَّة والإيطاليَّة والإنكليزيَّة لصنع الحلوى وصلصات اللُّحوم وسلطات الصَّيف، يردِّدونها هكذا كما لو كانت كأيِّ نوعٍ من أنواع الخضار المُنتشرة في جبل لبنان. جاءت ردَّة فعل كلٍّ من فيوليت وجليل وزهريَّة متشابهة، كلُّهم استحسنوا طبق المعكرونة بالبيشاميل حين أعدَّتها نهار أحد في بيت السدّ، قبل توتُّر الأوضاع. لم تعُد وقتها تتشبَّث بالتفاصيل، واستبدلت من تلقاء نفسها الجبنة الفرنسيَّة بجبن القشقوان مكثرةً من الصعتر المجفَّف. تناولوا الطعام على طاولة المطبخ المستديرة، بعد أن تأكَّدت من غفوة فراس، وسكبت صحنًا أعطته لابن جيرانهم. تكاثرت حولها الصُّور، وبقيت صورة تلك المائدة ذكرى للزَّمن الجميل في بيتهما الأوَّل، تطلقُ ضحكتها عاليًا بين الحين والآخر، ماسحةً عرق جبينها بعد فترة التحضير المضنية والممتعة في آنٍ واحدٍ.

انتبه راجي إلى أنَّ رائحة أنابيب التلوين آخذة بالتلاشي. تجرَّأ وعاد إلى الغرفة الوسطى. أشعل النُّور، واتَّجه نحو العلب السَّوداء المُقفلة. اختفت الأنابيب. رمتها سارية! استغرب الأمر، وراح يُحدِّق بما بقي من عُلب. علَب لمجموعة الولّاعات وعليبات الكبريت من فنادق العالم، صندوق الأسطوانات وعُلبة البطاقات البريديَّة. يفتحُها، ويسبحُ من خلالها حول العالم.

قصصٍ مهترئة.

نعم. لا صفة أخرى تلتصق بها مثل هذه الكلمة. لن أصبح من أولئك الذين يمضغون أخبار الماضي وذكرياته. لقد تجاوزتُ الستين، لكنّي إبن اليوم. إبن اليوم بتفكيري وإبن اليوم في سلوكي وإبن اليوم أيضًا في عملي الذي أعتاش منه. لن أبحث عن شرائح صورٍ قديمة. لقد ذابت جميعها في قصص الحرب. لم بطوها النسيان، ربّما، عند بعضهم، فجعلوا يجترُّونها ويُحيونها لملء فراغهم. غير أنّي أنا إبن اليوم والماضي، كلّ الماضي أضحى خلفي.

سأكمل مجموعة المفقودات بالصّور الجديدة كما تُملأ الثقوب، فيعود الجدار أملس نظيفًا. حادت عنّي الشظايا وبقيتُ حيًا أرزق، حاد عنّي دمارُ الحرب، فلا داعي للّهو به من جديد.

دقَّ جرس الهاتف.

يتّصل بي طالبي السّابق بعد مراسلاتنا الطّويلة اليوم.

أردتُ الإطمئنان عنك.

أنا جيّد جدًا، أحضّر نفسي لسهرة اليوم .All fine

الكتابةُ خيرُ علاج على الأرجح لا الكلام. هكذا اختصرتُ المكالمة، كأنّه لم يُدرك أنّني أفضّل المراسلة وإلّا لكنتُ كلّمته منذ الصّباح.

أصبحت السّاعة الثّامنة إلّا عشر دقائق. صببتُ كأسًا من الفودكا، فتحتُ باب الثلاجة من جديد، وأضفتُ قطعتين على القطعة التي كنتُ قد وضعتها قبل سكب المشروب.

أدخلتُ سي دي لإحدى الشابات التي تعرّفتُ عليها حديثًا. «الرّمل الدافئ». هذا عنوان جميل، قلتُ في نفسي. جلستُ على الشّرفة أنتظر.

اكتفى راجي برفع كتفيه، ليقول إنّه لا يعرف الإجابة.

سأله جليل لماذا تلوّثُ رأسك بهذه المعلومات. كلّما استاء من ترقُّب سارية لحركة معبر المتحف، ازدادت حساسيّته، وأخذ يعبّرُ عن توتُّره بشتّى الطُّرق. ينتزع من فراس لعبةً إلكترونيّة تُصدر أصواتًا، أو يوبّخ راجي على كلّ كلمة يتفوّه بها. كأنّه يتعمّد أن يوقعه بفخّه، فيسأله سؤالًا. وما إن يجيبه بما ينوي سماعه، حتى يبادره بردٍ ساخرٍ كفيلٍ أن يدعوه للصّمت من جديد.

من أين لك أن تعرف أنّ أقرباء جدّتك في أميركا أو في أستراليا، وما قصّة تتبُّعك لتاريخ العائلة؟

أيقن راجي أنّ كلّ ما يسمعه يبقى فيه، ليس في عقله فحسب، بل في جسمه ومسامه. تتغلغل القصص وتلتصق فيه بأبطالها وأسمائها ومطارحها. وما إن تسكنه الرّوايات حتى يصبح هو أيضًا جزءًا منها يتقمّص شخصيّاتها، ويحترفُ حركاتهم ويحفظ لهم محطّات كلامهم، ويفرح لما يفرحهم ويحزن لأحزانهم.

بماذا تُفكّر حين تُسلسل أسماء سكّان قرية أمّك، وترتُّبها بحسب قربها من بيت جدّتك؟

وإذا بدا أنّه يُعلّل اهتمامه بالضّجر لعدم إيجاده ردًا آخر، فإنّه كان ينتظر مسبقًا كلامًا لاذعًا من أبيه، كأن ينصحه من جديد أن يُعاشر أولادًا من عمره، أو أن يلزمه بمرافقة أخيه فراس إلى نادي المدرسة الجديدة.

تعلّم الصّبر. أسمعه أبوه ما كان يتوقّعه منه مرارًا ولم يعتب عليه، ولم يتزعزع حرصه على الحفظ وعلى تقصّي الأخبار. لكنّه تململ حين لمس تواطؤًا بين والده وفراس. وبالرّغم من أنّ جليل كان مقلًا في كلامه، فقد ذكّره في عدّة مناسبات بضرورة خروجه إلى نادي المدرسة الجديدة مع أخيه. ثمّ عاد واستفسر ذات يومٍ عن سبب كون الفرهود صديقه الوحيد.

صنّف أمزجة أبيه إلى ثلاثة. الأوّل، هو مزاجه المتوتّر الغاضب: يحتبسُ الدمّ في وجهه ويحرّك أعضاءه بعصبيّةٍ، يعقد حاجبيه ويخرج عن صمته، فإذا كان الجميع ساكتين انفرد به بأغلب الأحوال، وراح يستفزُّه بأسئلة عن دروسه أو عمّا يشغله في أوقات فراغه؛ وانتقل يعبّر عن مزاجه

المتعكّر بعد فترةٍ بفرض تقنين على الطّعام، حين انفجرت شهيّة فراس على الطّعام آخر أيّام مراهقته.

كان المزاج الثّاني الأقلّ قساوة هو الغالب على الأمزجة الثّلاثة: يسبح جليل بصمته غائبًا عن أيّ ردّة فعل لما يجري من حواليه. حتى عندما تناديه سارية، يتّجه إليها بشكل آليّ من غير أن يُجيبها. يعبر بالقرب من إبنيه المتأخّرين عن النوم في غرفة الجلوس، يُطفئ الضوء من دون أن ينطق بكلمة. فيتبلّغ الإبنان أنّ وقت النوم قد حان ولا مجال للمساومة.

لكنّ ما جمعه راجي من ذكريات مشاوير بعد الظهر والمساء في محيط بيت شارع ليون مع أبيه، جعله يخصّص له في تصنيفه هذا فئة ثالثة، يعود فيها والدهُ وديعًا متصالحًا مع الآخرين، ومعه هو بالذّات. تمتّع بحديثه عن أوّل مرّة دخل فيها إلى سينما ريڤولي، وأمطره بالأسئلة عن مدخل سوق أبي النّصر، وشكل الحوانيت وأبوابها، وإذا ما كانت بستائر معدنيّة مشبّكة أو مقفلة بالكامل مثل شارع الحمراء يومها.

أبقى على سرّه محفوظًا، ولم يُشرِك معه بهوايته الجديدة سوى الفرهود أوّلًا وأبيه جليل ثانيًا. انقطعت أقلام الحبر السّوداء من مكتبة القرطاسيّة في شارع جان دارك، وقال موسى زعرب إنّ البضاعة توقّفت في المرفأ، ولن تصل إلى الغربيّة قبل أسبوع. عزف عن الرجوع إلى البيت وسمع من الفرهود، فأكملا سيرهما نحو شارع الحمراء، وانعطفا يسارًا من غير أن يُحدِّدا وجهتهما. اكتفى بأن يحثُّ صديقه أن يبحثا في مكان آخر علّهما يجدان طلبه. تعجّب راجي من اهتمام الفرهود هذا، وأدرك أنّه لولاه لما فكّر باللُّجوء إلى مكتبةٍ أخرى وقد اعتاد على طقوس نزهة بعد الظهر. من بيت شارع ليون يسارًا فنزولًا في الجان دارك، ومن ثمّ الحمراء ومن ثمّ صعودًا من أوتيل بافيون أو من مسرح الپيكاديلّي، إذا ما أطالا الطريق. نفض الفرهود يده ليُقنعه أن لا داعي لأخذ الطريق نفسه. لنبحثْ في مكانٍ جديد، قالها واثقًا، فلحق به ناسيًا خيبته، متحمّسًا للمغامرة.

هنا، قال الفرهود: كان راجي قد مرّ بالمكتبة في شارع الحمراء قبل بدء العامَ الدّراسي مرّة واحدة. سألت فيها سارية مرّةً عن كتاب القراءة للُغة الفرنسيّة. تأخّر إرسال الكتب من بيروت الشرقيّة، وتكفّلت إدراة المدرسة بتصوير النّصوص الأولى للتّلاميذ، ريثما تصل الكتب موضّبةً في كراتين مباشرةً من المرفأ إلى المدرسة مرورًا بمعبر المتحف البربير. أضاء نور الشمعة وجه السّيّدة وهي تحلّ الكلمات المتقاطعة. اعتذرت عن تعطُّل مولِّد الكهرباء، وشكت أمر موظّفٍ شابٍ عاد إلى بيته قبل انقطاع التيّار

قبل ساعة على انتهاء دوامه، كان قد ساعدها بمعالجة أزرار المولّد خارج المحلّ. من سيعود لينقله إلى الدّاخل، سألها راجي مفاجئًا أمّه بمبادرته. نضعه عند صاحب المحلّ جارنا، لأنّه يغذّي المحلّين. ونعود أنا والموظّفة هناك عند السّادسة إلى المعبر. كما تريان، قالت. مكتبتنا تنخفض أربع درجات عن مستوى الرّصيف، ولا يمكننا إنزاله يوميًا وحمله عند الصّباح. إسمٌ على مسمًى، عادت وأردفت. انطبعت الجملة لديه، والتحقت بفائض الجمل والكلمات الرنّانة التي اختزنها في رأسه. شرحت له سارية ما قالته السّيّدة عند خروجهما عن إسم المكتبة، معتمدة على إلمامها البسيط باللُغة الإنكليزيّة، ومُستندةً على ما شرحه جليل لها يومًا عن تلك التّسمية الغريبة في شارع الحمراء. أصرّت أن يمرّا مرّة أخيرة على المكتبة الكبيرة في وسط الشّارع، لتسأل عن موعد وصول الكتب الواردة من بيروت الشرقيّة. كانت هذه المرّة الوحيدة التي نزل فيها إلى هذه المكتبة، قال راجي في نفسه.

أدركت السّيّدة ذات النظّارات الغليظة أنّ الفتيين يبحثان فعلًا عن نموذجٍ محدّدٍ من الأقلام، وأنّهما لا يتسكّعان من محلٍ إلى آخر. لم يجداه فانصرفا نحو المجلّات، وسرعان ما لفت انتباه راجي على طاولة العرض هيكلٌ معدنيّ كالدفتر المفتوح مُلئ بصورٍ مطبوعة. صورتان على كلّ صفحة. تلمّس الصُورتين، ونزع عن سطحهما طبقةً من الغبار برأس إصبعيه. ثمّ توغّل بمغامرته، فأخرج من جيبه الخلفي ورقة من فئة الخمسين ليرة المطويّة، وحملها بشكلٍ مستقيمٍ. مرّرها من فوقهما حتى أزالت القشرة البنّيّة دافعًا بها أرضًا.

«يُمكنك أن تقلبَ الصّفحة كأنّه كتابٌ، أو أن تنتزع بطاقةً نظيفة من خلفها.»

بانت السّيّدة الجالسة غير آبهة إذا ابتغى راجي شراء إحدى الصُور أم لا، كان كلّ ما يهمُها ألّا تتّسخ الأرض بالغبار المتناثر. أمّا إذا بقي معشّشًا في الملفّ المعدني، لاقتنع ربّما مدير المحلّ أنّ أحدًا لن يهتمّ بشراء بطاقات بريديّة لبيروت أيّام الحرب هذه، وأنّها بإمكانها بالتالي أن تُعيد ترتيب المعروضات على هواها. تضع ملفّ البطاقات المعدنيّ في آخر المكتبة عند الموظّف الجديد بين الكتب السياحيّة وبطاقات اليونيسيف للمعايدة، وتنفرد هي ببيع المجلّات والصُحف باللُغات الثلاث. تنتقي الممزّق منها وغير الصالح للبيع قبل غيرها من الموظفين، فتحمله معها عند عودتها إلى بيتها مساءً.

التفت الفرهود عاليًا نحو السَّيِّدة، حين وجَّهت الكلام لراجي. ثمّ عاد سريعًا لينظر يسارًا نحوه وهو جالسٌ القرفصاء، كأنّ شيئًا ما قد فاته. انسلّ بالقرب منه حتى التصق به، من غير أن يبدّل في وضعيّته. مدّ يده صوب الملفّ متجاوزًا صديقه، وأخذ يُقلّبُ صفحاته التي أحدثت صوتًا لافتًا كلّما ارتطمت ببعضها بعضًا. حاول راجي أن يلتقط ذراع الفرهود ليوقفه عن حركته، لكنّه سرعان ما استحسن مبادرته، وأخذ يتابع سلسلة الصُّور الجديدة التي كانت تنكشف بعد كلّ حركة.

صورتان، صورتان، قال الفرهود. في كلّ صفحةٍ وضعوا صورتين. كان راجي كمن اختلى بنفسه، بالرّغم من التصاق الفرهود به ومشاركته في استعراض البطاقات. دخلت مجموعة زبائن انشغلت بها السَّيِّدة؛ وراح الفرهود، من غير أن يعترضه راجي بكلمة واحدة، يفسّر تركيبة الملفّ المعدنيّ مستقصيًا أدنى تفصيل من براغي المفصّلات إلى قاعدة مجموعات الصُّور.

إنَّه يعمل كالملفّ العادي لدينا، وعوضًا عن الورق وضعوا فيه لوحات معدنيَّةٍ تحملُ بطاقات.

البطاقات جميلة، أجابه راجي.

نعم نعم، لكنْ أكلها الغبار.

أبقى راجي على دهشته وهو يُقلّب الصُّور، بعد أن اكتفى الفرهود بشرحه. لم يخطر له أن يشتري أيًا منها، ولم يُصدّق أنَّه يستطيع أن يمتلك هو صورةً لبيروت ما قبل الحرب، كما سمع عنها من أبيه جليل. حدّق بكلّ صورةٍ على حدة. أكثرها مستطيلٌ مستقيم الأطراف، ما عدا اثنتين بأطراف مقرّطة. عشر صفحات تحمل الصُّور أزواجًا، وصفحتان فارغتان. سحب بطاقةً. التقطها من جانبيها بيديه. قلّبها. قرأ ما كُتِب خلف الصُّورة:

لبنان بيروت، شارع ويغان.

أعادها إلى مكانها، وتمالك نفسه كي لا يضعف ويسأل عن سعرها، ونهض مع الفرهود وانصرفا.

حين عاد في اليوم التالي بمفرده، واشترى بطاقة شارع ويغان، تعهّد أن يشتري بطاقةً كلَ أوّل شهر من المصروف الذي يأخذه من سارية. هكذا، حتى يُكمل المجموعة كلّها. خمس عشرة ليرة ثمن البطاقة قد يتمكّن أن يشتري اثنتين، واحدة كلّ أسبوعين. دفع ثمن البطاقة. سألته السَّيِّدة لمن سيرسلها. استغرب السُّؤال، ولم ينتبه أنّ البطاقات ضُمّت

بالأساس لكي يتبادلها النّاس عبر البريد. تذكّر المربّع في أعلى الصفحة، ولمعت في رأسه صورة من كتاب القراءة الفرنسيّة من نصّ يحكي عن رسالة بلسانِ فتاةٍ تُكاتبُ صديقتها في دولة بعيدة. ظنّ للوهلة الأولى أنّها لن تعطيه البطاقة حتى لو دفع ثمنها، إذا علمت أنّه سيحتفظ بها لنفسه. إنّها لشقيقي الاكبر فراس، قال لها، متحدّيًا مصداقيته، متذكّرًا إجابات أمّه المبتكرة على أسئلة المسلّحين على اختلاف فئاتهم، عند عبورهم معبر المتحف سيرًا على الأقدام.

ثلاث بطاقات جمعها في شهرٍ ونيّف.

لم تصل البضاعة من بيروت الشرقيّة في الأسبوع الثّاني. فرح راجي ضمنًا، وقرّر أن يستخدم مؤقتًا في رسمه الأقلام المنشورة فوق مكتب فراس. ثمّ إنّه أخذ يبتعدُ عن الرّسم، ويؤثر القراءة عند المساء عندما يكون التيّار مقطوعًا؛ وعند ليلة الكهرباء، يُشاهد برامج القناة الجديدة على التلفزيون، ثمّ يقرأ صفحةً واحدة من كتابه، وينام.

عرف يومها الفرهود أنّ راجي انتقل لجمع الصُور، وأنّه بات الآن يهدر ما يدخّره بشرائها.

عوضًا عن أن تشتريها إرسمها من خيالك. ألست مولعًا بالرّسم؟!

لكنّ الفرهود، كعادته، تراجع عن كلامه المتسرّع، ودار يبحثُ عن حلولٍ للمعضلة التي طرحها.

تشتري البطاقات وتُكمل المجموعة، ثمّ ترسمها من جديد وتلوّنها هذه المرّة.

بدا بتفسيره لمغزى شراء الصُور، كأنّه فجأةً انقلب ليشجّعه على المثابرة في هوايته الجديدة. سأله اذا كانت صاحبة المحلّ ستبيع الملفّ المعدنيّ، يومًا وعاد واستدرك أن لا لزوم له.

ابتكرَ راجي طقسًا جديدًا له. من بيت شارع ليون فشارع جان دارك يتّجه يسارًا نحو المكتبة بمفرده، مرّةً كلّ أسبوعين. ينزلُ نحو السّيّدة ويُلقي التحيّة بنبرةٍ واهنة، كأنّها المرّة الأولى. لا تسأله لمن سيرسلها وتكتفي بالابتسامة، إلى أن بادرته يومًا عند شرائه بطاقته الأخيرة «أهنّئك على هذه الهواية». لم يعرف بما يُجيب، وتعثّر وهو يحمل الكيس الورقيّ. انزلق من بين يديه، فسارع والتقطه قبل أن يقع أرضًا. صعد الدرجات الأربع إلى الطريق. رأى موسى زعرب واقفًا أمام مكتبته، فانتقل إلى الرّصيف المقابل متحاشيًا أن يحيّيه. سار وهو يُراقب بلاطات الرّصيف

حتى شارع ليون.

ارتبك راجي وهو يقلّب الصُور بين يديه، وجعل يتأمّل كلّ واحدة منها علّه يأخذ قرارًا بأيٍّ منها يعرضه على جليل. قرَّر أن يُفاتحه بسرِّه في السّاعة التي عادا فيها من سوق الخضار، ومرّا بخطوط التماس عند ساحة رياض الصلح خلف متاريس المستوعبات الحديديّة. لم ينقطع منه الكلام، وأخبره للمرّة الأولى عن الترامواي الذي أخذه من السّاحة حتى شارع المزرعة إلى سينما سلوى حيثُ التقى بصديق له من سكّان حيّ المصبغة. عادا إلى بيت شارع ليون، واستمرّ هدوء جليل طويلًا، فانفردت تعابير وجهه واسترسل بوصفه لحركة الترام واستداراته لتحويل وجهته، حتى إنّه تناول ورقةً بالية من طاولة غرفة الجلوس، ورسم عليها مثلّثًا وإشارات. احتفظ راجي بالورقة، واختار من بين البطاقات صورة ساحة رياض الصلح ظهرت فيها سينما كابيتول، وإعلانٌ لفيلم «Z إنّه حيّ». تناولها جليل من غير أن يسأله متى وكيف، وبأيّ سعرٍ ابتاعها. حدّد له اتّجاه ساحة النجمة حيث الأعمدة الرّومانيّة، وأشار بإصبعه إلى الطريق على يمين الصُورة المؤدّية إلى بناية اللعازريّة، حيثُ نزل يومًا إلى بيروت ليشتري كتبه الثانويّة في بازار آخر أيلول. حمل له البطاقات كلّها. لم يقُل له شيئًا. تناولها وراح يستعرضها واحدةً واحدة، ويذكرُ أسماء لم ترد على الصّفحة خلفها.

هذا أوّل شارع ويغان قبل جامع الأمير عساف. هذه البلديّة. وفي آخر الشّارع باب إدريس، حيث كنّا نلتفّ صوب الأسواق.

هذه تعرفُها. سينما ريفولي. قبل الحرب اعتلاها إعلان كبير. أمامها ساعة الزُهور، حيث تقف باصات زحلة. تحتها محلّات تيوفيل الخوري، اشترت لي أمّي منها سروالًا قصيرًا رصاصيّ اللّون عندما كنت أتحضّر لشهادة السيرتيفيكا.

هذا هو جامع الأمير عسّاف. كان الجامع أمام مقهى الأوتوماتيك، حيث كنّا مع أمّك وشباب الجامعة نجتمع أحيانًا.

هذا أوتيل فينيسيا.. وأنت لا تعرفه إلّا مدمّرًا. لم ندخل إليه، لكنّه كان من أجمل وأثرى الفنادق، كما كان يُقال.

هذا أوتيل كارلتون! ولا يزال على حاله.

«أضافوا إليه برجًا جديدًا توقّفت ورشة بنائه في الحرب»، أردف راجي.

«أضافوا إليه برجًا جديدًا توقّفت ورشة بنائه في الحرب»، أجاب جليل مكرّرًا الكلام نفسه.

هذه ساعة الزُّهور! قالها بنبرة من وَجد مبتغاه بعد بحثٍ طويلٍ. صمت قليلًا محدقًا بالصُّورة ثمّ انتقل إلى بطاقة بعدها.

هذه الريفولي من جديد في صورة أوضح. هذه الباصات التي كنّا نستقلّها أيّام الجامعة، لا تلك التي تقلّنا إلى زحلة. إلى جانب الريفولي وتجاه سوق الخضار، حانوت للخردوات لتاجر يهوديّ يُدعى نحمود مزراحي، كان والدي يقصدهُ أيّام زمان.

كانت هذه المرّة الأولى التي يسمع فيها راجي كلامًا على لسان والده عن أبيه نايف، الذي توفّي بأزمةٍ قلبيّة أوائل الخمسينيّات. كان ظنّ أنّه لم يحتفظ بأيّ شيء يذكّرهُ به، وها هو يسترجعُ اسمَ تاجرٍ قصده مرّة وهو في سنّ السّابعة أثناء زيارة لبيروت.

بات راجي يُكثرُ من الأسئلة، ويستفسرُ عن الصُّور، إلى أن اكتشف كتابًا سياحيًا عن لبنان بين كتُب مانويل آحو. وافقت سارية على مضض أن يتصفّحه، بعد أن كانت جمعت باقي أغراض مانويل الصغيرة، ومن بينها كتبه، وأودعتها في الغرفة الوسطى مع غيرها من الأغراض. توقّف عند صور لبيروت ولساحة الشهداء أخِذت من الطّائرة. جمع أسئلته وطرحها على جليل، يستفسر منه عن بعض العناوين. لم يُعاتبه على ما جمعه بما ادّخره من معروضات المكتبة، ولم يتأفّف من أسئلته. لم يخذله إلّا عندما عاد وأقحمَ قصص قرية أمّه وبيت الستّ المتراكمة في عالم أفكاره، فعاد إلى صمته، وأعاد إليه الشكّ والترقّب.

عزيزتي فاليري

ها قد دخلنا شهرنا الخامس في نيويورك. شقّتنا جيّدة وسط مانهاتن قرب يونيون سكوار، لكنّها ليست بالطّبع رحبة مثل بيتنا في بيروت. وصل ما شحنّاه من أمتعة بعد شهر ونيّف. انكسرَ صحنٌ اشتريته من الفونتانا منذ عشر سنين. سيتولّى مارك أمر لصقه. النّاس هنا يسألونني عن لبنان، ويظنّون أنّ المسلمات في بيروت يضعن المناديل على رؤوسهنّ. ليتهم كانوا ليرونا، أنا وأنت، في اللونغ بيتش بعد الدّوام أيّام الصّيف.

أحيانًا، أشعر أنّنا تسرّعنا في مغادرة بيروت. وها قد شارفت الحرب أن تنتهي مثلما نسمع. أتمنّى أن أزورك في الصّيف القادم. تحيّاتي إلى مانويل.

بريدا

نيويورك، ٢٧ أيّار

١٩٧٨

كيف لم تخطر ببالي هذه الفكرة من قبل؟

هل لأنّني تعاميتُ عن الحقيقة مفضّلًا أن أبقى على عهد قطعته بالثّقة بها مهما حصل؟ أم لأنّها كانت تُثابر على دعمها لي في ذلك المشروع وغيره من النشاطات؟

جلستُ أنتظر.

تذرّعت قائلة بأنّنا إذا تقشّفنا بالأمتعة التي ننقلها، سهُلت علينا حياتنا الجديدة. سأرمي ما بوسعي من الأغراض البالية. أضعها عند زاوية مستوعبات النفايات الصّفراء. أمّا كلّ ما لم أحتجه في الماضي القريب، فأتركه مكانه في البيت حتى إذا لم نعد. إرمِ، إرمِ ما استطعت، قالتها عدّة مرّات. شجّعتني، فتحمّست محرّكًا بداخلي شعورًا بالخفّة، كنتُ قد لجمته منذ بداية الأحداث.

زمت الصُور. هي رمتها بعد أن تشنّجت علاقتنا بسبب هفواتي المتكرّرة أيّامها. كنتُ أظنّها متفهّمة بل متعالية عن كلّ علاقاتي العابرة، إلى أن أصبحت تزجّني في جميع مشاكلها، بما فيها مشاكل العمل ومشاكل البلد وخطر الإنفجار المستمرّ.

«سنبقى هنا ريثما نجد حلًّا بديلًا»، قالت مرّة. ثمّ قالت: «نبقى هنا إلى أن نتأكّد من ظروف العمل لك هناك»؛ وعادت وصوّبت «نغادر بيروت إذا قرّرنا ذلك بأنفسنا». وكانت تُبدِل وتُصعّد وتستحدث الإقتراحات والشُروط، حتى صاحت بي يومًا من الأيّام قبيل رحيلنا «سنهجُر بيروت علّك تتغيّر».

هجرنا بيروت علّنا نتغيّر مخلّفين الكثير، هكذا قالت حين كلّمتها عن الصُور القديمة. انطلق بمشاريع جديدة، بديلة لا تُشبه ما سبق من أعمال. ذكرت كلمة توائم في إطار آخر علِق بذهني، فأطلقته على صورٍ قديمة رحتُ ألحقها بأخرى بمضمونٍ يُشبهها.

«سأصدرُ كتابًا بهذا العنوان!» قلتُ لها.

«أرأيت؟ إنسَ الماضي!» ردّدتها مرّةً واثنتين.

ردّدتها حتى عندما كنتُ نسيتها. كيف لم يخطر ببالي أن تكون هي من خبّأ وأخفى المغلّف.

نهضتُ واتّكأتُ على الدرابزين. تمسّكتُ بصفحة الألومينيوم. أمامي نوافذ مضاءة وأبراجٌ جديدة، ومنظر البحر ما يزال ظاهرًا في ما

بينها.

لم تكن ذاكرتي قد رجعت بي أبدًا إلى مثل تلك التفاصيل حتى اليوم. ظهر أمامي مشهد الشَّاحنة تُحمَّل الأغراض. ونحن نُطلّ على الشُّرفة من حينٍ إلى آخر حائرَين بما نفعله أو ما نقوله. درابزين الحديد كان أدفأ من درابزين الألومينيوم هذا. نظرتُ إلى قضبانه المتوازية، ثمَّ إلى الأسفل.

وصلَت. بيدها كيس أسود لقناني البيرة على الأرجح. معها حقيبة كبيرة. فيها جهاز، أو ملفَّات ربَّما...

قال جليل إنّه لم يدخل يومًا أيًا من الفنادق التي ألحّ راجي بالسؤال عنها. تناول كتاب مانويل، وراح يُقلّبه إلى أن وصل إلى الفصل الأخير، حيث اكتظّت الصّفحات بصورٍ برّاقة لمجموعة ملاهي وفنادق العاصمة قبل سنة واحدة أو سنتين على اندلاع الحرب.

استوحى من حائط مداميك الإسمنت المفرّغة شكلًا للبناء وسط رسمته. رسم مستطيلًا فمستطيلًا آخر بداخله. ثمّ جعل يشقّ خطوطًا أفقيّة وعموديّة في داخل المستطيل الثّاني، حتى اصطفّت بداخله مجموعة مربّعاتٍ متساوية. رسم خلفها بابًا بدرفات خشبيّة مقفلةٍ وآخر بدرفاتٍ مشرّعة.

ردّد جليل ما قاله، وأكّد أنّ الفنادق هي للسّياحة لا لأهل البلاد. فلم يكن هناك داعٍ لدخولها.

تمعّن راجي بالصّور أمامه، فكاد يُلصق عينيه بالصّورة ليرى ما وراء الباب. سيّدة بثياب السّباحة خلفها ستائر إحدى الغرف يُلاعبها النّسيم، تبين من خلفها صورةٌ معلّقة على الحائط. حتى حين استعان بالمجهر، ظلّت الصّورة مغبّشةً، فيما وضحت ملامح المرأة. واستقرّ راجي على أنّها من أصلٍ أوروبي.

عاد جليل مستدركًا، فقال إنّه دخل مرّةً واحدة إلى فندق الفينيسيا برفقة جاك الواكد، وحضرا معرضًا للمفروشات الحديثة يتذكّر منها فراشًا وأرائك مائيّة لم يرَ مثلها من قبل.

اتّخذ راجي من أجوبة أبيه عنوانًا لرسوماته ولشغفه برصد الأبنية بأشكالها وألوانها. شعر أنّه ربّما، مثل أبيه، لم يزُرها ولم يكتشف ما فيها ليجذب الاخرين بروايته عنها. رآها صامتةً مهجورةً، ورأى البعض منها مسكونًا، لكنّه لبث ساكنًا. بتنا حسّاسين لأدنى جلبة، قال جليل ساخرًا مرّةً، حين نُعرت سارية من صفقة الباب. تُحرّك آذاننا مثل الكلاب لأيّ صوتٍ يصدر من حولنا. لكنّ الحساسيّة هذه تتخثّر أمام الأبنية، راح يفكّر راجي. ننصرف عن الأصوات التي تنبعث منها مهما علت ومهما عجّت فيها الحياة، ومهما تعشّشت وازدحمت على أدراجها الأحاديث والتحيّات والنّظرات والصيحات، ومهما كستها الأحزان وباركتها الأفراح. تبقى الأبنية على أشكالها نقيّة بصمتها. تحتضن تاريخها بصورها، وتقتني به كلّما شاخت، من دون أن تتمزّغ بأهواء النّاس وميولهم وأقوالهم وحساسيّاتهم. تبقى

جميلةً حتى من دون أن نتآلف مع من فيها. بل هي على العكس، تكشفُ سرّ جمالها صامتةً، وتُبدِّده إذا ما التهينا عنها بقصصٍ جانبيَّةٍ.

قال جليل إنَّه زار معظم صالات بيروت، وإنَّه شاهد فيلمين في سينما ريڤولي، ذكر له عنوانهما، وفيلمًا آخر في سينما الأمپير. أمَّا ما عدا صالات السينما، فكان يسترجع أيضًا أسماء المحال التي كان يرتادها، يدخلها مع أمّه في الصِّغر ثمَّ مع أصدقاء أيَّام انتسابه إلى كلِّيَّة الآداب، فلم يعُد يذكُر منهم سوى الواكد، أو مع سارية قبل الأحداث بقليل. كان مثله، ذهب راجي في تفكيره: يختالُ على حدود المدينة، يتآلف معها شيئًا فشيئًا، ويتذكَّر أسماء معالمها وأشكالها كأنَّه يتوق للذَّة الأولى التي حرَّكته أثناء اكتشافها. غير أنَّه، خلافًا لأبيه، اكتشف وسط بيروت على الورق مشرقًا في أيَّام الرَّبيع، يلمعُ بحر شديد الزرقة خلفه، تعبرُ فيه السُّفن من الغرب إلى الشرق. تآلف مع الورق، واقتنع بأنَّ ما يُحفظ في الصُّور سيظلّ خالدًا مهما استمرَّت الحروب. هكذا، ليأتي يومٌ تتشتَّت فيه أصوات النزاع، ويبقى كلُّ بناءٍ صورةً عن ماضيه. صورة جميلةً جامدة ليس فيها ما يشوبها، وإذا ما ظهر فيها أحدهم فيكون مهفهفًا ونظيفًا وخفيفًا، يظهرُ للحظة عند الشُّرفة، ويعود ليتوارى خلف الأبواب. حتى ما كان يراه من أبنية في شارع الحمراء، كان يتخيَّله هو أيضًا صورةً مطبوعةً على الورق. التفت إلى بناية المكتبة الكبيرة في شارع الحمراء وإلى بوَّابتها الحديديَّة الموصودة. ثمَّ انتقل إلى بناية محلّ القرطاسيَّة في شارع جان دارك. هذه الأبنية تصلحُ أن تُحفظ في صورٍ قديمة، راح يردِّد. نرجعُ بالزَّمن ثلاثة عشر عامًا ونلتقط لها صورًا جميلةً. نتردَّد على هذه الشَّوارع الخلفيَّة التي لم نرها في البطاقات ولا في الكتب. نُضيفها إلى صور الدَّليل السِّياحيّ. أمَّا اليوم، فسنضطر إلى تنقيتها من أسلاك الهاتف المتشابكة، ومن الزنجار عند زوايا شبابيكها، ومن ألواح خشبيَّة ومداميك وضعها سكَّانها عند المدخل، ومن ومن... كلُّ ما مضى كان جميلًا، تعلَّم من أبيه جليل حين روى له عن زياراته المتقطِّعة لبيروت مع أمّه طاهرة. كلّ الأيَّام كانت سعيدة بحسب رواية سارية وما جاء على لسان جدَّته فيوليت. خرج من شروده، وعاد إلى حاضره مصمِّمًا على الإنقلاب عليه. ينتزعه مثلما تُرفع الأغطية عن الأسرَّة. يُنظِّف ما خلَّفه من طبقة نتنة.. هكذا، مثلما كان يمسح الغبار عن طبقة الزُّجاج في بيت السدّ. يُسكتُ الحاضر ولا يستمعُ إلى ما يقول، حتى ينساه ويتغلَّب عليه. وإذا أراد له النطق، فليكن بلسان الحرب والدَّمار فقط. لن يقبل أحدٌ بالدَّمار عنوانًا لحاضره ومستقبله، لا بدَّ أن ينهزم هذا الزمن القبيح أمام عودة الأشياء إلى ما كانت عليه. ستعود ساحة البرج

إلى ماضيها، مثلما وصفها جليل وتتذكَّرها سارية. ستعود في يومٍ ما لا محالة، وسنرى حجر البازلت أمام مخفر الدَّرك كما صُوِّر في الكتاب. لن تعود أفضل من حالها الماضي، كما أخذت الإذاعات تُردِّد مهلِّلةً للزَّمن الجديد، إنَّما ستعود كما في الصُّور. تمامًا كما في الصُّور. كلَّما رسمَ أبنيةً دمَّرتها المعارك وجد نفسه مذعنًا لمفهوم الحاضر البشع. بهذا يُصبح مستقبلها مرتبطًا بعودتها كما كانت... تمامًا كما كانت.

دوَّن ما استطاع من ألوانٍ، وكتبها على قصاصة ورقٍ من دفتر الخرطوش. تنقَّل في الشَّوارع مع الفرهود، ثمَّ بمفرده، ثمَّ عاد ودعاه من جديدٍ ليرصدا الألوان التي يصادفانها. سلكا الطريق المعهود من شارع ليون إلى شارع جان دارك، ومن ثمَّ شارع الحمراء. إلى اليمين أو اليسار سأل الفرهود؟ إلى اليمين اليوم. فمجموعة البطاقات من المكتبة الشُفليّة اكتملت؛ وها نحن نُعيد مشوارنا المعهود مثل السَّابق، أجابه راجي مقتنعًا.

أصفر باهت وأصفر برتقالي كان لون بناية بيت مانويل آحو. أخضر، قال الفرهود مشيرًا إلى الدرابزين.

نعم، أخضر. غير أنَّ اللَّون الذي سندوِّنه هو لون البناء.

أنا أشيرُ إلى بنايتكم بالبناية الخضراء.

وكما يُعرِّفون بمَعلم تاريخي على التلفزيون، راح الفرهود يدلُّ على البنايات الواحدة بعد الأخرى ويصحبُ حركاته، التي جعلها نسائيَّةً مثل المذيعات، بالكلمات الرنَّانة. هنا، قال، بناية مستديرة لونها رملي، ولون الأسقف البادية من الشُّرفات أبيض، وشكل زجاج مصابيحها مربَّع، إلَّا في الطَّابق الثَّالث فهو مستدير، قد يكون أكل نصيبه من إحدى المعارك، واستبدله سكَّان البيت ظانِّين أنَّ الحرب انتهت. هكذا، يسترسل بشرحه، ثمَّ يهدأ فجأةً وينتقل إلى البناء المقابل. شعرَ راجي وهو يدوِّن، وكانا يحملقان بالأبنية، أنَّهما يُثيران فضول الرِّجال الواقفين أمام محالِّهم. قرَّب الورقة منه، والتقط القلم بحماسةِ مطيلًا من فترة الكتابة. سجَّل كلَّ ما أشار إليه الفرهود من تفاصيل. قطَّب حاجبيه ليوحي بجدِّيَّة عملهما. التفت إلى رجلٍ كهلٍ جاثمٍ عند المسمكة وعاد للكتابة. سأله عمَّا يفعلانه. نكتبُ تقريرًا عن بناياتِ الحيِ، أجابه باقتضاب، وعاد لينهمك بما يكتبه.

نسي الفرهود أنَّ اللَّون الأساسي الذي سيدوِّنه راجي ليس الأخضر أو الأسود أو الفيروزي من ألوان الدرابزين، بل هو لون الجدران الرَّمليَّة والصفراء والترابيَّة الدَّاكنة وغيرها. نبَّهه عند محلّ القرطاسيَّة في شارع

جان دارك: هنا بناية تشبه بناية راجي، قال مستمرًا في لعبته، لكنّ لونها أسود عوضًا عن الأخضر. تساءل متعجّبًا كيف تختلط على الفرهود الألوان، فيستوقفه لون العارضة الحديديّة قبل لون الجدران. لربّما يراها قبل أيّ شيءٍ آخر، حينما ينظر إلى الأعلى. تصدح على امتدادها بالأشكال المختلفة، تكبرُ وتتقلّص، تنحدرُ وتعلو، تتموّج وتستقيم مثل خطوط الكتابة، كأنّها كلمات متّصلة الحروف، لا تفهمها إلّا اذا اعتبرتها كلمةً واحدة تختصر كلَ المعاني.

أصفر، رملي، رملي وأبيض، بنّي غامق ونبيذي، أصفر، أزرق باهت، بُنّي فاتح... قرأ ما دوّنه من ألوانٍ. ثمّ قرأ الإضافات التي ألحقها بها عندما استفاض الفرهود بشرحه.

مصابيح الشُرفات مربّعة مقوّسة الأطراف، مستديرة أو مثلّثة. جميعها محدَودبة عند صفحتها الكبرى، إلّا عندما يكون الزُجاج بديلًا للنموذج القديم.

ماذا ستفعل بهذه اللّائحة؟

...لا شيء الآن، سأخبّئها.

لم يكن راجي قد فكّر بهدفٍ لهذا التحقيق الذي شغله وشغل صديقه لبعد ظهر كامل. لم تختمر الفكرة في رأسه إلى أن طرح الفرهود السؤال عليه، وراح يقترحُ عليه أن يستثمر جهودهما هذه، فيشتري ألوانًا من صناعة خفيفة يلوّن بها رسماته، يُعلّقها على الجدار ويعرضها أمام النّاس. أو إذا أرادَ أن يحتفظ بالنُسخة الأصليّة في ملفّه، يعدُ نسخةً ملوّنةً طبق الأصل عند المحلّ الجديد في أوّل شارع بلس. تكون نظيفةً ملساء مثل ورق كتُب المدرسة، قال الفرهود. وإذا أرادَ، وضعها في إطارٍ خشبيّ وباعها في المحلّات. هكذا تتصاعد معه الأفكار، فتزوغ عيناه وتبتعدان عن راجي، كأنّه بدأ منذ تلك اللّحظة بتحقيق الأرباح، وكأنّه اتّفق مع راجي على مشاركته بمشروعه.

أصفر باهت، رملي داكن، أبيض مائل إلى الزرقة، بنّي دامس، أبيض مائل إلى الزهريّ، نبيذيّ مطعّم بالبحص الأبيض والرّمادي، بنّي مائل إلى الاحمرار، أصفر باهت يختفي مُظهرًا خلفه صفحة ورقة الإسمنت الملساء.

خال راجي أنّ الفرهود مستمرٌ بتقليد مذيعيّ البرامج، حين عاد بعد شروده وسأله أيًا من الألوان يفضّل. وقبل أن يُجيبه بأنّه لا يفضّل أيًا منها، استطرد الفرهود وأخبره عن سيّارات الأجرة في نيويورك. كلُها صفراء.

ممنوعٌ عليك أن تقتني سيّارةً بلونٍ آخر إن كُنتَ سائق سيّارة تاكسي. هكذا يجبُ أن تكون السّيّارات والبيوت، قال. كلُها بلونٍ موحَّدٍ. أبيض، على الأرجح، مثل جدران البيوت الدّاخليّة.

بهذا، ينكفئ دورك في وصف البنايات كما تفعل اليوم، وننتهي من نزهتنا بعد وصف البناية الأولى.

لا، قد تتغيَّر الأشكال، لكنَّ اللّون واحد؛ أو تتغيَّر الألوان ويبقى الشكل واحدًا.

كما تريد.

حسنًا.. عاد مردفًا: ما هو لونك المفضَّل للبنايات؟

تملَّص راجي من الإجابة من جديد. ثمَّ عاد وقرَّب السُّؤال إليه، كأنَّه لم يكن قد فهم فحواه بدايةً. من بين الألوان قد يختار لونًا، لا ليستبدل الألوان الأخرى به، إنَّما ليكون له فُسحةٌ بين البنايات. فُسحة يستريحُ بها نظره كلَّما نهب الأرض في مشاويره وهو ينظرُ إلى الأعلى.

اللّون الأصفر. مثل سيّارات التاكسي في نيويورك، أردف مازحًا.

اللّون الأصفر، مثل بيتكم، أجابه الفرهود. أنا لا أحبّه، لأنَّه يذبلُ سريعًا مثل أوراق الخريف.

ربَّما لم يُعجبه جوابه، فكَّر راجي. لربَّما توقَّع أن يُشيرَ إلى لونٍ أمامهما استسهالًا، أو من البناية الحديثة وسط شارع جان دارك، أو حتى أن يُحدِّد أيَ تدرُّجٍ من الأصفر يختار بين تشكيلة الألوان، فيُجيبه مثلًا: الأصفر الدّاكن أو الأصفر المائل إلى التُّرابي.

إجتازا سينما إلدورادو، وعاد الفرهود إلى لعبته أمام بناية محلَ الثحف الشرقيّة.

«هذه ثالث بناية نراها اليوم تحتوي على نموذج درابزين بيت الأستاذ راجي. تتألَّف من طابقين، لونها أصفر باهت مثل بنايته. لكنَّ سكَّان الطابق الثاني استبدلوه بطلاءٍ جديد مائل إلى البياض.» وعاد ليختتم وصلته بكلمة «برافو عليهم!».

ألن تُدوِّن ما أقول؟

لا داعي، لقد حفظتُ كلّ كلمةٍ قلتها.

انعطفا يمينًا قبل مقهى الويمبي، ثمَّ تفرَّقا في شارع ليون، ليمضي الفرهود إلى مدخل بيته خلف بناية راجي، بناية مانويل آحو.

فتح راجي الورقة التي تمسّك بها طوال النزهة. بقيت فيها مساحةٌ شاغرة للكتابة. اتّكأ على حافّة الحديقة اليابسة أمام مدخل البناية. أمسك القلم، ودوّن:

يتألّف اللّون الأصفر من ثلاث أو أربع درجات على الأقلّ، تتحدّد كالتّالي: الأصفر الباهت، في الأماكن التي لا سقف فوقها ليحجُب سيول مياه الأمطار، إذ تغسلُ الطّلاء وتمحوه مع مرور الزّمن. هكذا مثل الحائط الممتدّ من فوق البوّابة الخضراء إلى أعلى البناية، أو مثل الحافّة الخارجيّة أسفل درابزين الشرفات.

درجة اللّون الأصفر الثّانية هي درجة الأصفر المعتدل التي نراها على جدران الشُرفات المختبئة من الأمطار، أو تحت حواجب النّوافذ.

أمّا الدّرجة الثّالثة، فهي بدون شكّ الأقرب إلى اللّون الأصلي.نراها في سقف الشُرفات. أصفر فاقعًا مثل لُبّ زهور الرّبيع، كانت تُنيرها المصابيح أيّام زمان.

ثمّ أضاف صنفًا رابعًا، أطلق عليه إسم الأصفر المُعتّق. أصفر داكن تجدهُ في داخل الأبنية، مثل المدخل أو تحت الأدراج حيث علّقت خزائن معدنيّة لساعات الكهرباء، تراكم الغبارُ فوقه، فبات يميلُ إلى لونٍ جديدٍ يُشبه النبيذ الأحمر داخل زجاجته.

تأكّد أنّ الوصف هذا سينال رضا الفرهود. فهو يستنفر ويُعارض ما يقولهُ راجي عند كلّ بداية حديث، ثمّ يعتدلُ ويلين، إلى أن يتبنّى الرأي كاملًا في النهاية. هكذا، مثل الطفل الوديع...

فاليري،

أتمنى فقط أن تكونوا بمنأى عن الأحداث الأخيرة. رأينا صورًا نُسبتْها إلى حيّ المرفأ والكرنتينا، ولم أعرف بدقّة ما يجري في غرب بيروت. سمعت أنّ سميث وبيضون فرغا من المؤن. أهذا صحيح؟ تخيَّلي أنّه بعد كلّ ما جرى في السنوات الثلاث المنصرمة، لا يزال هناك أميركيّون يجهلون أين يقع لبنان على الخارطة.

نحن في فلوريدا منذ يومين، مارك وأنا. الطقس ماطرٌ في ميامي، وليس مشمسًا كما في الصُورة، وليس كما شواطئ بيروت في شهر آب. مررت بفندق ذكّرني بالفينيسيا. يبدو أنّ بيروت تُلاحقني...

أنتظرُ أخباركما بفارغ الصبر.

بريدا

ميامي، ٣١ تموز

١٩٧٨

تنزّهت في الحيّ وصولًا حتى الكورنيش قبل دخول المبنى. وصلت عند السّابعة والنّصف، قالت حين سألتها إذا وجدت العنوان بسهولة.

سأدعها تسأل كما تشاء. سوف أعرف عمّا قليل إذا كانت تدّعي الاهتمام بعملي للتحقّق من أمرٍ ما، أم أنّها كانت فعلًا تريد التعرّف على مشاريعي، ربّما لنشرها بين معارفها.

لم تسأل الكثير أوّلًا. تحدّثت عن صور الموقع وعن المجموعات الثلاث.

ثمّ سألتني عن التسلسل بين الصّور، وعن سبب إصراري على فرض رابط بينها. لم أعطها إجابةً شافية على الأرجح. لن أعطيها الكثير، قلتُ. علّها تنزلق في حديثها وتُفصح من تلقاء نفسها عمّا تبحثُ عنه.

تتبّعتُ تعابيرها. اختلفت عن الأمس. بدت أكثر رصانة، كأنّها في جلسةٍ رسميّة. تتكلّم بهدوء وتقتصد من ضحكتها الرّنانة وهي تتحدّثُ عن اختلاف نوعيّة المارّة على الكورنيش بين الصّباح والمساء. باتت تنظرُ إليّ بوقارٍ. تعتبرُ، ربّما، أنّي بعمر والدها أو أنّي مصوّرٌ معروف، أو كنتُ مشهورًا، أو ما شابه.. تطأطئُ رأسها وهي تمدّ رقبتها إلى الأمام مبتسمةً. تخالُها حائرة بما تقول. ساد صمتٌ، فوجدتُ حلًّا بأن أبادرها أنا ببعض الأسئلة عن أمورها هي.

ماذا تُصوّرين عادةً؟

آه، لقد حسمت الأمر أنّي أصوّر؟ قالت بابتسامةٍ أرجعت إليها عفويّة اللّيلة الماضية.

ماذا تُحبّين في التّصوير؟

ترقّبتُ جوابها، فأتت بردٍّ أقنعني بجدّيّتها.

اللّقطات التي تُجرّد الصّور من ارتباطها الجغرافيّ.

لو قالت لي إنّها تحب كلّ الأنواع، لما كنتُ سأتكبّد عناء خوض نقاش جديد. وبالرّغم من أنّ جوابها لم يخلُ من بعض الفذلكة، فقد أتاح لي أن أتوسّع معها في نقاش مفيد.

حدّدي أكثر.

يعني الصّور التي تجعل من المكان حالةً غير ملموسة. كأنّها في

الخيال. كأنَّها توثِّق للأمكنة في حزنها وفرحها و...

فذلكة! قلت في نفسي.

مثل صورة الدُكَّان.

ما بها صورة الدُكَّان؟

تردَّدت هنا، ثمَّ تابعت.

تُنسيك أنَّك في متجرٍ. تشعر كأنَّك في أيِّ مكان آخر. فنظرة البائع طاغية على المشهد. قد تتكرَّر الحالة في مكان بوظيفة أخرى، مكتب أو ملهى أو غيره...

أو بيت...

لا، في البيت لا. حدَّةُ ردَّةِ الفعل تدلّ على غياب الإلفة بين حامل العدسة ومن أمامه.

في البيوت أيضًا، قد يتفاجأ بك النَّاس وبآلة التَّصوير. أعني بالبيوت تلك التي كنَّا عهدناها أيَّام صغرنا، في صغري أنا على الأقلّ، ملأى بالنَّاس والأولاد والكبار في السِّن. تغافلين شخصًا في غرفته لم يعرف بوجودك، طفلًا يستحمّ أو امرأةً تُرضع ابنها أو رجلًا يغسل وجبة أسنانه، تكسرين الحاجز هنا أيضًا.

رأيتني أنجرّ في حديثها. قد تكون فعلًا لا تبحثُ عن أيِّ شيء، وقد يكون اهتمامها بالتَّصوير هو ما حملها على طرح بعض الأسئلة. وقد أكونُ أنا من توهَّم أنَّها ستدفعني للكلام عمَّا ضاع من عملي، قلتُ ذلك في ذهني.. إلى أن عادت وتكلَّمت.

البيوت هي المخبأ. هي المكان الذي نتوارى فيه عن الأنظار، وهي بطبيعة الحال كالصَّدفة التي تحمينا.

عدتُ حائرًا.

«وماذا عن ذلك؟» سألتها بحذرٍ.

المقصود أنَّك تتوقَّع من أيِّ شخص يطأ بيتك أن يحترم رموز التواصل فيه، وأن يكون تعاطيه مع الآخرين ضمن شروط غير معلنة، لكنَّها واضحة. فحتى عندما تفاجئه بعدستك، لن يستنكر أو ينفعل كردَّة فعله في المكان العام.

لا! هذا يعود لمرونة المصوِّر في البيت أو في الشارع.

«إيه... ممكن»، قالت وابتسمت.

عالجتُ انفعالي بضحكةٍ عصبيَّة، واقترحتُ عليها أن ترافقني إلى

المطبخ، حيث وضعتُ أطباق الموالح وغيرها. رحتُ أطرد أفكارها وأنا أفتح أكياس التشيبس. سنطلبُ عشاءً بعد قليل من أحد المطاعم المجاورة. البيت هو المخبأ والمخبأ هو البيت... يا لهذا الحديث! الجوّ كان أصفى بالأمس. أكثر خفّةً...

كيس فستق. المخلّل والموالح. شرحاتٌ من الجبنة الصَفراء. قد نكتفي بهذه الأطعمة.

«دعني أساعدك»، قالت.

ظللتُ شاخصًا صوب المجلى وهي خلفي. لمعت الصُورة من جديد. صورتي أمام المجلى في ذلك البيت. شعرتُ بطزقات قلبي، كما لو كنتُ وثبتُ من أعلى الدرج إلى أسفلٍ. تبدّد المشهد بسرعة، فاستدرتُ نحوها.

«هل كنتِ تعرفينني من قبل الأمس؟» قلتُ لها بحسمٍ.

تظاهرت بالابتسامة والتعجُب أوّلًا، ثمّ تكلّمت.

«دعنا نعُد إلى الشُرفة»، أجابت وقد احمرَّ وجهها وتلاشت الابتسامة عنه.

خفض روكز نبرته، وتحدث بحنانٍ بالغ.

ماضيك ليس أغبر اللّون، قال. بل هو من ألوان مختلفة. فيها القاتم وفيها الملوّن. توقّف عن كلامه، كأنّه أنهى ما أراد أن يقوله، والتفت صوب راجي موحيًا أنّ الكلام له.

الماضي ملوّن، لكنّه ليس زهريًا، قال راجي. فيه البرتقالي والأصفر والأزرق والبنّي القاتم والأسود. أمّا الألوان الزاهية، فلم تحظَ بفرصة لتطفو على صفحات الماضي وتصبح هي القصّة وهي الرواية. بل ظلّت مختبئة خلف رداءٍ بُنّي كالح دمجَ الماضي كتلةً واحدة، وجعله رتيبًا يتخبّط في آلامه. ذكّرته الألوان بحرامٍ من الصّوف حاكته جدّته فيوليت. قسّمته إلى مربّعات ملوّنة، وربطتها جميعها بخيطٍ من اللّون الأسود. أبيض وأزرق وأصفر وزهري وليلكي جمعها السّواد، وظلّت جليّةً مسيّجة باللّون القاتم.

أخذته افتراضيّة روكز في رحلةٍ تثبُ بين رؤيته الأولى للماضي وبين قراءةٍ جديدة يُغلقُ فيها عينيه عن اللّون القاتم.

«لا تُغمض عينيك عنها، بل اجعل منها إطارًا للماضي في مرحلةٍ أولى لا غشاءَ له. ستبني ثقةً مع ذاكرتك شيئًا فشيئًا، لتتمكّن بعد مدّة من أن تخصّص للسّواد خانةً واحدة مستقلّة إسوةً بسائر الألوان. شيئًا فشيئًا سيفقد اللّون القاتم سيطرته على الألوان الأخرى بالرّغم من حضوره الأكيد. ستُحِلّ الخيطان السّوداء كما في حرام الصّوف، لتُحوّلها من نطاقٍ لا شكل له إلى مربّعٍ واحد، ولا خوف منه من أن يُلوّثَ البِقاعَ الأخرى.»

لم يعُد من الصّعب عليه أن يسترجع أيّام اللّهو بالتّراب وبناء البيوت مع الأولاد اللّاجئين من العاصمة هربًا من احتدام المعارك ساحلًا. بدأت صورته لهذه الحقبة تتخلّى تدريجيًا عن إطارها الأوّل. تعودُ إليه ذكريات اللّهو مع الأولاد، من غير أن يستحضر عبء الحرب والهموم الطاغية.

«ظهرت الصّورة صافيةً».

بيوت من الأحجار وعيدان الحطب نكسوها بالطّين وبالتبن. بنينا قريةً!

شيّدنا مدرسةً وبيتًا للمختار، ثمّ أضفنا صليبًا على بيت، فصار كنيسةً. وعدنا وفكّرنا بمئذنة من عيدان الحطب ربطناها بشريطٍ مطاطي، ثمّ لوّنّاها بالطّلاء الأبيض بلون الجامع في الحي المقابل. مرّت بنا زوجة

سيمون السّاذجة، وأصرّت أن تستدعي جارتها الحاجّة أم نديم لتستشيرها إذا ما كان يجوز أن نُصغّر الجامع والمئذنة في لعبتنا. التفتت يومها أمّ نديم صوبنا، وغمزتني بشيء من التواطؤ قائلة إنّ ذلك يعود لنوع الجامع، إذا كان للموارنة، فنعم. أمّا إذا كان للرّوم فلا وألف لا. ضحك الفتيان، وظلّت زوجة سيمون واقفة فاغرة الفم من غير حراك، لا تفقه ما يدور من أحاديث حولها. عادت وباركت لنا الحاجة أمّ نديم، وانصرفت في جلّ التفّاح.

قُلتَ لي إنّ الألم الذي طبعني جعل من الرّاجمة والجرّافة وآليّات الهدم واحدًا.

خوفي اليوم من آلات الهدم التي تقتلعُ الأبنية من بيروت يماثلُ تمامًا خوفي من الصاروخ الذي كان يخترقني صوته رعبًا في تلك الحرب. لكلٍّ من القلم والمسطرة وظيفة مختلفة، قلتَ لي. قد تستعين بالقلم ربّما لتُسطّر، لكنّ وظيفته الأولى مختلفة.»

ردّد روكز جملته يومها. ساد صمتٌ، ثمّ عاد ليقولها من جديد.

سعى أن يقتلع من راجي إقرارًا بأنّ ألمه اليوم، جرّاء هدم أبنية بيروت التي تشبّث بها في صغره، هو مختلفٌ عن وجعه أيّام الحروب المتتالية في الصغر.

«الجرّافة وراجمة الصواريخ مختلفتان، حتى لو أدتا الوظيفة ذاتها»، قال له.

لم يحظ من راجي يومها سوى بنظرة غائبة، مثل نظرة أبيه جليل، ترفض التصديق وتتمسّك بالصُّورة السّوداء لواقع اليوم.

«لكنّي اكتشفتُ اليوم من على شرفة المطبخ في شقّتي في شارع أرتوا، أنّي أمسيتُ ألتفتُ أكثر فأكثر إلى القسم الأخضر من الجبل.انسلختُ جزئيًا عمّا كان يُؤلمني، وعوضًا من أن أتحسّر على ما نُهش من أشجار الصّنوبر على التّلال فوق بيروت، نظرت إلى البقع الخضراء المتبقّية مثل مزقّ الصُّوف يلتفُّ من حولها السّواد».

لم يُشدَه راجي بالمنظر، كما يفعلُ زوّاره في طابقه العالي في شارع أرتوا، إنّما على الأقلّ بات يرى الصُّورة في حاضرها، يضع جانبًا رواية جدّته فيوليت ووصفها لمنظر البحر والجبل من بيوت بيروت الكاشفة، مثل بيت سيزار حيث سكنت سارية اليوم.

فتح ملفًا جديدًا على جهازه، وبدأ ينقل ما دوَّنه على قصاصات الورق بعد كلِّ جلسة. لاحظ أنَّه في كلِّ مرَّة يتناول الماضي فيها، يستهلّ جملهُ بعبارة «في ذهني كذا وكذا» من غير أن يستخدم ولو مرَّةً واحدة أفعال التذكُّر. كان يشعر أنَّه إذا ما لجأ إليها وطعَّم حديثه بجملٍ مثل: أتذكَّرُ أمِّي أو أذكرُ أبي في الظرف الفلاني، فإنَّه كمن يرتمي في أحضان النسيان، ويُشكِّك في قرب الصُّورة من حاضره. أمَّا تعبير «في ذهني» الذي كان يُدوِّنه على الورق، فهو تثبيتٌ لحقِّ الملكيَّة والأمانة على الذَّاكرة.

«أمتعض من ضعف ذاكرة أمِّي ونسيانها لأبسط الأمور، منذ انتهت الحرب وانتقلنا إلى بيت سيزار قريب جدَّتي في الظَّريف. كأنَّها لا تحافظ على المشاهد أمامها، ولا تسعى لتثبيت أفكارها في نقطة ما من تاريخها. سألتها إذا ما كانت زارت شارع بيتي الجديد قبل الحرب أيَّام دراستها في كلِّيَّة الآداب في بيروت. أجابتني بضبابيَّةٍ مازجة أيَّام سكننا في حيِّ السدّ بفترة إقامتنا في بيت مانويل في شارع ليون، وباتت تستعيد أيَّام طفولتنا أنا وأخي أثناء الحرب لا قبلها.»

نقل على ملفه الجديد ما كتبه على مجموعة أوراق على مكتبه. راجع كلَّ واحدةٍ منها، ثمَّ جمعها في ظرفٍ سجَّل عليه تاريخ اليوم ووضعها في الجارور.

الأوراق مكدَّسة في أرجاء الشقَّة الصغيرة. وها هي تتراكم يومًا بعد يوم، من غير أن يفكِّر برميها أو بترتيبها إلَّا نادرًا. ينتظر يومًا عظيمًا أواخر الرَّبيع وقبل اشتداد الحرّ، فينقضُّ على ما خلَّفه الموسم المنصرم من نثرات مناسبات ودعوات وبطاقات معايدة وفواتير وإيصالات وخرطشات وغيرها من بقايا الأيَّام. يجمع القليل منها في كيس صغير. يقرأ محتوى كلٍّ منها جيِّدًا، ثمَّ يمزِّقها قبل أن يُسقطها من يده صوب الكيس تحسُّبًا من أن يبدِّل رأيه.

وقع على إيصال شراء كتابٍ، أهداه لداني الكك في الثَّامن عشر من كانون الأوَّل. وقت الإصدار السَّاعة السَّادسة مساءً واثنتان وعشرون دقيقة، قبل موعد لقائهم بصديقة لداني عند السَّابعة. استهجن يومها كيف انشغلت بالتقاط صورٍ لهما في المطعم، وهي لم تُبدِ أيَّ انسجام معه هو. انهمكت بهاتفها تعالج مفتاح آلة التَّصوير. طلبت من راجي أن يلتقط لها صورة مع داني الكك. ثمَّ عانقته هو وجذبته صوبها، فاشتمَّ رائحة عطرٍ ذكَّره بصابون الغار. التقط داني صورةً لهما. ولم يحدث شيءٌ يذكر من بعدها.

لم يعد يلتقط صورًا للنّاس منذ سنواتٍ.

اصطفّت كلّ الصُور في كراتين الأحذية، ولم يعد يتفحّصها. تأكّد أنّ جميعها وصل إلى برّ الأمان بعد عودته قبل عامين وتناسى وجودها. لكنّه ظلّ مطمئنًا أنّها ما تزال في علب محكمة الإقفال. إلى أن نبّهته نورا الخازن في زيارة لها أنّ بيته رطبٌ، وأنّه لا بُدّ له من تهوئة العُلب قليلًا. عالج الأمر بأن فتح أغطية الكراتين، وأخرج من إحداها ألبومًا من أيّام الدّراسة الأولى، وتأكّد من أنّ كلّ الصُور المطبوعة سليمة. لفّته الكمّ الهائل من الأشخاص الذين مرُّوا به عابرين، ولم يبق منهم سوى القلائل يعرف عن أخبارهم من شبكات التّواصل.

وكمن وضع كامل ثقته في البيوت، شعر بعاطفته تُحجب تدريجيًا عن الأشخاص، حتى لا يبقى منهم سوى أجسامهم يزيّنون البيوت والشّوارع. أو أنّه على العكس، استرسل بتعلُّقه بالبيوت، لأنّ ما يربطه بالنّاس كان مهزوزًا متبدّلًا بين الفينة والفينة. أمّا البيوت، فهي هنا صلبة، تُذكّر بالنّاس من غير أن يقطنوها ويملأوها جلبةً.

أشرك روكز بذكرى تنقُّلهم صيفًا بين بيروت والكرك، يوم توقّف جليل مؤقتًا عن العبور إلى المنطقة الشرقيّة. مرُّوا عن طريق الكرامة الجديدة، وعبروا قرًى هُجّر منها أهاليها في حرب الجبل. وصف هياكل البيوت الفارغة وقد التصقت بها صورة من هجرها عَنوةً تاركًا تاريخه خلفه.

«أنت أيضًا انسلخت عن بيت السدّ، قال روكز، وتركت خلفك قصّة سنينك الأولى. وحتى لو أنّ حياة أمّك وحركتها قد باتت أسهل، فإنّك حملت منها عبء هجرتها من بيتها، وتأثّرت بحزن والدك بعد أن أصبح عاطلًا عن العمل عند قدومه إلى بيروت الغربيّة. بقيت لك البيوت تُكلّمها، تُقارنها بما اعتدت عليه من قبل. ترى أنّ البيوت يناقضُ بعضها بعضًا أحيانًا وتتشابه أحيانًا أخرى، لكنّها تعود في كلّ حالٍ لتنسجمَ بين بعضها بعضًا مهما كان. شعرت أنّها الأضعف واتّحدت بصمتها ووجعها.»

حثّه روكز على الكلام من جديد مثنيًا على جهوده التي بذلها في الجلسات السّابقة.

لم يشأ الاستيقاظ من غيبوبته. ولم يعرف كيف يوظّف ما وصل إليه في مسيرته في حياته اليوميّة. تساءل إذا كان سينسى، فخشي الفكرة. واستقرّ على فكرة تصفية ألمه لتحوُّلات المدينة القاسية من آلامه

الدَّفينة المتشعِّبة الضاربة في جذور طفولته. هزَّ رأسه استنكارًا أمام النسيان، وتعهَّد بأن يُعيد التنقيب من جديد.

«أكثر ما يؤذيني يقبع في أسفل الذَّاكرة. يضربُ ضرباتٍ خفافًا بوتيرة منتظمة حتى تكاد أن تنسى وجوده. ثمَّ ما تلبث أن تحِسَّ به، فتتململ في موضعك وتنشغل بما يقع عليه نظرك عند السَّطح. ما ابتدأت بكشفه في ورشة تنقيبي هذه هو الجرح الذي ما زلتُ عاجزًا عن البكاء منه. بل في كلّ مرَّةٍ أحاول فيها أن أسترخي وأن أطلق صرختي، أراه يحبسُ أنفاسي ويقذفني إلى الوراء. ألملم بعضي، وأعودُ صعودًا نحو الحاضر، وأسبحُ في بحر النكران.»

ضبط نفسَه كلَّما نزل نحو الأسفل، ثمَّ ارتفع تدريجيًا إلى أن يعود إلى فوق يرتاحُ قليلًا، يتنشَّق الهواء، ويُشير من بعدها إلى أشياء تطفو فوق السَّطح. يراها مطبَّات مبعثرة كرؤوس الصُّخور في البحر، فيعود ليغوص من جديد ساعيًا أن يكتشفها عن كثب.

استحسن روكز كلام راجي وصفن، مبتسمًا قبل أن يُعاوِدَ الكلام. هو البادئ في المشورة مع النَّفس والصِّدق معها. وإذا ما ازدحمت الأفكار من جديد، تسلَّح بما اكتسبه في مسيرته، وأخذ يعالجُ الأمور فكرةً خلف فكرة. يتناول قسطًا منها ويترك ما يعجز عن فتحه للوقت اللَّاحق.

«المرَّات القليلة التي كان يستأنسُ والدي فيها بالحديث معي كان بتناوله موضوع ذاكرة بيروت. كانت المدينة هي السَّبيل الوحيد لاستثارة عاطفته، أو كانت هي على الأقلّ التي تحظى بالاهتمام الاكبر.»

«أرى يا راجي أنَّ والدك يحتضن بيروت مبتعدًا عن بيت أهله، وقد عانقت أمّك الرِّيف والمدينة في آنٍ، وانبريتَ أنت تحميها برسوماتك وقد أضحت الملاذ الوحيد.»

قال داني الكك مرَّةً كلامًا عن معضلة التعاطي بالماضي. قالها، وهو يسترجع ذكريات الحرب وهروبهم من بيتهم الأوَّل عند خطوط التماس إلى بيروت الغربية أوَّلًا، ومن ثمَّ إلى الضواحي الشرقيَّة بعد سنوات.

«ليس بالمستحيل أن تتمتَّع بطفولةٍ سعيدة اليوم في سنّ الرُّشد».

لم يرَ راجي وقتئذٍ سبيلًا لشرح المقولة إلَّا في اللُّجوء إلى النكران. هكذا، يُبدِّد الأحداث المؤلمة، ويسحبُ الخيطان السَّوداء من الجِرام كي لا تبقى سوى الوقائع الزَّاهية. لم ترد في خاطره فكرة اقتلاع الخيوط السَّوداء من الإطار وتخصيص زاويةٍ واحدةٍ خاصَّةٍ بها، زاوية تعزلها عن

الباقي من الألوان.

إنّني أسيطرُ على الموقف، هكذا قُلت.

لا أدري كيف اعتدلت أجزاء الصُورة في ذهني. شدَدتُ على مخيلتي، ونطقتُ بهذا الاستنتاج: «أنت تعرفينني، إحساسي لا يُخطئ».

المرّة الأولى التي رأيتك فيها كانت بالأمس.

والثانية؟

كيف الثانية؟ الثانية اليوم.

قالتها باستغراب.

المرّة الثانية قبل الأمس.

سمعتُ عنك من كثيرين.

من؟

ارتجفت. أرعبتُها. سأصل إلى ما أريد لا محالة، فلا داعي للاستعجال. سأتأنّى في كلامي، السهرة لنا. السهرة لي.

لاحقين نحكي... لا داعي للاستعجال. هل تصوّرين؟

حنت رأسها من جديد راسمةً تعبيزا غريبًا على ثغرها، يشبه الإبتسامة.

نعم، في الحقيقة لقد أحضرت بعض الصُور لأعرضها عليك، إذا شئت...

لا مانع من ذلك أبدًا. ماذا تصوّرين؟

تمتمت كلامًا مبهمًا وهي تفتحُ جهازها.

لا، لا، حدّثيني عن مواضيع صورك قبل أن أراها.

عدّة مواضيع. يغلبُ عليها موضوع الأطفال. ألتقطها في إطار النّشاطات التي نُحييها في مركز الفنون.

فتحت مجموعتها، وراحت تُقلّبها.

جميل، قلتُ لها.

لقطاتها دقيقة ومُتأنّية. احترتُ ماذا أقول غير ذلك. ستعود وتُقرّ لي من تلقاء نفسها بأسماء من حدّثوها عنّي وبماذا حدّثوها. من جيل أهلها ربّما. إذا ما استثنيتُ الشّاب الذي جمعني بها في الأمس، ليس

هناك شخص آخر يربطنا على حدّ علمي إلّا إذا كان تابعًا للماضي، ماضي الحرب وما قبله اللذين يشغلانها. اكتفيتُ بلحظة الغياب هذه، وعدتُ إليها.

«تصوير الأطفال هو وسيلة لعبور الوقت».

شعرتُ أنّي أجاريها في فذلكتها في جملتي الأخيرة. لكنّي نجحتُ بإعادة الابتسامة الكاملة إلى وجهها.

«مظبوط... صور الأطفال تردُّك إلى طفولتك أنت»، قالت.

«ونظرًا لأنّ طفولتنا كان يشوبها جوّ الحرب المأساوي، فإنّ هذه الصُور بالنسبة لي هي وسيلة لتخطّي المرحلة تلك وجعلها أفضل وأهنأ». أزاحت خصلةً من شعرها عن جبينها وهي تنتقل بين الصُور، من دون أن تعلّق على أيٍّ منها. ثمّ أضافت: «لم يفُت الأوان حتى في عمرنا اليوم أن نعيش طفولةً سعيدة».

سمعتُ هذا الكلام من قبل، قاله لي أحدهم في إحدى الجلسات... أو ربّما أكون قد قرأته في مكانٍ ما. لم أتذكّر. أمّا هي، فبدت مفتونة بهذه العبارة، كما لو كان هذا الكلام بالذّات قد أعطاها الزّخم والحماس لكي تغوص في تجربتها.

«صوَرُكِ بالأبيض والأسود»، قلتُ لها.

«أخافُ من الألوان بعض الشيء»، أجابت.

سألتُها إذا كانت تخشى من تفاعلاتها المختلفة مع النّور، أو إذا كانت تتهرّب من عبء التعديل فيها. لم تُجب بشكلٍ شافٍ، ثمّ قالت شيئًا معناه أنّ الاستغناء عن الألوان وسيلة لها للتّركيز على المضمون، من حركةٍ أو من تعبير للأطفال. فلا تُشتّت النّظر في فورة الألوان التي تكثرُ في أماكن اللّعب والتّلوين مثلًا.

«هذا جوابٌ أكثر منطقيّة»، قلتُ ممازحًا.

ضحكت تمامًا مثلما كانت تضحك ليلة البارحة. في الأمس، كانت جالسة إلى يميني وليس أمامي مباشرةً مثل اليوم. رحتُ أتذكّر معيدًا تركيب المشهد. إلى جانبها ذلك الصديق...

«من أين لك هذه المقولة عن الطفولة السّعيدة وسنّ الرُّشد؟»، قلتُ كمَن تذكّر أمرًا عرضيًا أراد الاستفسار عنه.

«من أحد الأصدقاء، عايش الحرب مثلي»، أجابت.

لمعت صورةٌ في ذهني. اختلطت عليَّ الأمور. تذرّعتُ بأنّي

سأريها شيئًا على الجهاز يُناقض ما كانت تقوله حول الألوان. فتحتُ الموقع، وانتقلتُ فورًا إلى مجموعة التوائم وإلى صورة الدُّكّان تحديدًا. ما زال التعليقُ بالصِّيغة التي دُوِّن فيها في المرَّة الأولى منذ بضعة أشهرٍ: «شكرًا على هذه الصُّورة. ليس مستحيلًا أن نتمتَّع بطفولةٍ سعيدة اليوم في سنِّ الرُّشد».

التوقيع لم يكن لها. ربَّما تكون قد قرأت التعليق بين الأمس واليوم، إن كانت فعلًا لا تعرفني من قبل. أو كتبتهُ هي باسم مستخدم آخر. أو قد يكون التوقيع هو لهذا الصديق الذي أحجمت عن ذكر اسمه... حتى الآن.

مشهد الغرفة الأولى مظلم، كأنّ المكان لا يرى النّور أبدًا.

قال فراس من على سريره إنّ الكعك الذي تعدّه جدّته فيوليت غير صالحٍ للأكل.

«تقذفُ بقرص الكعك صوب الجدار يعود لك»، كما كان يقول لراجي.

إعتدلَ في مكانه قرب سرير أخيه في الغرفة الأولى في بيت شارع ليون. أومأ بالصّحن الطّائر المطاطي الذي في يده كيف يرمي الكعكة. حرّكه من دون أن يُفلت منه، وأصدر صوتًا يُشبه صوت الصّواريخ عندما تنطلق.

حضّرت فيوليت صينيّة كعك طبقًا لوصفة تعلّمتها من جارتهم في المصيطبة، المرحومة مارشا. أكثرت من حبّ اليانسون، واستخدمت قالبًا مستديرًا لتقطيع العجين وجدته سارية في مطبخ بيت آحو.

وصلت إلى بيتهم ليلة رأس السنة، خضعت لعمليّة في عينها، واندلعت حربُ الإلغاء بين ميليشيات المنطقة الشرقيّة، فاضطرّت إلى البقاء في بيت سارية في بيروت الغربيّة.

تمنّت لو أنّ هدنة تُعلن، ولو ليوم واحد، تعود خلالها إلى بيتها في الدّير. تستطيع العودة حتى بمفردها، قالت. فالبنزين عاد متوافرًا أكثر من الفترة الأولى للأزمة، كما بدا لها من عدد السّيّارات المتحرّكة على شاشة التّلفزيون في منطقة، ظنّت أنّها قريبة من نهر الموت. لكنّها لم تُدرك ما هي الخريطة الجديدة، وكم من الحواجز المستحدثة سيتوجّب عليها عبورها قبل الوصول إلى مفترق نهر ابراهيم ومحطّة سيّارات الأجرة. تمتمت صلاةً تطلبُ من الفائق قدسها والدة الإله أن تُخلّص جميع القوم، وتحمي دار ابنة زوجها المرحوم، ودارهم في القرية، وأن تُعيد السّلم والوئام لكلّ البلاد شرقًا وغربًا. فقدت الأمل بالتّواصل مع بيت مرهج، جيرانهم السّابقين في محيط مستشفى مار يوسف، حيث فُتحت جبهات عدّة على بعد أمتار منهم. لجأوا إلى الزلقا، قالت. أو ربّما هربوا عند أولى المعارك عند أقاربهم في أعالي المتن. كلُّ الشرقيّة تحترق. والكلام لا يتّسع لهول ما يجري. حمدت الله أنّ فيرا عادت وهاجرت مع زوجها مثل أختها سليمة قبل عامين بالرّغم من حزنها الدّائم على فراقهما، وانقطاع التواصل منذ تشرين الأوّل أو الثّاني الفائتين. ضربت كفًّا بكفٍّ، والتهت بصناعة الحلوى

بعد أن تأكّدت أنّ ما تحتاجه من طحين متوفّرٌ في كيس من الخامِ، حملته زهريّة لبيت جليل آخر الصّيف الماضي، واشترت من مالها هي مجمع حليبٍ ناشف بالحجم العائلي وكيلوغرامًا من السُكّر. عاتبتها سارية على مغافلتها لها والتفافها حول البيت صوب دكّان المعلّم، ثمّ قال لها جليل إنّهم لا يشترون أساسًا هذه الأغراض من الدُكّان، بل من التعاونيّات الإستهلاكيّة حيث سعر المجمع أرخص في أيّ حال. أردفت سارية أنّ فيوليت هكذا تُبذّر مالها، ولا داعي أساسًا لأن تتبضّع بأيّ من أغراض البيت. برّرت أنّها هكذا مطمئنّة أنّ عدّة التّحضير كلّها جاهزة للعيد القادم.

أعدّت الكعك لعيديْ الفصح المتزامنين في تلك السّنة، وعادت وحضّرت ضعف الكمّيّة آخر الشهر ذاته تزامنًا مع عيد الفطر.

بقي عيد الشجرة لم تقم بواجبه، قال فراس من على سريره.

أسند ظهره على وسادة ثبّتها بشكلٍ عموديّ صوب الحائط خلفه. ظهرت ملامح الضّجر على وجهه. أفلت الصّحن الطّائر من يده دافعًا به صوب حافّة السرير، فحطّ على مستوى رجليه الممدودتين. أكل راجي القطعتين عنه وعن فراس، وتعجّب كيف عجز أخوه عن إكمال قطعته، مقتنعًا بما قاله جليل عنه في ساعات غضبه، إنّه اذا أفلت على متجر لالتهم محتوياته وعاد ليتعشّى في البيت بعدها. لم يعد يُعجبه الطعام الذي تُعدّه سارية، وأخذ يغرفُ الطبخ بالخبز متى توافر، ويُضيف الجبنة المطبوخة خلسة إلى صحنه، يمرغها بالملعقة ويمزجها مع شتّى أنواع اليخنات.

خشي راجي أن يُنفّذ فراس ما يقوله حرفيًا، فيرمي قرص الكعك نحو الحائط. كان باب الغرفة مشرّعًا في غالب الأحيان، لكي تعكس البطّارية نورها على الممشى والغرفة في آن واحدٍ. لكنّ راجي كان أغلقه عندما دخل بصحن الكعك ورأى أخاه مستلقيًا. استحسن فراس ربّما ما فعله أخوه، فأسرّ له بهذا الكلام.

فعلًا، إنّه قاسٍ.

قاسٍ؟ قد يصلح للرمي على المحاور.

عاد ليقلّد صوت الصواريخ تنطلق وتنفجر.

ضحك راجي، وظلّ فراس يطلق سخريّته كلمةً بعد كلمة، من غير أن تتبدّد معالم الملل عنه. لم يستيقظ من سهوته إلّا حين اقتربت فيوليت من خلف الباب، فتبيّنها فراس من الزُجاج. غمز راجي، وألمح له أنّها خلف

الباب.

لم ينقص الكعك إلّا السمسم، قالت. ثمّ سألت اذا ما استحسنّاه.

بادر فراس وقال لها إنّه لذيذ جدًا، وليتها تعلّم سارية هذه الوصفة! انفجر راجي بالضحك.

ألم تأكل قرصين منه؟ قال فراس ببرودته.

بلى، لكنّ الماما لن تكتسب بهذه السرعة خبرة صنع الحلوى مثل جدّتي.

امتنع فراس في أكثر المناسبات من توجيه الحديث مباشرةً إلى جدّته. لاحظ راجي إحراجه وانزعاجه أحيانًا من أسئلتها، وكأنّه ما يزال طفلًا. وها هو قد أتمّ الخامسة عشرة من عمره. تعزو فيوليت تصرّفه لكونه شَبَه أبيه، لا يتكلّم إلّا في ما ندر. أمّا إذا طاب له الجوّ، فيصبح ألطف من كلّ الحاضرين. وأمّا راجي، فقد رجّح أنّ فراس بات يمقت نساء العائلة الكبيرات في السّن. يبتعد عنهنّ ويلتهي بمجلّاته، أو يخرج ليمارس حركات بدنيّة كأنّه يتصارع مع أحدهم. عكسه هو. يجلس معهن، بل يتسمّر للاستماع لأخبارهنّ. استعجل فراس لينسحب حين جلست بينهما فيوليت مرّةً في غرفة الطعام، فسارع راجي لسؤالها عن أمرٍ يرتبطُ ببيتها في القرية، أو بفتح موضوع ذكريات بيروت والمصيطبة من جديد.

أخبرها عن استغراب أولاد القرية، وعلى رأسهم إبنتي سيمون، كيف يُنسب البيت إليها قائلًا بيت جدّتي، بدلًا من بيت جدّي! لم يقل لها ما تلفّظت به ابنة سيمون الصُغرى أنّ هذه أصلًا ليست جدّته، ثمّ إنّ البيت بناه جدّه ميخائيل رحمه الله. وفي جميع الأحوال، حرامٌ عندنا، نحن المسيحيّين، وعندكم، أنتم المسلمين، أن تُنسب ملكيّة البيت لامرأة. وإذا أردت أن تتأكّد، فاسأل أمّي، أي تيريز، تقول له.

برّر لها انزعاج فراس من أسئلتها، فاختلق لها روايةً عن مضايقات من مديرة المدرسة، وأسهب قائلًا إنّ فراس ينقبضُ إذا ما سأله أيّ منهم، بمن فيهم هو، عن أيّ أمرٍ كان عن الدّراسة أو الطّعام أو عن أصدقائه.

لكنّ فراس كان يعمّم حساسيّته هذه على أفراد العائلة جميعًا، بمن فيها عمّته زهريّة، وعمّته ابتسام التي قامت بزيارتهم في بيت شارع ليون مرّة واحدة فقط مع زوجها.

يتوجّس من السّلام ومصافحة الزوّار. ينتظر مرور عشر دقائق

محترمًا تعليمات جليل، ثمَّ يغادر الجلسة. هكذا، من دون أن يستسنح ظرفًا مؤاتيًا أو أن يستأذن بكلمة، يقوم بعد عشر دقائق كأنَّه أنهى مهمَّةً ما، ويتَّجه نحو الغرفة الأولى مغلقًا الباب نصف إغلاقة.

عندما انتهت سارية من سؤالها يومًا، وهي متَّكئة على سريره، عمَّا يزعجه. لم يُجب. انتظرها أن تخرجَ من الباب، وحمل كتاب العلوم الطبيعيَّة ليقنعها بأنَّها تلهيه بأسئلتها عن مراجعته لامتحان آخر السَّنة. كانت قد تعجَّبت لماذا توقَّف عن الذهاب إلى نادي المدرسة. حتى الفرهود صديق راجي طالعه يومًا بالسؤال عن أخيه الأكبر، مستفسرًا عن غيابه عن ساعات الرِّياضة الإضافيَّة، كما علم من أخيه الأكبر في صفّ فراس. اكتفى جليل بهزِّ رأسه شذرًا، وعمِل على إخفاء مجمع الحليب الذي كان يختطف منه كمِّيَّات كبيرة بعد الغداء.

لكنَّه ظلَّ مثابرًا على دراسته، كما ألمح راجي لوالديه، حين تبيَّن من حديث سارية أنَّ الكلام عن أخيه. ابتسمت له، وطلبت منه ألّا يُخبر فراس بأنَّها اختلت بجليل لمعالجة أموره. ونظر إليه جليل بصمتٍ من غير أن يغضب لمداخلته. تابع راجي رسمه. رسم صورةً مستوحاةً من بطاقة فندق السان جورج. مبنًى صغيرًا بحجم مربَّع وفتحات متشابهة وشرفة تدور من حولها. أضاف على سطحه إعلانًا كبيرًا، مثل الإعلان الذي شاهده في كتاب مانويل آحو، كتب عليه كلمة «أوريانت ORIENT».

رآه فراس وبيده قلم الحبر الأسود على ضوء البطارية الذي كان يخبو، بعد ثلاث ساعات من الاستعمال بُعيد التَّاسعة أو التَّاسعة والنِّصف. اقترب منه ليرى ماذا يرسم. فاجأه بأنَّه تعرَّف على البناء، بل وقد سمَّاه له، وأضاف أنَّ شقيق الفرهود يقصد مسبح الفندق المهجور أحيانًا مع أقرباء له.

والفرهود؟

لا أعرف. إنَّه صديقك، فاسأله أنت.

أحدث كلام فراس هوةً جديدة بينه وبين الفرهود، وبات يترقَّب نهار العودة إلى المدرسة نهار الإثنين، ليسأله إذا كان قد رافق أخاه إلى مسبح السان جورج فعلًا، وإذا فعل يستفسرُ عن سبب عدم بوحه بذلك، حين استعرضا البطاقات في المكتبة في العامِ الماضي قبل الحربين المتتاليتين. أمل أن يكون فراس مخطئًا، ولم يُدرك ما الذي استفزَّه حينها. غمغم بكلمات كمن يستطلع إذا ما كان أخوه يقول الحقيقة أو لا. عاد

فراس إلى سريره. بين يديه كتاب العلوم الطبيعيّة.

ربّما يذهبان إلى الريفيرا لا السان جورج، لقد أخطأتُ بين المسبحَين.

انشرح راجي، وانكبّ على رسمه لينهيه سريعًا.

بماذا حلمت أمس؟

تناول جرعةً من كوب المياه قربه، وركّز نظره على الكتاب أمامه. لم يترك المجال لراجي للإجابة، حيث إنّه كان يسأله فقط ليبادر فيروي ما رأى هو.

أنا حلمتُ أنّنا في بيت زهريّة مختبئين في غرفة التخت النحاسي. كان معنا مدرّس مادّة العلوم الطبيعيّة جاثمًا عند الباب، ينظر بعيدًا ويطمئننا قائلًا: «لا تخافوا. القصف بعيد»، ثمّ صدحت به زهريّة قائلةً «يا حاج. ابتعد عن النّافذة كي لا تصاب من تناثر الزُّجاج». خجلتُ أنّها تناديه بالحاجّ، والتصقتُ ببلاط الأرض، أهرب من إحراجي. فجأةً، صرت في بيت السدّ مع زميلين في المدرسة. قالا إنّهما مصمّمان على العودة سيرًا إلى بيتهما. أجبتُ أنّ الأمر مستحيلٌ، فالحربُ مستعرَةٌ في الشرقيّة. أجاباني في اللّحظة عينها «نحنُ الآن في الشرقيّة». وصحوتُ عندها.

تبرّع فراس بالكلام، وغاص في سهوته والكتاب بين يديه. لم يعرِف راجي إذا كان فراس لا يزال يترقّب إجابته، إلى أن عاجله بسؤال آخر:

هل تتذكّر بيت السدّ؟

نعم.

هل تذكُر المساحة على الشُّرفة خلف العمود، حيث كنّا نختبئ عن أبينا في لعبة الغمّيضة؟

لا.

لم يذكُر لعبة الغمّيضة، ولم يتذكّر إلّا اللّحظات الجميلة قبل شروق الشمس وحفلة عيد ميلاد ابن الجيران، ومنظر أمّ الياس مستوية على أريكةٍ أمام دكّانها، وملامح لطريق المدرسة يمرُّ اليوم كالسّراب، لامعًا تحت الشّمس الحارقة. تذكّر لون درف الخشبة والعَتَبة الفاصلة بين الغرفة والشُّرفة. تذكّر قناةً محفورةً فيها، تمتلىء مياهًا حين كانت سارية تشطف غرف البيت أيّام العطلة. فاته مخبأ لعبة الغمّيضة، وفاته أيضًا أنّ والدهما جليل كان يلعبُ معهما هذه اللُّعبة.

هل حان الوقت لأن أواجهها من جديد وبلهجة حاسمة؟

ليس فضولًا، لا. بل كان إحساسًا بالقلق والانزعاج كالغطاء الذي يلازمك لحظات الخوف. قلق، لأنَّك غدت تتخبَّط مع المجهول؛ وانزعاج، لأنَّك أدركت أنَّك كنت توهم نفسك أنَّك تخطَّيت الماضي، الماضي وشظاياه.

لن نطلُب طعامًا جاهزًا على الأرجح، ولن أضطرَ لأن أضيِّع وقتي ووحدات الهاتف قبل أن يستدلَ موظَّفو المطاعم على البناية. أكملت قنينتها، فأحضرت قنينتين أخريين من الدّاخل. لم ترافقني هذه المرَّة، ولم أدعُها أساسًا لذلك، كأنَّنا غدنا فرسمنا حدودًا في ما بيننا. تراجعت حدَّتي ولجمتُ انفعالاتي، غير أنَّ المواقف الغريبة المتتالية كانت قد أثقلتني إلى حدّ كبير. من هم أولئك الذين يعرفونني ويعرفونها؟ من نبَّهها إلى نشاطاتي القديمة بداية الحرب؟ البلد صغيرٌ جدًّا والجميع يعرف الجميع، غير أنِّي توخَّيتُ الحذر منذ عودتي، وابتعدتُ عن كلّ من كان وما كان يذكِّرني بتلك الحقبة. حتى مشروع الموقع الإلكتروني جاء ليشكِّل حدًّا فاصلًا ونهائيًا بين تفاعلي مع النَّاس وعلاقاتي بهم وبين ما أنتجه من نشاطٍ مهني. فلينظر إليَّ الجميع من خلال الصُّور، قلتُ يوم عودتي لحمل آلة التَّصوير. فلينشغلوا عن حياتي الخاصَّة القديمة ويعتبروها ولَّت. فليبق من تلك الأيَّام القليل من الصُّور التي تتهافت عليها نخبة من الزبائن لشرائها بأعلى المبالغ، متغنِّين باقتنائهم لصورٍ من بيروت من بداية الحرب. اختفيتُ ورجعتُ خفيفًا أتسامر مع الشُّبَّان والشَّابات من طلَّابي ومحيطي الجديد. يتسلَّلون من عالمهم إلى عالمي، فأغتني أنا بأخبارهم، وأنطلق معهم سعيدًا نحو هذا الزَّمن الجديد.

وضعت جهازها جانبًا على أرض الشُّرفة. حديثنا الآن سيكون بالتَّأكيد عن معارف مشتركين وعن من انتدبها، إذا صدق ظنِّي، لتستفسر عن أعمالي التي فُقدت. أخبرتني عن شقَّتها الجديدة الشبيهة ببيتي الصَّغير، ثمَّ عن بيت أهلها. جعلتُ أفكِّر إذا كنتُ أعرف أيًّا منهم. بالأرجح لا، ولم يمرّ ببالي إلَّا رسَّام حمل هذه الشهرة. كنت أشتري منه أنابيب التَّلوين في فترةٍ زمنيَّةٍ محدودةٍ، حاولتُ فيها الرَّسم على القماش المضغوط حين حوصرنا في إحدى المعارك. رميتها جميعًا أو تركتها في ذلك البيت، ما عدتُ أذكُر.

أتجرَّأ على مخاطبة الآخرين حين يخفّ انفعالي. تترسَّب الأفكار

الضَّاغطة في رأسي، فأستعيد مهارة الكلام.

«أعجبني تعليقك على صورة الدُكَّان»، قلتُ لها مبتسمًا.

«الصُورة جميلة جدًا، لكنِّي لا أذكر أنِّي علَّقتُ عليها»، أجابت بتأكيدٍ.

«بلى. قمتِ بذلك».

«آه، ربَّما... سألتُك أيضًا على الموقع عن طريقة اختيارك لعناوين الصُور».

لم تُقم وزنًا لسؤالي. ربَّما لأنَّها فعلًا لم تكتُب ذلك التعليق. ولو كانت قرأته بالأمس القريب، لكانت تذكَّرت مكان ظهوره، أي تحت صورة الدُكَّان. وكانت تذكَّرت مضمون التعليق نظرًا لدقَّة ملاحظتها، وأكَّدت أو نفت نسبه إليه. «ربَّما» لا تعني بها شيئًا. لا بدّ من أن أريها التعليق على الموقع، قلتُ.

«أعني التَّعليق الذي ذكرتِ فيه ما قلتِه قبل قليل عن الطفولة السَّعيدة. ظننتُ أنَّ صورة الدُكَّان قد ذكَّرتك بشيء».

بدت كأنَّها لا تفهم، فأريتها التعليق على الموقع.

«هذا توارد أفكار»، قالت.

«لا، هذه فكرة دقيقة وعميقة قلَّما تُصاغ بهذا الأسلوب»، أجبتها بعصبيَّةٍ لم أعد قادرًا على كبتها. تحوَّلت جلستنا إلى حلبة حوار وجدال بعيدة كلَّ البعد عن سهرة الأمس.

لم أنتبه لوجودها بالأمس صراحة!

لو انتبهت، ماذا كان حصل؟

كنت قلت لك إنِّي قرأتها بكلِّ بساطة.

أو تجنَّبتِ ذكرها وأنت تعرضين صور الأطفال.

ارتبكت. كأنَّنا في رحلة تصفية حسابات، ما عدتُ قادرًا على ضبطها. تأكَّدت أنِّي كنتُ أشكُ فيها منذ اللَّحظة الأولى. عاد إلى ذهني سؤالي الأوَّل «لماذا السُؤال عن أعمالي السَّابقة، ماذا تعرفين عنها؟». التهبتْ في داخلي. خافت منِّي. أنا في منامٍ قلتُ، لا أختارُ ما أراه.. اخترق صمتنا هدير طائرةٍ تحطّ في مطار بيروت جنوبًا. لم أسألها السُؤال، ظلَّ عالقًا في فمي. لم يُعدِّل هذا الجوّ المشحون سوى كلام خرج منها بنبرةٍ منخفضة، أرادته اعتذارًا أو وسيلة جديدة للتقرُّب بعيدة عن الصُور.

«أعتذرُ منك إذا أسأتُ إليك بشيء. أنا فعلًا لم أقرأ هذا التعليق، ولم أنتبه إليه من قبل. وأنا أُقدِّر لك أنَّك استضفتني هنا في مركز عملك وبيتك. قال لي داني إنِّي محظوظة بذلك، فأنت لا تلتقي بالآخرين إلَّا خارجًا».

«من داني؟»، نسيتُ الإسم فجأة.

«داني! داني صديقنا الذي كنت معه بالأمس. داني الكك!» قالتها بتعجُّب.

«داني الكك. نعم، أعرفه منذ بضعة أسابيع فقط. أعتذرُ منك إذا أزعجتك»، أجبتها. اعتذرتُ منها ونهضتُ صوب المطبخ.

«سأعودُ إلى الفودكا. هل تسايرينني بكأسٍ؟» قلتُ لها، وقد صرتُ بين الشُّرفة والغرفة وراءها.

«with pleasure»، أجابت وهي تمدُّ يدها صوب الحقيبة إلى يسارها. لم تنهض بالرَّغم من أنِّي توقَّعت منها ذلك لكسر هذه الهوَّة التي ارتسمت بيننا منذ لحظات.

كأسان من الفودكا. ثلاث قطع ثلج في كلٍّ منها. أعددت كأسها، مثلما أُعدّ كأسي تمامًا، من غير أن أشعر بوجوب سؤالها عمَّا إذا كان لديها أيّ تفضيل. ثمَّ تراجعتُ، اتَّجهتُ صوب الغرفة لأسألها. كان هاتفها بيدها كأنَّها تبعث رسالة خطيَّة لأحدهم. وما إن لمحتني حتى رمت به في حقيبتها.. هكذا، كأنَّها قامت بالأمر خلسةً.

«أشربها مع ثلج. شكرًا جزيلًا، هل آتي لأساعدك؟»، قالت، وقد صرتُ في المطبخ.

«it's coming» قلتُ، وقد صرتُ في وسط الغرفة عائدًا صوب موضعي الأوَّل. انزاح الضغط عنِّي، فتكلَّمت.

«هل التعليق على صورة الدُّكَّان هو لداني الكك؟»

ارتشفت من كأسها، ومن ثمَّ أجابت:

«لا، بل هو من صديقٍ آخر». صمتت.

أدنيتُ الكأس من شفتيَّ، ثمَّ توقَّفتُ.

«هل كان معنا بالأمس؟» قلتُ لها بهدوء.

«لا، ولا أظنُّ أنَّك تعرفه»، أجابت.

رفعت كأسها. رفعتُ كأسي. ابتسمنا.

كلّما ازدحمت الأفكار وكلّما تصادمت في ما بينها، عاد إلى إرشادات روكز. «دع الذكريات تأتي»، قال له. «فإذا كبتُّها انفجرت. دعها تترسّب شيئًا فشيئًا. ستعود وتتحوّل إلى ألوانٍ وأشكالٍ مختلفة».

على عكس المنامات، قال راجي. المنامات أصنافٌ. مناماتٌ جميلة، مناماتٌ مقلقة، مناماتٌ مرعبة... وأخرى لا نتذكّرها أساسًا. تتكاثر الصُور في المنامات، وتبقى الصّفة العامّة هي المسيطرة، مهما اختلفت تفاصيلها.

«حلمتُ منذ يومين أنّني أستقلُّ مع أمّي البوسطة من مستديرة الدّورة في صباح مشمس، لننطلق من هناك إلى جبيل». تجاوز المنام. لم يسرده لروكز، بل طفت على الواجهة ذكرى من آخر أيّام الطُفولة، حين كان انقسام البلاد يتيحُ لراجي فرصة اختبار معنى السّفر من مكانٍ إلى آخر.

وفت بوعدِها آخِرَ كلِّ شهر. اصطحبته إلى «المنطقة»، كما كان يحلو لها أن تُسمّيَ بلاد جبيل. كان ذلك قبل حرب التّحرير بعامٍ أو أقلّ. تجنّبت ذكرَ كلمة المعبر، أو حتى الشرقيّة، واستبدلتها بالمتحف وبالدّورة. لم يكن يدري سبب حياء أمّه وتردُّدها في انتقاء الكلمات، بل كان يمتعضُ من إصرارها على حذف التّسميات تلك من قاموس مفرداتها، واستبدالها بأخرى مسالِمةٍ تنتقيها من ذاكرة ما قبل الحرب. يشعر أنّها تُقلّل من شأن المغامرة وتجعل منها زيارةً إعتياديّةً، مثلما كانت هي تنتقلُ يوميًا إلى بيروت الغربية في الماضي. أمّا متى استخدمت المصطلحات الدقيقة، فإنّها بطبيعة الحال تُعزّز عنده فكرة السّفر والتّغيير، وتقرُّ بأنّ مكافأته الشهريّة هي على قدر مجهوده ومثابرته في الدراسة.

زارا مرّةً آل مرهج جيران بيت جدّته ربيعة، حيث أقامت سارية في سنوات الجامعة بالقرب من مستشفى مار يوسف. أصرُّوا أن يمكثا وقتًا أطول، وراحوا يستذكرون من على المصطبة عند الدّرج أخبار ربيعة وبناتها. سألوا عن أخبار سليمة وأبنائها، وعن صحّة فيرا. ترحّموا على أيّام جيرتهنّ، وأخبروا سارية عن صاحب الملك همسًا أنّه أدخل أغرابًا إلى الشقّة. ثمّ اقتربت سيّدة البيت، وأسرّت لسارية شيئًا في أذنها مستبعدةً راجي الذي رمته بابتسامةٍ من بعدا.

جلستهم تشبهُ اجتماعات بيت عمّي سيمون أو غيرهم من أهالي الدّير الأزرق، قال راجي لسارية. يشرّعون أبواب شققهم ويجلسون أمامها، ويدعون الصّاعد والنازل إلى مشاركتهم. وفيما هما يركبان البوسطة

الكبيرة للانتقال إلى جبيل، جعل يستعجل الجلوس بقرب النّافذة مطلقًا تنهيدةً كأنّه تخلّص من عبءٍ ما. أوحى لسارية أنّه لا بدّ لهما أن يتفاديا الزيارات في رحلاتهما لضيق الوقت. فالبرنامج يقتضي أن يزورا سوق جبيل أمام السّرايا مرورًا بدُكّان بيت الصّقر أصدقاء جدّه ميخائيل، ومن هناك نحو الشّوق العتيق، ومن ثمّ الميناء. يُصبح الوقت ثمينًا، وكلّ لحظةٍ فيها فسحةٌ للخروج عن المألوف. لا يذكرُ من الشرقيّة إلّا طريق بيت السدّ والمشوار الصيفيّ إلى بيت فيوليت. لكنّ رحلة جبيل من بيت شارع ليون، حملت له طعمًا جديدًا لمعنى العبور، كأنّه ينتقلُ إلى بلدٍ جديدٍ، كما سمِعَ وشاهد عن السّفر بين الدّول. كلّ لحظةٍ ملكه. إذا ما استقلّا سيّارة أجرة صغيرة ترقّب لحظة انعطافها عند بداية مدرج المطار الجديد على الطّريق السّريع. يتبيّن موقع المفرق قبل أن يستقيم الطريق وتزدحم السّيّارات، ويراقبُ الإشارات الصّفراء مرسومةً للطّائرات في الوسط. وإذا كانت الرّحلة في البوسطة عبر الطّريق البحريّ، راح يعيش لحظاتٍ ممتعة عند مرور القطار، أو عند مرورهم بصخور تُشبه رؤوس الحيوانات عند منطقة الملاهي اللّيليّة.

رآها تتجاوب مع اندفاعه، وتُقلّدُ حتى تعابير وجهه، كأنّها تحاول اللّحاق به. لو قبِل فراس أن يرافقنا، راح يقول، كان لا بدّ أن يصطدم مع سارية مرّةً أو مرّتين على الأقلّ. المرّة الأولى عند المعبر، وكان مصرًا على حمل وثيقة إخراج قيده وإبرازها بنفسه عند التدقيق، ومرّةً أخرى إذ اقترحت أن يتوقّفوا عند معارفها من القرية أو معارف جدّتها ربيعة، لكنّها في أيّ حال، قال راجي، لم تُلحّ يومًا ولم تُلزمه بأيّ محطّةٍ قبل غايتهما. تقترحُ عليه أن يمرّا ببناية جدّتها ربيعة، أو بدكّان فريد الصقر وبمكتبة بيت الحدّاد في جبيل، فإذا ما أومأ إيجابًا كما غالب الأحيان، يتوقّفان ساعةً أو أقلّ ثمّ يكمّلان سيرهما. أدرك أنّ مكافأته الشهريّة بزيارة جبيل كانت أيضًا لتدغدغ ذاكرتَها هي، ليس بمعاينةِ الأماكن وحسب، بل باجتياز الحدود واحدًا تلوَ الآخر، وإعادة عبورها مساءً من جديد.. هكذا بكلّ بساطة، كما في أوائل السبعينيّات.

لو كان جليل معهما، افترض، لكان انشغل مع سارية بجدلهما حول البيت. بات الموضوع يُثير توتُّر سارية في كلّ لحظةٍ. حجرٌ ثقيلٌ قابع على صدرها منذ سنين، منذ اليوم الذي تواطأت فيه مع جليل على التنازل عن إيجارهما في السدّ. منذ اليوم، لا بيت لنا. سمعها تقول لأبيه. من اليوم اعتبزنا مهجّرين مع إبنينا، ولا منزل يؤوينا إذا عاد مانويل يُطالب ببيته، أو

إذا تمكّن المالك في الطّابق الأخير أن يُخرجنا منه. تلكأ جليل، ثمّ تمتم كلمات غير مسموعة من وراء باب المطبخ. تسمَّر فراس يختلسُ السَّمع، كأنّه عالمٌ بأنَّ أمرًا كبيرًا يُبحث في الدَّاخل. مرَّ به راجي، فتجنَّب النظر إليه، كأنّه خجل أن يضبطه أخوه الأصغر يتجسَّس من خلف الأبواب.

لو كان فراس شاهدًا على حديث والديه لتجهَّم واستاء من مشاركته في الرِّحلة، وتأكّد من صواب خياره بالابتعاد عن شتّى اجتماعاتهم ومشاريعهم. كان من دون شكٍّ سينتفض من تلقائه، لأنَّ الحديث سوف يصبّ في أيِّ حالٍ في نتيجةٍ واحدة: يضطرّ جليل أن يفجِّرَ ردًّا غير مقتنع به، قائلًا إنَّ بيت الكرك كبيرٌ ويتّسع لهم. ستحاول سارية أن تحدَّ من تضارب أفكارها مختتمةً الموضوع، مردِّدةً أنّها لن تستقيل من عملها في بيروت، وأنَّ الأولاد لن ينتقلوا إلى مدرسةٍ في البقاع، وإن اضطرُّوا لمغادرة بيت مانويل، ستستأجرُ هي بمدخولها غرفةً بسيطةً لها ولابنيها. وليذهب هو ليسكُن في الكرك إذا شاء.

استساغ أجوبة الغائبين وانفعالاتهم، واستنفر قواه ليواجه أزمة أسرته المتفاقمة. لو تسنّى له أن يُشرَك بحديث والديه لا أن يسترق منه أجزاء متفرِّقة من خلف باب المطبخ، لكان قال لأبيه إنّه مستعدٌّ لأن يبقى معه إذا كان عمله مؤمّنًا. سيقول ذلك رأفةً بجليل، وخوفًا من أن تنزلق سارية اليوم قبل الغد إلى حلولٍ لا تُحمد عقباها. إن نفَّذت هي ما هدَّدت به يوم انفعالها من إقفال المعبر حتى للمشاة، وغادرت بيروت إلى الدَّير الأزرق لتعيش مع فيوليت وتعمل مدرِّسةً في مدرسة العائلة المقدَّسة في البلدة القريبة، كان يتخيَّل أنَّ فراس سيهجُرهم، ويحتمي ربّما ببيت أحد أصدقائه الذين رآهم معه برفقته أمام بوَّابة المدرسة. غير أنّه بمبادرته وبقبوله بالعيش مع جليل، سيُغيثُ والديه في محنتهما، ويُقرِّب فراس من سارية.

أخذته أفكاره من رحلة البوسطة إلى اليوم الذي سيضطرّ فيه أن يفي بالوعد الذي سيقطعه أمام والديه. سيقبل بالعيش مع عمَّته زهريَّة وسيستمعُ إليها. سيُخبرها عمّا أحبّه في بيروت وما حلمَ به أثناء تجوُّله على الأبنية من شارعهم إلى شارع الحمراء. سيحتفظُ بالأحلام مؤونةً لليالي الصَّقيع يرسمها على الورق الأبيض، فيما ينكبّ جليل على تصحيح أوراق امتحانات تلاميذه. ستندسُّ عمَّته خلسةً لتنظر إلى رسومه، وسيشتاق إلى بيت شارع ليون ومشاويره مع الفرهود.

كثيرًا ما يروحُ، حين يصفن في منظر البحر، يُفكِّر بما سيأتي. كلّ

موجةٍ ترتطم بصخور البحر هي يوم من الأيّام سيأتيه لا محالة. أمواجٌ عالية تغسل زجاج نوافذ البوسطة، وموجٌ هادئ في نهارٍ شتائي مشمس يمرّ سلسًا مثل موج هذا اليوم. التفتت سارية نحو فَتيين من عمر فراس استقلّا البوسطة بمفردهما. رآها راجي منشغلةً بما يحملان من كُتبٍ مدرسيّة. سألاها إذا كانا قادمين اليوم من الغربيّة، وسألاها إذا ما كانا سيعودان إلى هناك. وجّه أحدهما الحديث إليه سائلًا أيّهما أحسن برأيه: الشرقيّة أم الغربيّة! منتظرًا أن يُجيبه بالأولى. نزل الفتيان عند بلدة الصفرا عند بساتين الموز. خلّفا وراءهما ورقةً بيضاء بدت كأنّها ورقة خرطوش، دوّن عليها أحدهما بالفرنسيّة وبالعربيّة جملًا منفصلة عن بعضها. تناولها راجي وقرأ ما جاء فيها. ثمّ طوى الورقة ودسّها في جيبه.

إن شئت نستطيع أن نتّصل بالقرية من دكّان بيت الصّقر، سألته فتجاوب مع اقتراحها. ستتّصل بدُكّان ليزا التي سترسل وراء فيوليت، وتعودُ لتتّصل بها بعد نصف ساعة حتى تكون وصلت إلى الدُكّان. سيتنقّلان بين متاجر السّوق، وسيُبقي راجي على دهشته الأولى حين يستمع إلى الفتيان يتحدّثون بلهجةٍ تُشبه لهجة أهل الدّير. فتيان من عمره يرتدون ثيابًا تُشبه ثيابه، يُقيمون ويدرسون ويلهون في المدينة الصّغيرة، قال في نفسه. يفترقون من أمام بوّابات مدارسهم بين البيوت المنخفضة الارتفاع وبين البساتين، يتفقّدون منظر البحر من أمامهم بين شارع وآخر. هل تُحبّ العيش هنا؟ حاول التملُّص من السّؤال مدركًا ما وراءه. أعادت الاتّصال بدُكّان ليزا. سألتها فيوليت، إذا ما كانا يستطيعان البقاء والصعود نحو الدّير. ليس في هذه المرّة، بل قريبًا أنبأتها سارية. قريبًا جدًّا.

أخرج راجي الورقة المطويّة من جيبه عند السّور القديم. فتحها وأعاد قراءة ما فيها.

«أشعرُ بالتّعب. نشعرُ بأنّنا متعبون. نشعرُ بأنّنا متعبات.

نصّ المهجور لغي دو موبسان

لُعبة الكرة الطائرة نهار الخميس بعد الظّهر.

تاريخ وجغرافيا (من الصفحة ٦٠ إلى ٦٨)»

بعد أشهرٍ قليلةٍ على تلك الرّحلة آخر تشرين الثّاني، انتقلنا قسرًا إلى قرية أمّي، أسلف راجي لروكز بالرّغم من تخوُّف جليل، وبالرّغم من الحصار المفروض على المنطقة الشرقيّة. لم أعُد أذكرُ متى بدأ التوتُّر بينه وبين عمّتي زهريّة، ولماذا انقطع عنها في ذلك العامّ. أمضينا صيف المعارك

بأكمله فوق، اطمأنّ على زهريّة عبر أخته إبتسام. سقطت إصابات مباشرة في عدّة بلداتٍ في البقاع، ولم يستول عليه القلق. حثّته سارية ومن بعدها فيوليت، ودفعت به للدّخول إلى دكّان ليزا للاتّصال. مرّةً واحدة ولم يُعدها...

«هل تستطيع أن تعزِلَ ذكرى رحلة البوسطة عمّا يخترقها من قلقٍ، وتبحثُ فيها عن لحظات جميلة، ترويها منفصلةً، ومن ثمّ تعود لتحصر خوفك بخانةٍ مستقلّةٍ، مثل خاناتِ جِرام الصوف؟»

باغته روكز بسؤاله، فأوصد الباب أمام الهاجس الذي ساوره مدّةً طويلة حتى نهاية الحرب حين غادروا بيت شارع ليون. ذكر له رائحة حبّات الكلمنتين الملفوفة بورق المحارم في جزدان سارية، وصفحة قشرتها الباردة أوائل الشّتاء. تذكّر عرائس الجبنة البلغاريّة مع الخيار التي كانا يأكلانها عند المرفأ القديم وهو ينظر إلى بيروت، الغربيّة والشرقيّة، من بعيد. أعاد تصويب مسار ذاكرته، فابتسم وقال: «هكذا مثلما أنا أشذّبُ الصُّور وأوضّبها في عُلبٍ، أراني أبعثرُ المشاهد وأقطف الصُّور العذبة من هنا وهناك، خوفًا من أن تبقى علبة الذّكريات الجميلة شبه فارغة. أجمع كلّ ما يُبعد عنّي القلق من أيّامٍ ومشاهد مختلفة، فكيف لي أن أسلُخ رحلة جبيل عن ترقُّب موعد العودة وعبور الحدود من جديد. وإذ كنتُ قادرًا على استيعاب فكرة ورشة التوضيب هذه، فإنّي أخشى أن أفقد معنى الرّحلة ولذّتها بعزلها عن إطار الشوك من حولها.»

أثنى روكز على ما أفصح عنه راجي، ودعاه إلى أن يحتفظ بالقلق إطارًا، مثلما أسماه، يحتضنُ الذكرى بل يُقوّيها من غير أن يمحوها.

بقيت لهُ أصواتٌ منفردة تُغرّد له بعيدًا عن الهواجس، وكأنّها تردُّ عليه بالمزاح والضحك. صوت تيريز زوجة سيمون تردّد له ولابنتيها بفرح عارم أغنية، ورثتها عن أمّها في المقلب الآخر للجبل عن الحكي العربيّ غير المُحبّب وعن اللُّغات الأجنبيّة سبيلًا للإرتقاء الاجتماعي.

الحكي العربيّ مثو شلبي،

عمّك طانيوس لا توطّي قلّو طوني بتعلّي،

الحكي العربيّ مثو شلبي عمّك جريس لا توطّي، قلّو جورج بتعلّي...

انفجرت فيوليت ضحكًا عندما علمت أنّ تيريز هي من لقّنته الكلمات، فيما راحت تغرزُ الإبرة في رقعة القماش أمامها. تذكرها تهزُّ برأسها يمينًا ويسارًا، كأنّها تتكتّم عن أمر، وهي تُتمتم ما مفاده أنّ لتيريز

نهفات ونهفات.

عاد بسرده إلى منظر بيروت وراء البحر يتأمَّلها من مرفأ جبيل. هكذا، مثلما كان في المشاوير المسائيَّة إلى كورنيش المنارة يتوقَّف مع جليل متمسِّكًا بالسُّور الحديديّ، ليتبيَّن موقع جبيل بين المدن والبلدات السَّاحليَّة المتلألئة.

القرار لي وحدي هذه المرّة. ليس لفاليري أو لأيّ كان.

أنا من يقرّر ماذا يبقى وماذا يغيب من ذاكرتي، أنا من يختار ما أنقله إلى النُّور وما أتركه في العتمة. ملأتُ حياتي سهرًا وعملًا ولهوًا وسفرًا وتنقُّلًا بين البيوت، الصّغير منها والفسيح. عشتُ الشباب بطوله وعرضه، حفظتُ روائح المدن وشواطئها، ثمّ تنحّيتُ عن خوض جميع المعارك في آنٍ معًا كما يفعل الفارس المجنون. اخترتُ زاوية لي بعيدة عن الضوضاء تُغنيني عن متاهات الحياة. عدتُ إلى بيروت، لأنطلق من جديد مطمئنًا إلى تبدُّل السُّكّان فيها وقصر حبل ذاكرتهم.

صفحة بيضاء.

مثل الصفحة البيضاء التي سحرت مشاريع إعادة بناء المدن بعد الحروب، هكذا عدتُ لأنتسب لحياةٍ جديدة بعد ثلاثة عقود من الكرّ والفرّ، تحوّلت خلالها علاقتنا أنا وفاليري من علاقة زوجين يبحثان عن السَّكينة بعد مرحلةِ صخب وحروب وأخطار إلى حياة رتيبة، يفرغُ منها في كلّ يومٍ معنًى من معانيها. رجعتُ لأبدِع من جديد، كما قالت لي حين وصلنا إلى شيكاغو. «اعتبر نفسَكَ في بيروت» قالت. لكنّي اصطدمتُ بألف مطبٍ ومطبٍ ومائة مصيبة ومصيبة، فهكذا أصبحتُ كالأسير أبتعد رويدًا رويدًا عن أشياء كانت تعنيني في حياةٍ باتت سابقة.

عندي فائضٌ من الأخبار، لن أرويه إلّا بإرادتي. لن أستكين لضغط المتطفِّلين، من أولئك الذين ليس لهم ماضٍ يلهون به فيتمسّكون بذاكرة غيرهم وواحاتها. هكذا قالت زائرتي، وهكذا قال صديقها الغريب الأطوار، سيكتبون قصصًا جديدة لطفولتهم بقصصٍ جديدة أو ما شابه.

«المنظر جميلٌ من شقّتك» قالت وهي تمرّر أصابعها على قضبان الدرابزين.

«نعم. البعض لا تروق لهم رؤية الأبراج..»، أجبتُ قبل أن تقاطعني.

«مظبوط!» قالت بتأكيد.

«لكنّي شخصيًا أركّزُ على الجزء المتبقّي من منظر البحر» قلتُ لها، ثمّ أضفتُ «حتى أنّني لا أرى الأبراج».

أعادت الكلام عن تصوير المغيب وعن محطّات سيرها من أمام صخرة الرَّوشة، نزولًا إلى موقع أوتيل كارلتون سابقًا. ثمَّ استرسلت في مشوارها، وراحت تصف بعض الشُّبَّان من السَّابحين على الشَّواطىء العامَّة في محيط المنارة وتفاعلهم معها حين يلمحون الكاميرا بيدها. يتجمَّعون أحيانًا، ويسترسلون بأداء أدوارٍ أمام العدسة كأنَّهم في عمل مسرحيّ. يطمئنُّون لكونها فتاة ربَّما، أو هكذا استنتجَت. هذا معقول جدًّا، أجبتها. ثمَّ انتقلت إلى الحديث عن موضوع الرَّائحة في التَّصوير، وكيف أنَّ رائحة البحر تختلف بين موقع وآخر من السَّاحل. رائحة المياه حادَّةٌ في بيروت، تشتمَ فيها شيئًا من قعر البحر، بينما هي أقرب لرائحة الملح مكان إقامة أهلها على السَّاحل الشماليّ. غاصت في الموضوع، فتطرَّقت إلى رائحة الزنجار على السُّور الحديديّ القديم الفاصل بين كورنيش المشاة والبحر، وكيف ضاعت تلك المعالم غير الملموسة مع استبداله بفاصل من الألومينيوم. سألتني إذا كنت قد عدت إلى لبنان قبل أن تستبدل البلديّة الدرابزين القديم. ثمَّ راحت تصفُ بشكلٍ دقيقٍ روائح الشَّوارع في المدينة التي عاشت فيها في أوروبا.

وغيرها وغيرها من الأخبار.

«تغيَّرت المعالم»، قالتها وهي شاخصة صوب درابزين الألومينيوم، كأنَّها لم تعد تتجرَّأ أن تستفسر منِّي عن أيّ موضوع. لكنَّها لم تدَّعِ في أيّ لحظةً أنَّها على عجلةٍ من أمرها، أو أنَّها تنوي مغادرتي إلى مكانٍ ما عاجلًا أم آجلًا. لا، لم أثنها عن البقاء على ما يبدو أو حتى عن الاستمتاع بجلستها. لعلّها تجدني عصبيًا بعض الشيء، غير أنَّها مستمتعة بجلستنا. إلى أن عدتُ وفاجأتها بسؤالٍ جديدٍ.

«هل أبلغكِ داني عن مشروع شظايا؟ قد يهمُّك أمره».

جحظت عيناها، وغيَّرت موضعها قليلًا. استفسرت عن المشروع، كأنَّها لم تسمع به من قبل.

«ظننتكما قريبين جدًّا. تفكّران بالأسلوب نفسه»، قلتُ لها مبتسمًا.

ظهر ارتباكها من جديد. ثمَّ همَّت للاستفسار.

«هل أخبرك عنه داني بالأمس؟»، قالت بتعجُّب.

لا، اليوم.

لم أعرف ذلك!

وأنا لم أعرف حتى أنَّ داني يتابع موقعي منذ أشهر، وقد كتب

بعض التَّعليقات، كالتعليق على صورة الدُكَّان. إنَّه رجلٌ كتوم على ما يبدو.

هذا ليس تعليقه!

أنت قلت إنَّ الكلام لأحدهم من جيلك ممَّن عايش الحرب.

هذه فكرة ردَّدها داني بالفعل في الآونة الأخيرة، أثناء جلساتنا مع بعض الأصدقاء. كنَّا نطَّلع على الصُّور التي التقطها مع الأطفال.

ثمَّ قالت إنَّ هذا داني صاحب الفكرة العظيمة التي أجمعوا عليها فيما بينهم، هي وشلَّتها، لم يكن قد صاغها بالوضوح الذي بانت فيه في التعليق على موقعي، أو كما تبنَّتها هي. بل صديق ثانٍ، نسيتُ اسمه، أحبَّ الصُّور المعروضة على الموقع هو كذلك، وقد كان أوَّل من دوَّن الفكرة هذه على ما يبدو تحت صورة الدُكَّان. أضحكني هذا التسلسل، لكنِّي ردعتُ سخريَّتي، هكذا، كما كنتُ ردعت اتِّهامي لها ساعة وصولها بأنَّها تعرفني من خلال شخصٍ آخر غير داني، الشَّاب الذي جمعنا.

«أمَّا مشروع شظايا الذي ذكرته، فلم أعرف عنه أيّ شيء إلَّا بالأمس، وبكلام مقتضب.. وهكذا أثار فضولي»، عادت وأضافت.

فهمت منكِ أنَّكِ لم تسمعي به بتاتًا.

داني حدَّثني عنه عرضًا، لكنِّي لم أعرف أنَّه عاد وقرَّر أن يُخبرك عنه.

بسيطة...

أمَّا سؤالي عن الصُّور السَّابقة، فكان عابرًا. وقصدتُ فيه صور بيروت والحمراء خاصَّةً.

تنهَّدت شاكية.

أنا فعلًا خرقاء، أدخلُ بين النَّاس بالعرض كما يُقال...

لم يخب ظنِّي. عرفتُ أنَّها قصدت صوري القديمة، وقد التبس عليها الموضوع حين أقحمنا في حوارنا عنوان المشروع الجديد الذي نبشه داني الكك ليوقع بي، والذي لم تكن عرفت به أصلًا. كيف لم أربط الأسماء، وكيف لم أكتشف سبب تودُّده واهتمامه الغريبين؟ الصَّفحة البيضاء أنستني التفاصيل والألقاب وكنية الأشخاص الذين كانوا قريبين منَّا في الماضي البعيد، ثمَّ انسحبوا تدريجيًا إلى بلاد اللَّه الواسعة. لن أفاتحها بشيء بعد الآن، قلتُ. حديثي قد يكون معه هو، وقد لا يكون أساسًا.

«صوري القديمة أضعتها في الحرب، كما قلتُ لكِ. لم يبق منها شيء، إذا كان هذا ما يثير فضول داني أو تخوُّفه. خيرٌ فعلت أنَّني دعوتك أنتِ بمفردك»، قلتُ لها ممازحًا، فانفرجت ثمَّ ضحكت متَّخذةً هيئة المتواطئ.

ربَطتُ خيوط الأحداث ببعضها بعضًا، ووَضُحت الصُورة. سألني داني عن مشروع اسمه شظايا وقبلها إذا ما كنتُ أضعت شيئًا ثمينًا في حياتي، راجيًا أن أُحدِّثه عن شرائح الصُور. لا يشبه والده، بل فيه قليلٌ من ملامح أمِّه وأنفها الأفطس. لقد أحبَ التعرُّف إليَّ، ربَّما من دون ذكر صلته بأصدقاء قديمين. إستغربتُ كيف يكون عرف بموضوع الصُور، ولماذا أخبرها هي بالأمر. حملتُ جهازي. سأُريها ما بقي من صوري في بيروت، قلتُ. سلسلة صورٍ من كورنيش المنارة في فصل الشُّتاء قبيل رحيلنا عن ذلك البيت. مشروع شظايا في جمعيَّة المصوِّرين لا أساس له، استنتجتُ ذلك وأنا أبحثُ في ملفَّاتي الخاصَّة، قلتها بصوتٍ عالٍ. أطلعتها على الحكاية كاملةً وعلى موضوع المعرض الجديد المزعوم، وعنوانه بحسب رواية داني. لماذا لم ترفع هذه الصُور، سألَت. لأنَّه لا خانة لها، قلت لها «ولأنَّ لكلِّ صورة خانة خُصِّصت لها في هذا الموقع كما تعرفين. ثمَ إنَّها لا تعجبني بشكلٍ خاصّ. هناك صور من فترة الحرب التي تسألين عنها. صورة توائم الدولابين وصورة الكرسيَّين وصورة الدُكَّان قرب بيتي القديم في الحمراء مقرونة بصورة محلِّ الصُوف في البقاع». استعرضتُ كلَّ صورةٍ أتكلَّم عليها. توقَّفتُ. نظرتُ إلى الموقع من جديد. اختفى التعليق. محاه صديقها الثاني. نسيتُ حتى ما كان اسمه!

ينسى فراس وجود أخيه الأصغر معه في الغرفة نفسها. شعر راجي مع مرور الأيّام أنّه بات ثقيلًا عليه، فأخوه يكبره بسنتين ونيّف، وها هو قد عاد للاختلاط بالفتيان من عمره بل رجع إلى ممارسة الرّياضة، وقد برزت نتائج تمارينه على جسمه كلّما تمشّى عاري الصّدر بين الحمّام والغرفة الأولى.

دنا منه في إحدى المرّات ونهره حين غافله مستلقيًا على سريره، ثمّ ما لبث أن عاد ليسترضيه مربّتًا على كتفه قبل النوم. يُجافيه نهارًا كاملًا أيّامَ العطلة أو إقفال المدارس، ثمّ ينشله فجأةً متى يشاء من إحساسه بالظّلم حين يوجّه الحديث إليه. يطرح عليه سؤالًا وهو منشغل بطابة كرة المضرب، ثمّ بمجلاته وكتبه، أو وهو يتفحّص نترات قشرة طلاء السقف عن أغطية السّرير كعادته قبل النوم. يسأله عن برنامج صفّه بالمدرسة وعن مادّة الرّياضيّات، عمّا إذا كان ما يزال يجد الوقت ليرسُم، وإذا كان ما يزال يجمع البطاقات البريديّة كما عاد واكتشف مصادفة. يُجيبه على كلّ سؤالٍ محدّقًا به مترقّبًا ردَّ فعله. سألهُ عن الفرهود متظاهرًا نسيان اسمه. لم يلاحظ راجي أيَّ لهفةٍ في أسئلة أخيه، بل كانت ثردةُ برتابة ضربات الطّابة الصّفراء، يفلتها من يده على الطاولة إلى يساره لتعودَ وتقفز نحو راحته من جديد. يكتفي راجي من لفتة أخيه الطّيّبة ويعودُ لينامَ آمنًا.

يخبرهُ فراس عن حلمه الأخير قبل أن ينعس ويغفو. نومه كان سريعًا، لا يكاد راجي يُطفئ نور مصباح البطّاريّة حتى يبدأ برواية حلمه في اللّيلة السّابقة، وسرعان ما تتباطأ الكلمات على لسانه وينهي سرده ويستسلم للنوم. تكهّن راجي أنَّ فراس يروي له أحلامه لكي يتهيّأ للنومِ ويغفو بسرعةٍ، لا لأن يتشاركا بما أبصراه. إذ إنّه ما إن بادره بسؤالٍ حتى رآه يغطّ في نومٍ عميقٍ.

أخبره مرّةً أنّه أبصر البيت الذي هم فيه، وقد بات يُشبه بيت بطرس في الدّير الأزرق، وفي داخله كراسٍ وطاولات شبيهةٍ بأثاث المقاهي في شارع الحمراء. ثمّ لمح جليل يعتمر كوفيّةً على رأسه مثل شيوخٍ يُصادفونهم في الكرَك. استوى جليل على كرسيّ، ودعا الرّجل في الطّابق الأوّل من السّكّان الأصليّين ليشاركه في لعب الطّاولة.

استمع راجي إليه بشغف كما في كلّ مرّةٍ حتى النّهاية.

ينتهي من كلامه فيرتبك راجي، ويكتفي بتعليقٍ مقتضبٍ، كأن يقول بما ذكّرك الحلم ببيت بطرس أو غيره من غير أن يحظى بإجابةٍ شافية. ينتبه أنّه لا يذكرُ ما يُبصر تفصيليًا. يُجرّب تركيب مشاهد اجتزأها من أحلامٍ متعدّدة، ثمّ يُقلع عن محاولته.

انزاح الثّقل عنه عندما بدأ فراس يُشاغله بقصص أحلامه قبل إطفاء النّور. أحسّ أنّه بات يوحي له بثقةٍ أكبر، ولا استغلال له وراء لعبة النوم هذه. تحمّس للاستماع إليه أكثر فأكثر، واستعاد ما قالته سارية عن نومه إنّه عميق مثل نوم أهل الكهف، حتى عندما تقتربُ أصوات الانفجارات. النوم العميق للأحلام الطويلة المتكاملة لا المتقطّعة مثل أحلام راجي، لا يذكرُ منها سوى ملامح شخص أو مكان عند الصّباح، ليعود وينساه قبل حلول الظهر. فراس يحتفظُ بأحلامه بل يستنجدُ بها على ما يبدو لتكون تمرينًا على النوم، أو على التذكُّر، أو مجرّد سبيل لمحادثته عند انصرام النّهار.

أمس، أبصرتُ في المنام إيناس تلميذة في صفّنا، وقد وضعت شعرًا مستعارًا لونه ذهبيّ، فأصبحت تُشبه صباح وأخذت تغنّي أغنية ستوب ستوب أثناء الحصّة، بقربها أستاذ لم أتبيّن هويته. عندما انتهت من غنائها توجّب على كلّ تلميذ الإدلاء بصوته وكتابة العلامة التي تستحقُّها على لوحة من الخشب بمتناوله. بلحظةٍ، تحوّل الأستاذ إلى مدرِّسة الفيزياء، فقالت إنّ هذه العلامة ستحسب لإيناس من مادّة حصّتها. حاولتُ الكتابة على لوحي، فانكسر قلم الطبشور. وكنتُ كلّما عاودت الكرّة وقعت منّي الأقلام وتفتّتت.

توقّف عن الكلام لبرهةٍ، فظنّ راجي أنّه انتهى، فانطلق بضحكةٍ، وسرعان ما أسكتها ما إن عاد فراس ليستأنف حلمه الطويل.

فجأةً، أصبحتُ في طريقٍ فارغٍ من أيّ مَعْلمٍ على جانبيه. لا بيوت ولا بنايات، لكنّه في حيّ في بيروت. صادفتُ بعد مدّةٍ من السّير أمّي جالسةً على كرسيّ خشبيّ منخفضٍ مثل كراسي المصطبة عند جدّتي فيوليت، تتسامر مع امرأةٍ نحيلةٍ مسنّة تحمل بندقيةً على كتفها. استفسرتُ من أمّي عن بيتنا فلم تُجب، كأنّها لا تسمعني، وظلّت تُصغي لحديث السّيّدة أمامها. اقتربتُ منها وتمسكت بها من ذراعيها، ورحت أهزُّها بكلّ ما أوتيتُ من قوّةٍ صارخًا: أين بيتنا؟ تلعثمتُ وأنا أصرخ، فاستبدلتُ بيتنا بكتابنا وصرختُ بأعلى صوتي من جديد أين كتابنا، أين كتابنا؟ أومأت لي أن أخفض صوتي، وأن أصمت واضعةً سبابتها فوق

شفتيها. ظهر لي رجلٌ طاعن بالسنّ على أنَّه عمَّتي زهريَّة. اقتادني في طريقٍ وهو يتعكّزُ على عصًا، مردّدًا ألّا أخشى شيئًا، فبيتنا في نهاية الطريق. ارتاح بالي ورحتُ أخلعُ ملابسي، كأنّي راجعٌ للتوّ من تمرين رياضيٍّ غارقًا في عرقي أستعدُّ للحمّام. وصلنا في نهاية المطاف إلى ساحةٍ كبيرةٍ زخرت بالنّاس، وقد أصبحتُ في سروالي الدّاخلي. بين النّاس مديرة المدرسة جاثمةً مكتوفة الأيدي. تحوّل الرجل إلى عمَّتي زهريَّة شكلًا أيضًا، وقال لي «بيتكم فوق هذا المسرح في العُلبة الصفراء».

ارتشفَ القليل من الماء من كوبه، وأرجعه إلى موضعه على الطّاولة، ثمّ قام بنفسه ليطفئ النّور من غير أن يطلب ذلك من راجي، ونام.

كان يتمنّى نيل رضا فراس في الماضي، فتلمَّس للمرَّةِ الأولى طريقه إليه بعدَ أن جرَّب طرقًا عديدةً كانت جميعها مسدودة. تمنّى لو يأتيه منامٌ متكاملٌ ولو لمرَّةٍ واحدة، يتمكّن أن يتذكَّره عند الصّباح.

سمِع أنّ الأحلام تتحقَّق مثلما كان بعض نساء عائلة أمّه يتداولن في القرية. قالت زوجة سيمون إنَّها حلِمت ليلة بداية حرب التّحرير بقائد الجيش يسيرُ في غرفة الجلوس في بيتهم في الدكوانة، يقتربُ منها وهي مستلقية على الكنبة، ثمّ ينحني فيهمس في أذنها: «تيريز، جهِّزي أمتعتك واصعدي إلى الدّير الأزرق. أيّامٌ صعاب بانتظارنا». لكنّ فيوليت أسرَّت له يومها، وهما في درب عودتهما إلى البيت أنّ تيريز «عالبَركة». سألها عن مفاد العبارة، فرآها تخنق الكلام في حلقها وتبتسم. معناها أنَّها طيِّبة ومُحبّة للغير، عادت وقالت بعد محاولات عدّة للجم ما تضمره.

سمِع أيضًا أنّ المنامات تدلُّ على هواجس من يُبصرها. غير أنّه لم يُفلح بمعرفة سبب تفرُّد فراس به لسرد أحلامه. رافقه بها بكلّ اطمئنان، رغم ذلك، وصار يترقَّب وقت النوم ليستمع إلى حلمٍ جديدٍ قد لا يخلو من الطرافة والغرابة. يتلكّأ قبل أن يُقفل كتاب مطالعته، ثمّ يُقلبُ الوسادة راجيًا أن يبدأ فراس السّرد بنفسِه. وبعد أن كان يستمعُ إليه بشيءٍ من الإجلال مختصرًا مشاركته بالتعليقات السّطحيّة، بات يسأل أكثر وأكثر، ويستفسرُ، ويطرح أسئلةً دقيقةً عن شكل الأمكنة وعمّا إذا كان المكان الحقيقيّ هو فعلًا مفضَّلًا لديه، أو إذا ما كانت إحدى صديقاته تحدَّثت إليه في اليوم السّالف لليلة الحُلم.

«أمس لم أبصر شيئًا» قالها مرَّةً، وكأنَّه أقرّ بإحساسه بالواجب وبالمسؤوليّة تجاه راجي، بالاعتراف بما يدور في رأسه أثناء اللّيل.

كيف لم تحلُم بشيء، معقول؟

بلى، معقول. بمَ حلمت أنت؟

لستُ أذكُر، أجابه راجي بحذرٍ وتردُّد.

أرأيت؟ فلننم الآن. اليوم إستراحة.

جاراه في ممازحته، فرسم ابتسامةً على ثغره ما لبث أن نسيها وهو يفكّر في اللّيل الطّويل الآتي.

لكنّ راجي تذكّر حلمه لأوّل مرّةٍ. كان سيخبره به عند الصّباح خوفًا من أن ينساه. رآه يرتدي سرواله متأفّفًا من اليوم الجديد، فآثر عدم إزعاجه، ودوّن ما تذكّره في أوّل حصّةٍ في المدرسة على طرف الدفتر. عاد لما كتبه عدّة مرّاتٍ يتأكّد من النّقاط التي سجّلها، متحمّسًا ليرويها مساءً.

حلمتُ أنّنا استقلينا، أنا وأنت، سيّارة أجرة سوداء اللّون من أمام بوّابة المدرسة. جلسنا في الخلف، أنت على يسار المقعد وأنا على يمينه. طلبت أنت من السّائق أن يُخبرنا قصّةً. ما إن بدأ بالكلام حتى تحوّل إلى أبي. قال إنّه سيقتادنا إلى الكرك، فوضعت يديك على رأسك وكأنّها مصيبة أنزلت علينا. ثمّ استدرك وقال سآخذكما إلى الدّير الأزرق، فصرت تلطمُ بيديك على رأسِك. بعد وقتٍ قصير، توقّف بنا في ساحةٍ تشبهُ تقاطع وزارة السّياحة وسينما الإتوال في الحمراء. اقترب منّي أبي وقد صرتُ وحدي في المقعد الخلفي جالسًا على اليسار، وهمس في أذني ضاحكًا «هذه هي ساحة البُرج التي حدّثتك عنها». نظرتُ حولي، فلم أجدها كما في الصُّور، لكنّي تظاهرتُ أنّي صدّقته. واستيقظتُ.

لم يكن وقع روايته على فراس كما توقّعه، إذ بقي صامتًا يُحملقُ بكوب الماء قربه وقد نزع عن جسمه الأغطية مع بداية موسم الحز. خاب ظنّه حين طلب منه أن يُطفئ النّور من دون أن يُبادره بسؤالٍ واحدٍ، أو حتى أن يُعلّق على ما سمعه بتعليق بسيط. أطفأ النّور، وألقى رأسه على الوسادة ينظرُ إلى أعلى. سمِع فراس يتنهّد كأنّه يهمّ بالكلام، بعد أن كان أوحى له أنّه يستعدّ للنوم.

أنا، أمس، حلِمتُ حُلمًا لا أستطيعُ أن أبوحَ به لك.

انتفض راجي سائلًا لماذا، وقد زادت جملة أخيه الأخيرة من حماسته.

لأنّك ستسألني مئة سؤال، مع أنّك أصلًا لا تهتمّ بهذه الأشياء، بل بالرّسم وجمع الصّور وأخبار جدّتك فيوليت.

ازدادَ إصراره واستغرابه لما اعتبره استفزازًا جديدًا من فراس بعد فترة وئامٍ طويلة. أعاد الكرّة بالرّغم من ذلك، وطلب منه أن يُخبره عن حُلمه في أيّ حال، لأنّه لن يطرحَ عليه أيّ سؤالٍ.

حسنًا. حلِمتُ أنّني في هذه الغرفة مستلقٍ على سريري هذا. فجأةً، ظهرت إيناس. ومنذ أن ظهرت أصبحتُ عاريًا إلّا من سروالي الداخليّ الأبيض. خلعت فستانها المزهّر الذي ارتدته بعد المدرسة منذ يومين، واقتربت منّي.

هل أكمِلُ لك أم لا؟

تهيّب من السّؤال وكاد أن يختنق من خجله، وحمد ربّهُ أنّ النّور كان مطفأً. لم يُجِب، فاستدرك فراس الوضع وأكملَ.

حسنًا، صار الذي صار سأغنيك عن باقي التفاصيل. بعدَها أصبحتُ أمام بوّابة المدرسة أتحدّث مع فتًى أصغر منّي سنًّا، ربّما هو أنت، فجأةً وصلت مجموعة من التّلاميذ في باصٍ كبير. كانت الفتيات عاريات الصّدور والفتيان في ثياب السّباحة. صعدتُ إلى مقعد السّائق في الباص، واستلمتُ القيادة وانتلقنا في رحلةٍ. انتهى المنام.

ماذا حدث بالفتى الأصغر منك؟ سأله بعد مرور ثوانٍ طويلة.

لستُ أدري. تُصبِح على خير.

إنتهت لُعبة الأحلام على ما يبدو، فكّر راجي.

المشاهد التي نراها في مناماتنا هي كالطُّرقات، قال. تُقطع حيث يجب أن تكون مفتوحةً وتُشرَّع حين نكون تعبنا من المشوار وارتأينا أن نرتاح من المسير. نعالج وفرة المشاهد بالنسيان، فنصحو صباحًا، نمحوها ولا نتذكّر شيئًا، لا لأنّنا نهرب منها، بل لأنّنا تعبنا وصرنا عاجزين عن الحفظ والتفكير. هذا هو مثلًا لا يحفظ ما يردهُ في المنام بل يحلُم ربّما في اليقظة. أمّا فراس، فيحلمُ كثيرًا وقد يمتنع عن الحلم على الأرجح في النّهار. هذا هو الفارق بينهما، راح يردّد مقتنعًا.

المشاهد فاجأته. وما بات يصفه فراس من أحلامه اقتاده إلى غير طريقٍ يبدو أنّه يستهويه ويستهوي من بعمره، لكنّه بعيد عنه وعن فلك الأسرة ومنازلها. أمّا هو، فمن خلال منام واحد، اقتربَ من والده بل التحم

به وبعالمه وذاكرته، وعوضًا من أن ينسلّ نحو أمكنته، جاءت هي الأماكن إليه لتحط رحالها في المدينة التي يعرفها ويألفها.

عزيزتي فاليري،

أتمنّى أن تكون قد عادت إليكم الحياة الطبيعيّة، سعدت جدًا بمكتوبك، وتأثّرت بالبطاقة من شارع ويغان، وشعرت أنّك أعدتني ثلاث أو أربع سنوات إلى الوراء أو أكثر، كأنّ وسط بيروت رجع كما كان. يبدو في أيّ حال أنّ الوضع آخذ بالتحسّن، وسوف نلتقي قريبًا في بيتكم نُشعل النّار في المدخنة ونحتسي النبيذ اللّبنانيّ الأحمر.

بريدا

نيويورك، ٢٣

تشرين الثاني ١٩٧٨

XIX

كأنّني كنتُ مخدّرًا أو غائبًا عن وعيي. كأنّ المسافة بين الحاضر وما قبله، صار بإمكاني أن أجتازها خلال لحظات قليلة. لم أحلم بالصُور ولم أخترع قصّةً حولها. بل تنازلتُ عن حكاياتها جمعاء لتبقى بذاكرتي تركيباتها وأنوارها وظلالها. اختفى أثر الصُور فعلًا صوت القصص من حولها، وعاد الناس فيها ليهيمنوا على ذاكرتي مخترقين هدوء الصُور الجامدة.

لو كان المغلّف ما زال معي لكنتُ تصرّفتُ به كما أشاء. قد أختارُ عددًا من الصُور لأنشرها في كتاب أو في عدد خاصّ من تلك المجلّات التي كنت أجمعها في الماضي. أو ربّما لا أفعل بالمجموعة شيئًا، بل تقبع هناك بصورها داخل جهازي بانتظار من يدفعه الفضول للتّعرُّف على عملي القديم، مثل ضيفتي بالأمس.

لكنّني لم أكن لأرميها. لم أعد أتخلّص من الأشياء بالخفّة نفسها التي كنتُ أرميها بها في شبابي يوم الرّحيل. حتى ما لا يُعجبني من الصُور أحتفظ به في ملفّ على الجهاز علّني أحتاجه في يومٍ من الأيّام.

«لقد تركنا كلّ شيء تحت الضغط»، قالتها فاليري. اعترفت بالنّدم، وبأنّها تحسد بريدا ومارك بعض الشيء لأنّهما حسما أمرهما، وصفّيا كلّ ما يملكانه في بيروت قبل الرّحيل. باعا بعض أثاثهما، ربّما عمليّة شحن باقي الأغراض، سلّما الشُقّة للمالك، أخذت فاليري منهما بعض الكتب، ثمّ استحسنت بعض أواني المطبخ فأخذتها، ثمّ قرّرت أن تشتري منهما ملصقين لرسمي امرأتين لألفونس موشا. ادّعت بداية أنّها حصلت على الأغراض هديّةً، ثمّ اعترفت أنّها عرضت على بريدا خمسين ليرة بدلًا للّوحتين، أمّا ما تبقّى، فقد أخذته من دون مقابل.

ومن بعدها صارت تدفعني إلى التخلّص ممّا يُذكّر بالماضي لنصبح خفيفين في حياتنا الجديدة، على حدّ قولها، ثمّ ما لبث إحساس الأسف يراودها. كرّ وفرّ مثل العادة بين الشيء ونقيضه.

غير أنّي لم أتأثّر بتقلّباتها، وبقيت على موقفي ثابتًا، بل كرّستُ حاجزًا منيعًا بيني وبين بعض ذكرياتي التي كانت راقدة ولم تتحرّك إلّا اليوم.

«صرنا في زمن معلّق»، قالت لي قبل انفصالنا الأوّل. صمّمتُ على العودة يومها ضاربًا عرض الحائط بوظيفتي الجديدة، وبقراري بطوي

الصفحة مع بيروت. تحرّك بداخلي شعورٌ بالاستقلاليّة، طغى على هروبي من الماضي. قرّرتُ العودة. كنتُ أتمنّى لو عدتُ أن أرى البيت نظيفًا بجدرانٍ بيضاء ناصعة، لا بكلّ الألوان كما كنّا طليناه. كنتُ أتمنّى أن يكون صديق جاكي قد رمى بما لا لزوم له، فلا يبقى من أيّامنا الأولى معًا سوى فضاء البيت الفسيح وتلك المدخنة. مات جاكي مثلما مات نايجل وآخرون. عالجتُ تعبي من التّفكير بهم وبالعودة بالمهدّئات وباليوغا. حسمتُ أمري، وقرّرت العودة بعد ثلاثة عقود إلى صفحة بيضاء، بدأت اليوم تفقد نصاعتها.

لم أربط المنبّه، غير أنّي لم أحتج لما يوقظني هذا الصّباح.

شربتُ جرعةً من كوب الماء، واتّكأتُ على طرف المنضدة لأنهض من الفراش. لم يبق ما يذكّر بجلستنا. ساعدتني بنقل بعض الصُّحون نحو المطبخ قبل خروجها بالأمس، وتطوّعت بغسل كأسينا وما فرغ من الأطباق، فشكرتها وقمت بالعمل بنفسي فور خروجها.

السّاعة ناهزت الثّامنة.

شاشة هاتفي تومض بضوء أزرق. رسالة جديدة وصلتني بُعيد الثّانية فجرًا.

«أتمنّى أن نتمكّن من الاجتماع قريبًا قبل موعد سفري. إذا كان لديك بعض الوقت اليوم، فأنا باقٍ في بيروت.»

بان محرجًا من لقائي بصديقته ومن حديثي معها. لا بُدّ أنّها سردت له كلّ التفاصيل. كلّ ما أراد معرفته عرفه، وتأكّد منها أنّ صور والديه قد اختفت من مجموعتي. عاريان أو شبه عاريين لم أذكُر. قد يكون هو الأخبر بذلك، إذا كان قد وقع على نسخة من الصُّورة بين ملفّات والديه.

لا داعي لأن أجيبه الآن.

راقت لي فكرة أنّ أعمالًا قديمة لي قد أثارت هاجس أحدهم. داني أو غيره...

نهضتُ لأتّجه صوب الحمّام. وقعت بطاقتها المهنيّة أرضًا. لممتها ووضعتها على المكتب. نورا الخازن أنتروبولوجيّة ثقافيّة. سأصبحُ موضوع بحثها القادم، قلتُ.

عدتُ إلى السّرير وحملتُ الجهاز. بادرني طالبي السّابق بالتحيّة، فرددتها معتذرًا عن الحديث لأنهي العمل في نصوصي.

انتهت الحرب بوصول رسالةٍ من مانويل آحو.

كانت الرّسائل تصلُ باليد عن طريق أحد الواصلين إلى بيروت من الخارج. وهكذا وصلت الرّسالة آخر يوم سبت من شهر تشرين الثّاني. طالعت جليل سيّدة شقراء قرعت الباب عند الصّباح. كانت تضع نظّارات شمسيّة أزاحتها عن عينيها لحظةَ سلّمته الظّرف على باب المدخل. لمعت عيناها الخضراوان، ثمّ استدارت. سَمِع صوت طرق كعبها العالي وهي تنزل الدرج حتى بعدما أقفل جليل الباب.

كتب مانويل رسالته بخطٍّ صغيرٍ. رصّ الكلمات كأنّه يقتصدُ في الورقة.

وجّه الرّسالة إلى جليل مستهلًا بكلامٍ يُعربُ عن الأسف والحزن العميق على فقدان أخٍ وصديقٍ. أوّل ما شرع بالكتابة، قال، كان يوجّه الرّسالة إلى شخصين اثنين، لم يفترقا بنظره. حتى لو كان أنبئ أنّ من أسماه صديقهما الحبيب، أيَ هو وجليل، قد تعِب، تعب كثيرًا إلى أن غدرته الحياة قبل أربع سنوات. علِمَ بموته متأخّرًا من مهاجرٍ مثله، أخبره أنّ أهله باعوا الأرض والبيت بعد موته وانتقلوا إلى المنطقة الشرقيّة، حيثُ لاحقتهم المضايقات. هكذا نحن، كتب مانويل، رُحنا ضحيّة قَتَلة ومجرمين لا بُدّ أنّهم لا يزالون يسرحون في أرجاء بيروت الغربيّة. غدًا سيغسلون أيديهم ويشتركون بمهزلة الحكم ما بعد الحرب.

اختتم رسالته شاكرًا جليل على إقامته في البيت وعلى محافظته عليه ووعد بلقاءٍ قريبٍ، إذ إنّه سيحضر إلى بيروت. في أيلول أو تشرين الأوّل القادم، بحسب الظروف.

لم يسأل عن سارية والإبنين. كاتبه كأنّه ما يزال عازبًا مثل أيّام لقائهما بجاك في مقهى الرّوضة. يتسامرون لساعةٍ أو أقلّ. يعرض مانويل عليهم آخر صوره، يقرأ جاك أمامهما وأمام آخرين عواميد أخبار اقتطعها من الصحيفة الجديدة. يحتسون البيرة المثلّجة، ثمّ يعود كلٌّ منهم إلى بيته. مانويل إلى شارع ليون، وجاك إلى حارة حريك، وجليل إلى حيّ السدّ.

ألقى جليل الورقة عند طرف الخزانة في المدخل. التقطتها سارية. قرأتها ثمّ سارعت لطيّها من جديد. أعادتها إلى الظّرف، وزجّتها بين الكتُب والأوراق المكدّسة.

صار الهواء مصحوبًا ببرودة يحملها من الشَّمال، وازدادت السَّماءُ زرقةً حتى في ساعات الظهر. رذاذ ماء البحر يأتي من الممرَّات الطَّويلة المفضية إلى الشَّاطئ، يتغلغل من النَّوافذ المشقوقة في أعلاها، يصفُرُ في السَّيَّارة ثمَّ يطير. سمحَ عنصرٌ من الجيش اللُّبنانيّ لجليل أن يتقدَّم. كان بدأ يتهيَّأ ليعود بهم من حيث أتوا، متمسّكًا بمقود القيادة بيده اليسرى، رافعًا سبابته كأنَّه يدلّ على الأفق أمامه. يده الثّانية تقبضُ على مبدِّل الشرعة استعدادًا للرُّجوع إلى الوراء. لم يكن الطريق مقطوعًا. أشار له عنصر الجيش أن يتقدَّم مبتسمًا. ففعل. كسر مروره السُّكوت، ودفع بهم المحرِّك إلى آخر الطريق حيث لاح نورٌ برتقاليّ. على يمينه سارية، منكمشة كأنَّها لا تُصدِّق ما يدور من حولها، وفي الخلف راجي وفراس ساكتان. دارت العجلات فوق الزفت المتآكل وغرزت في التراب. كلَّما دارت وتطاير الحصى الصَّغير من قعر الحُفر، تصلَّب شيءٌ فيهم. هوت العجلةُ الأماميَّة في فجوةٍ ملأتها المياه واستقرَّت في قعرها. تبيَّن فراس مصدرها. قناة متعرِّجة ارتسمت في التُّراب تنبعُ من قسطل حديديّ بعيدِ عشرين مترًا، تسيرُ فيها المياه فتتلوَّن بلون العشب البرّيّ قربها، ولا تتأخَّر بالوصول عند طريق الزُّفت حيث ترقد في الفجوات.

اقترب راجي من منتصف المقعد الخلفيّ ليتمكَّن من مشاهدة المنظر من الواجهة الأماميَّة وعبر النَّافذتين إلى جانبيه. وسَّع فراس له مكانًا في الوسط والتصق بالباب يعالجُ المفتاح فيه. ظهرت حروف معلَّقة بجدار اخترقته الفجوات، اختبأت خلفها مربَّعات من البلاط الأبيض بقي بعضها ملتصقًا بالجدران الصَّفراء. تقدَّمت السَّيَّارة ما ناهز المترين، فبانت تعاليق الحديد المعقوفة منغرسة فيها بإحكامٍ كأنَّها وضعت للتوّ. وتدلَّت من السَّقف جنازير أكلها الصدأ.

بدا جليل متيقِّظًا، وأحسّ أنَّه عليه أن يسيطرَ على نفسه، فسار ببطء. نظر يمينًا ويسارًا حانيًا رأسه فوق المقود عندما تأكَّد أنَّ عدد الحُفر تقلَّص أمامه، وراح يراقبُ أعلى البنايات كأنَّه في فيلم سينمائيّ. وكلَّما تبيَّن إسم متجرٍ من أشلاء الحروف المتدليَّة فوق الأبواب، انشرح وأصلحَ جلسته وردَّد الإسم عاليًا.

هنا المطعم حيث أتينا...

أخرجت سارية ذراعها من نافذة السَّيَّارة، وألقت براحة يدها على صفحة الباب تُربت عليها كلَّما تقدَّم جليل قليلًا. رصدت نظراته، كالطفل يميلُ ناحيتها ومن ثمَّ إلى اليسار يُطارد أماكن كان يعرفها، ثمَّ يتوجَّه إليها

بتلاوة العناوين والأسماء، كأنّه يُبلغها أنّه يعرفُ بيروت ويتذكّرُ نواحيها حتى بعد سنوات الحرب الطوال. ساعدته في فكّ الرُّموز وتحزّرت معه عن متاجر الطّوابق الأرضيّة. أغفلت عمدًا اسم بعضها علّه يتذكّر لوحدِهِ. ولمّا قاطعته لتُصوِّب ما يقول، تبنّى كلامها مستدركًا، وردّده بنبرته الأولى كأنّه لم يُخطئ في الأساس.

ظلّ فراس ضاغطًا بجسمه على الباب إلى يمينه يُلاعب مقبضه وتفاصيله النّاتئة شاردًا بنظراته كعادته. سيصلون إلى مبتغاهم، وسيضطرّ للنهوض وهو حتى في الظّرف الاستثنائي هذا، يتمنّى لو يعودان بهما هو وراجي إلى البيت بعد المدرسة بدلًا من النزهة بين الرُّكام. تأمّل السّيّارة تزحف فوق التُّراب محدثة هسيسًا اختلط بكلام أبيه المندهش عند كلّ زاوية. راقب تطاير الغبار، وعاد ليمرّر إصبعه من فوق المقبض إلى أعلى فإلى أسفل.

لو كانت الرّسالة قد وصلت قبل شهرين لما كانت سارية لِتُصدّق نيّة مانويل بالعودة. ولو كان عزم على مكاتبة جليل قبل فترةٍ، لكان اكتفى بالتحيّة وبالاطمئنان على البيت. كان سيسألُ إذا ما اعترضهم أحدٌ من مالكي البناية أو من جيرانهم. تعرّفتْ بمحامي صاحب البيت، وبدا لها لطيفًا متفهّمًا لوضعهم. ناداها من مطلع الدّرج بتهذيب وسألها أن تُبلّغه بأيّ أمر يزعجهم، مشيرًا برأسه إلى الخلف نحو الطريق، كأنّه يقصد المارّة أو المسلّحين وأيّ عابرٍ أمام البناية. أعطاها بطاقة باسمه ورقم هاتف من منطقة المزرعة أو وطى المصيطبة، وترجّل نحو سيّارة كانت بانتظاره. كأنّه وكيل أعمالهم قال جليل ساخرًا متّهمًا سارية ضمنًا بالسذاجة. ردّدها مرّةً وهو يُقلّب صفحات الجريدة بتوتُّر، ثمّ أردف أنّه كغيره يترقّب الفرصة المناسبة للانقضاض عليهم، وأنّهم بمكوثهم هناك يؤدّون خدمةً للمستأجر وللمالك، ويحرسون البيت من أهل الشوء أصحاب السّلاح في بيروت الغربيّة.

صدّق مانويل أنّ الأمن استتبّ في بيروت بعد أن شاهد صورًا لأشخاصٍ يتعانقون عند طريق صيدا القديم، أمام محور معمل الريد شو، أو ربّما رأى الأولاد يتسلّقون منصّة حجر الترافرتين يُلامسون يد تمثال الشُّهداء ويبتسمون للمصوّرين كما في الماضي. سمع بخبر فتح المعابر، فاستفاق من سُباته وتذكّر بيت شارع ليون واستذكر اسم جليل وشهرته، ورسم في خياله صورة لرحيلهم يشرعون بحمل أمتعتهم تاركين البيت له كما كان، مخلّفين الصُّور والرُّسوم فوق الجدران. ليست المعابر فقط هي

التي فُتحت، بل كلّ خطوط التماس باتت مفتوحةً، تعبرُها هكذا من ضفَّةٍ إلى أخرى، مثلما تجتازُ شارع الحمراء من أوَّله إلى آخره. جعل من رسالته تحيّةً قاطعًا وعدًا بالرُّجوع إلى لبنان بعد غياب عشر سنوات أمضاها مع زوجته في أميركا. كأنّه اهتدى بوقف القتال وبفتح الحدود إلى ما كان ينوي قوله عن صديقهما المغفور له، وإلى أمرٍ فكَّر به منذ مدّةٍ وآثر كتمانه. هذا البيت لزوجتي، فهو لي وعقد الإيجار كان باسمها «فاليري غارث غوين» وما يزال. فهو بالتّالي لي، وأنت يا جليل لجأت إليه لتحميه من المتحزِّبين ولتصون حقّي بالعودة إلى بيروت يومًا، حيث جاء بي أهلي ذات عام من بلاد بعيدة. أقدّم لك شُكري للسنين التي استقرَّيت فيها بين أرجاء البيت، وأطلبُ اليوم أن أستعيد منك مفتاح الباب الخشبي ومفتاح البوَّابة الحديديّة الخضراء، لأنّني عائدٌ في القريب العاجل.

اختلط الكلام المكتوب مع صورٍ وأفكارٍ طافت كفقاقيع الصابون في جوّ غرفة المدخل. أعاد راجي الورقة إلى المغلَّف ودسّها بين الكتب المتكوِّمة، حيث كانت سارية قد زجّتها وانصرف إلى الحمّام. رفع ذراعه اليمنى ودَفَع بدرفة النّافذة مترقّبًا صوت حفيفها بالدَّرفة الأخرى. خطوةٌ فاثنتان، وألقى بجسمه النّحيل فوق حافّة المغطس مطوِّقًا رجليه بيديه شارداً في بلاط الأرض، مثلما يفعل أبوه وأخوه فراس. لاعبت الرِّيح غشاء النايلون فوق الزُّجاج المكسور، وبدأ رذاذ المطر ينقره بشكلٍ متسارع. التفتُ يمينًا، فمدَّ ذراعه وراح يلاعبُ سطح مياه الاستخدام المتجمِّعة في المغطس. فتح ثغره، فانزلقت منه رواسب من محفوظاتٍ وأشعارٍ لملمها من مصادر متعدّدة، تبدأ الجملة فيُلحقها بكلماتٍ من إعلانٍ شاهده على التلفزيون، أو من أشعارٍ فرنسيّةٍ للأطفال. إصبعٌ فإصبعان فأربعٌ يمرِّر رؤوسها فوق الماء بحركةٍ متباطئة. رسم مثلّثًا فمُربّعًا ثمّ راح ينقر الماء، كأنّه يعزف على آلةٍ موسيقيّة. تراءى خيال أحدهم من فتحة الباب، يعبر الممشى الطويل من غرفة النوم الأخيرة قرب الحمّام ويختفي عند المدخل. لكنّه وراء الباب المقفل هذا يحتمي من كلّ شيءٍ، يختلي بنفسه من غير أن يُحاسب، ومن دون أن يستثير فضول أيٍّ من أفراد أسرته. حبس ما في قلبه وعاد يُردِّد بصوت يكاد لا يُسمع ما استحضره من أغانٍ مبعثرة، هكذا كما في ساعات القصف وافتراش الممشى الطويل. ردَّد كلمات أغنيةٍ قديمة مثلما تلقَّنها من عمّته زهريّة. أغنية صفّ الرِّياضة قالت حانيةً ظهرها، واضعةً يديها الباردتين فوق خدَّيه. أفرد أصابعه وصفَّق براحة يده فوق سطح الماء، كأنّ شيئًا ما لذعه. ثمّ غطَّسها بالكامل فابتلّ طرف قميصه. لاعب أصابعه من تحت الماء معاودًا لعبة العزف،

فصارت ترتفع وتطرّش وجهه على أنغام ما تمتمه بالفرنسيّة.

Trois jeunes filles suivaient une patrouille

Trois jeunes filles suivaient une patrouille...et ri et ran, ran, ran pa ta plan

عاوده الصمت لبرهةٍ ثمّ تابع المقطع الأخير:

Nous sommes libanaises de Karak de la plaine

Nous sommes libanaises de Karak de la plaine ...et

ri et ran, ran, ran pa ta plan

استعجل في المقطع الأخير ثمّ توقّف، ثمّ عاد للغناء من جديد، وصار يُفرغ ما علق في رأسه ران ران رامباتابلان... ران ران رامباتابلان. أغمض عينيه وحبس صوته. انتشل يده من تحت الماء. مسح بها عينيه واتّجه صوب المرآة يتفقّدهما. انتظر دقائق طويلة ليخفّ الاحمرار. فرك خدّيه ببقايا لوح الصابون علّه يستعيد لونه السّابق. تعب من وقفته. تنفّس عميقًا وفتح الباب، وسار متباطئًا في الممشى الطويل.

توقّفت السّيّارة عند مدخل صالة السينما. شعر جليل أنّها باتت هي تقتاده فتتوقّف حيث شاءت، تصيبه رغبةٌ شديدة بإكمال الطريق لرؤية السّاحة بعد طول السّنين. سينما الأمبير، قال. ألصق رأسه بأعلى المسند الرّماديّ فاسحًا مجال الرّؤية أمام سارية، التي أخذت تتأرجح على مقعدها شاخصةً إلى ما وراء الشّبّاك. طأطأت رأسها تناءً، ثمّ عادت وأصلحت جلستها بعد أن استرقت نظرةً إلى مقعد الإبنين خلفها.

تساقطت لافتات الإعلانات، وخلّفت على الجدران أشكال مستطيلات ومربّعات وأحرف لاتينيّة وعربيّة. اقتلع بعضها شيئًا من طبقة الإسمنت وظلّ متدليًا كعناقيد العنب الذّابلة. أمامه، أفق البنايات الصّفراء. وإلى اليسار، حائط من الإسمنت المفرّغ، بُني أمام متجر تطايرت ستائره المعدنيّة وعلِقت شفراته المتهالكة بدرابزين الشّرفة من فوق. تحرّك راجي إلى الوراء حتى كاد يلتصق بالزّجاج، بينما براميل التنك المتصدّعة والأعشاب البرّيّة تتوارى كلّما تقدّمت السّيّارة نحو السّاحة.

كم حائطٍ جديدٍ أُضيف على الأجزاء الأصليّة من الأبنية! وكم نبتةٍ فرّخت وعاشت وماتت في مكانٍ ليس لها أصلًا! تحتجبُ الكلمات خلف الجدران. منغرسة في الأرض، تخرج من ظلامها بمرور سيّارات المتفرّجين. يتسرّب نورهم، تتوهّج للحظات، وتعود لتحتجب خلف هياكل البنايات. ثغرات مختلفة الأحجام زرعتها الحرب، ظلّت واضحة المعالم نضرة

كالورود، بارزة الخطوط، تتكلّم بعصبيّة وأخرى هادئة، نامت تحت العشب الأخضر، وابتلّت بالطحالب أيّام الشّتاء.

سكتت سارية عن رسالة مانويل. جفَّ الخبر في قلبها، فرآها استقرّت عند طرف مقعد الزاوية في غرفة الجلوس حانيةً ظهرها إلى الأمام، متمسّكةً بفنجان القهوة. شاردة. رفع جليل غطاء السّكريّة، ثمّ أفلته محدثًا قرقعةً أيقظتها لحظةً من سهوتها. حلّت الظلمة عليها، قال راجي، فحوّل نظره عنها فوقع على رسمَي الفتاتين. حدّق بالأسطوانة فوق أذن الأولى، وقرأ اسمَ Mucha عند أسفل الدّائرة المحيطة برأس الفتاة. تراجع خطواتٍ نحو باب الممشى، فتعثّر بالسّجّادة. استدرجه فراس إلى الغرفة.

أجابه راجي على سؤاله. قال له إنّه لا يعرف ما بال والديه.

مانويل أرسل يُطالب بالبيت، قال فراس.

هل قرأت الرّسالة؟

أيّ رسالة؟

إذًا، كيف علمت برجوع مانويل.

أقرأت الرّسالة أنت؟

لا. أيّ رسالة؟

مفتاح الغرفة الوسطى في مكانه. والفواصل التي ابتكرتها سارية في نمليّة المطبخ بقيت حيث كانت. دارت في أرجاء البيت تتفرّس بأثاثه، دخلت على راجي وفراس. تذرّعت بجمع الثّياب الوسخة المتكوّمة، انقضّت فوقها وحملتها ضاغطةً عليها فوق بطنها شابكةً أصابع يديها. ظلّت فردة الجوارب البيضاء التي وقعت منها على الأرض في مكانها.

سيرجع مانويل وسنترك البيت، أردف فراس ما إن توارت سارية.

هل أنت تعرفه؟

أذكره قليلًا. وأنت؟

رأيتُ صورةً له في الغرفة الوسطى بالأبيض والأسود، يرتدي بنطلونًا فضفاضًا ويعتمر قبّعة قاتمة اللّون.

اكتظّ النّاس أمام السّيّارة. رجلٌ وامرأة. رجلان ومن ثمّ ثلاثة. بعدها، مجموعة أولاد تصطحبهم سيّدة خمسينيّة غطّى منديلٌ شفافٌ شعر رأسها. انكشفت أمامه ساحة البرج. ظهر التمثال وبدت خلفه الريفولي.

فتّحوا يا مغمّضين، صدَح جليل بهم. فتح الجميعُ عيونهم، فرأوا السّاحة.

رأيتك متأثّرًا بمشوار الأمس، قال فراس شادًا أزر أخيه الأصغر.

ها قد انتهت الحرب وفُتحت الطُرقات، وقد زُرت ما كنت رأيته فقط في البطاقات وفي الكتُب. ربّت فوق كتفه، ثمّ انشغل بفك شريط حذائه القديم. قرّب راجي يده من كوب فراس. نصفه مملوءٌ. ابتلّ ذقنه وهو يبتلعُ الماء جرعات جرعات حتى أنهاه. حمل الكوب إلى المجلى. تذكّر مشهدًا من نهار الأمس، لن ينساه: وعاءٌ زجاجي من الحجم الكبير امتلأ بالخيار المُخلّل فوق علّيّة تساقطت الجدران من حولها وراوح هو مكانه، كالشّجر مغروزًا بأرضه.

هل غادرت البيت اليوم؟ سأله روكز كأنّه يستخلص أبرز ما قيل خلال آخر جلسة لهما. أسند يده على معصم الكرسي مداعبًا شعر ذقنه، وأقفل باسمًا.

كُتل الماضي رآها تنهمرُ كأحجار الصّخر، تسقط في بركةٍ محدثةً جلبةً كبيرة متى ارتطمت بالمياه واستقرّت في جوفها.

قطعةً قطعةً، تبيّن ما اقتلعه وما راكمه في الوعاء السّحيق أمامه. تحقّق من إنجازه، وحدّق بالمسافة التي فصلت بيته اليوم وبين ماضيه. كلٌّ في جبل، يتقابلان عن بُعد، هو في حاضرٍ جديدٍ مجبولٌ بذيول الماضي ومتحرّزٌ منه في آنٍ واحدٍ. يرى الكُتل من فوق. يقتربُ من الحافّة ليرمي ما بيده، يُغمض عينيه حالمًا متمتمًا كلمات صنع منها صلاته، كأنّ له مع الماضي دينًا عليه تسديده إلى ما لا نهاية.

حينَ أفكّر بأمّي اليوم، أراها تتنقّل في بيت شارع ليون تُرتّب أغراض المطبخ.

يغيبُ عنه أنّها انتقلت مع انتهاء الحرب الطّويلة إلى بيت سيزار قريب خالتها فيوليت في حيّ الظّريف. تخيّلها وهي تردُّ على مخابراته ممسكة بجهاز الهاتف البرتقالي في زاوية المدخل في بيت مانويل، متّكئةً على الخزانة السّوداء. انتقلت مع ابنيها بعد مدّة قصيرةٍ من الضغوط من محامي المالك الذي لم يتورّع عن استخدام لغة الميليشيات معهم، ما إن انتهت الحرب. أبلغهم الرّسائل المجهولة الواحدة تلو الأخرى، يدسّها من على الباب مع السّائق:

أنتم تشغلون هذا البيت بصورةٍ غير شرعيّة. عقد الإيجار بات باطلًا بثبوت رحيل أصحابه، منذ اثني عشر عامًا، وتمنّعهم عن الدفع منذ ذلك الحين.

لكنّنا هُجّرنا من بيتنا، قالت سارية.

صمت جليل ولم يتحرّك. سيمكث في شارع ليون وحيدًا منذ أن دخل سيزار إلى حياتهم من جديد. شجّعها قريبها أن تسكن عنده اليوم قبل الغد، كما قال. لم تكن لتقبل بالسّهر على بيوت الإيجارات القديمة لولا أنّ السّنة الدّراسيّة على الأبواب. خمسة أسابيع وأرحل بعدها إلى كندا. تشغلونه كما شئتم. مهجّرو الجنوب يملأون الحيّ وعيونهم شاخصة إلى

بيتنا، وإلى شقّة تانت هوري تحتنا. وزّعتُ ما استطعت من الأغراض القديمة على الناطور وعائلات النازحين من معارفه، وتبرّعتُ بأثواب أمّي وأطقم أبي لجمعيّة السّيّدات الأميركيّات في بيروت. بعتُ دريسوار الحديد لتاجر من الخندق الغميق، لكنّه لن ينقله إلّا عندما تنتقلين وأكون قد سافرت كي لا يحلو لأحدهم أن يَفتَح عين المالكين علينا.

سقط حقّ مانويل باسترداد شقّته بصدور الحكم ببطلان عقد الإيجار، إثر دعوة محامي المالك. عدل مانويل عن القيام بأيّ تحرّك من مقرّه البعيد، وأجاب المحامي باقتضاب وتلكؤ كأنّه يخشى المواجهة. كان تمهّله كفيلًا ليُسرّع في إنهاء القضية، وعودة شقّة شارع ليون لمالكها.

أقسم جليل أنّه لن يطأ بيوت الآخرين من جديد، ولو تطلّب ذلك انتقاله لوحده إلى الكرك. حمّلته سارية مسؤوليّة تخبّطهم مع انتهاء الحرب، ترمي اللّوم عليه كيف أصرّ على التنازل عن بيت السدّ كردّ اعتبارٍ لما تعرّض له من بعض سكّان الحيّ هناك. لن أعود للشرقيّة، قال لها. لم تستطع أن تُرتّب شيئًا. حزمت أمتعتها وأمتعة إبنيها في يوم واحد. عاد راجي مع فراس من رحلتهما الأولى إلى المنطقة الشرقيّة، كانت نظّمتها المدرسة، ليجدوا المدخل قد امتلأ بالصناديق والحقائب والأكياس. لمح راجي حقيبةً لمانويل، فتعجّب أن تكون سارية هي من استباح الغرفة الوسطى وتجرّأت على استخدامها لأغراضها الشّخصيّة. حركة جليل كانت لا تنقطع، يسيرُ بين الغرف كالتّائه، رافضًا أن يُصدّق أنّ سارية ستهجره مع الإبنين، وأنّ كلام قريب خالتها كان كافيًا ليؤثّر بها ويدفعها لاتّخاذ قرارٍ كهذا، عنها وعنه وعن الولدين، بالانتقال من جديد إلى بيتٍ ليس لهم.

لم تتورّط معه بالكلام الجارح. لم تأمن أحدًا منذ فترة، لكنّها تعرف أنّ لا حلّ لها سوى بقبول دعوة سيزار. سيهدأ بال فراس بمجرّد أن يعلم أنّهم لن ينتقلوا إلى الكرك، وسيعتاد راجي شيئًا فشيئًا على الحيّ الجديد.

افتعل جليل الهدوء، وأنبأها أنّه عائدٌ بمفرده إلى الكرك حيث تدبّر وظيفةً في مدرسة خاصّة، مدرسة النجاح المتوسّطة. سيترك بيروت بعد أن امتلأ خيبةً ويأسًا من إيجاد حلولٍ لمشاكله الماديّة. طلب سيّارة بيك آب وحمّالين اثنين، نقلا التّلفزيون والفيديو وأدواتهما الكهربائيّة وصناديق الكتب إلى بيت الظريف. صدح سيزار من أعلى الدّرج، كأنّه لا يُصدّق أنّ سارية وفت بوعدها. خرج بثوب الحمّام، وأطلّ بجسمه المكتنز فوق حافّة الدّرج يتبعُ بنظراته حركة الحمّالين صعودًا ونزولًا.

عاد جليل أدراجه إلى بيت شارع ليون يتصرّف بمحتوياته كما

يشاء. رمى ما رماه، وسلَّم بدوره الأثاث إلى تاجر من سوق العتيق في البسطة، بعد أن تمنَّعت شقيقة مانويل عن الحضور من بيروت الشرقيَّة لمعاينة ممتلكات أخيها المهاجر. خذ ما تشاء قالت له بنبرةٍ متعالية مختصرةً المكالمة. ندِمَ على مكالمتها، وشعر بظلامٍ داكنٍ يحوم في أرجاء البيت. وحمَّل الأسطوانات والورق وعلب الكبريت وبقايا المجلَّات في آخر اللَّيل، ورماها على دفعات في مستوعبات النفايات الصَّفراء أمام البناية. قبض ثمن الأثاث، وسارع إلى مغادرة بيروت إلى الكرك، بعدَ أن عرَّج على بيت سيزار في الظَّريف حيث كانت سارية تنشغل بتنظيف المطبخ وتوضيبه ونقل حاجات سيزار وأهله إلى العليَّة فوق الدَّرج، يُساعدها راجي، على مضضٍ هذه المرَّة، متحسِّرًا على فراق أبيه.

اختلطت عليَّ الصُّور. لكنَّ بيت الظَّريف لم يحمل غموض بيت مانويل الذي عشنا معه ومع زوجته فاليري من غير أن نراهما. نقلته معنا، فلازم خيالي حتى آخر دراستي الثانويَّة يوم استحققت المُنحة للسَّفر إلى فرنسا. ركَّبت الصُّورة، وحلَّت مكان صورة بيت الظَّريف الذي عشته في عمر النضوج بعيدًا عن الأحلام ومشاوير رأس بيروت. وبقي بيت شارع ليون ملاذ ذاكرتي الوحيد، حيث كنَّا لا نزال أسرةً واحدة، رغم الحرب ورغم التهجير، قبل أن نتفكَّك أيَّام السِّلم.

دخل راجي الغرفة الوسطى خلسةً، تقدَّم من علبة البطاقات البريديَّة، وانتشل مجموعةً ربطتها فاليري بشريط مطَّاطي غليظ لربط الشَّعر. دسَّها تحت قميصه، ثمَّ نقلها إلى حقيبته المدرسيَّة في الغرفة الأولى بعد أن تأكَّد أنَّ فراس منشغلٌ عنه. يحزم أغراضه الخاصَّة بصمتٍ، يُكدِّسُ الدَّفاتر والكتب والمجلَّات في كرتونة أعدَّها جليل، وينزع صور لاعبيّ كرة السلَّة من فارعي الطول عن الخزانة آملًا ألَّا تتمزَّق.

فتح راجي حقيبته، واستخرج الرزمة ملفوفةً بكيس من الورق الأسمر كأنَّها مجلَّاتٍ مشبوهة. استجمع ما تعلَّمه من صفوف اللُّغة الإنكليزيَّة، وغاب يُقلِّب الرَّسائل بين يديه، الذكرى الوحيدة التي أتى بها من بيت مانويل فضلًا عن الكتاب السِّياحي. إثنان وأربعون بطاقة بريديَّة. جميعها لفاليري مرسلة إلى عنوانها في مكاتب منظَّمة الإغاثة في حيّ ساقية الجنزير، كتبتها صديقة، أو قريبة لها، تُدعى بريدا.

جال بنظراته حول غرفته الجديدة ممدَّدًا فوق فراش سيزار القديم. تطلَّع إلى السَّقف العالي معاينًا تفتُّت الطلاء الأزرق الفاتح في موضعين، راسمًا أشكالًا متعرِّجة كأنَّها خريطة لجزيرتين في هذا البحر الأزرق. أزرق

تحته لون أصفر مائل إلى الحمرة، وتحتهما لون طبقة التأسيس المائلة إلى البياض. دخلت عليه من الشبابيك التي شرّعتها سارية نسماتٌ من البحر، فشعر أنّ المدى هنا أوسع، وأنّ السّكينة التي لا يخترقها سوى صوت أولاد النازحين باتت تُبعده عن الممشى الطّويل المظلم ومدخنة القرميد، وحتى عمّا احتفظ به من صور بيت السدّ. أراح ذهنه، وجعل من الغرفة التي استقرّ فيها محطّة جديدةً يحتمي بها ممّا يتغيّر من حوله. نظر إلى الصُّورة المُلصقة قبل تقوُّس الحائط. هذا كلّ ما تركه له سيزار إبن قريبة جدّته فيوليت. صورة لوجه فيروز وقد انسدل شعرها وغطّى عينها اليُسرى. ستُحبُّ فيروز مثلي أنا، قال له سيزار يوم رحيله. استمعتُ إلى أولى أغانيها حين كانت جارتنا في الحي. اسأل جدّتك فيوليت قد تخبرك عنها. توقّع أن يقع على أشرطة حدّثه عنها يوم عيد الميلاد الماضي، مشدّدًا على قيمتها وندرتها بين ما تجده من تسجيلات في السّوق. وقال له إنّه لا بدّ وأن يستمتع بتسجيلاته مثله بالضبط، فهو عشق فيروز وهي امرأته الوحيدة. هكذا أخذ يُردّد. وضع شريط أغنية «علّموني» بتسجيل غير متداول، شارك في أداء الأغنية فيه أعضاء الكورس، فردّدوا مذهب الأغنية «علّموني هنّي علّموني..». الله، الله قال لراجي مستعيدًا لحظات شغفه الأولى باستحصاله على هذا التسجيل النّادر. ثمّ راح يهزُّ برأسه عاليًا رافعًا حاجبيه مكرّرًا «لا، لا، هذا ليس تسجيل فيلم سفر برلك». إسترجع راجي المشهد، فانتابه الشعور الجميل نفسه بالثّقة. كأنّه جايل سيزار الخمسيني وبات يُنافسه في هوايته.

دار في الغرفة وفي ما بقي من أثاثها، فلم يحظَ إلّا بشريطٍ برتقاليّ وأسود مرمي في جارورٍ من الخزانة. سارع إلى اقتلاع كتل الغبار من بين حلقتيه المُسنّنتين. رفع غطاء مسجّلته الصّغيرة هديّة عيد ميلاده الأخير. اقترب من مكبّر الصّوت، فطالعته أصوات رجال متقطّعة ومتداخلة. رجلٌ يبحث عن خاتم ابنته من صيّاد سمك إسمه بهيج، قال إنّها أضاعته في البحر. أجابه بهيج بضحكةٍ أنّ هذا السّمك من صيدا، والسّمك لا يجتاز المعابر. معك الميكروفون الخفي، قال المُذيع. تلاه فاصلٌ موسيقي.

تقدّم بالشّريط، فسمع إعلانًا لمطعمٍ في جونية تُقدّم فيه مسرحيّات الدُّمى المُتحرّكة يوم الأحد، انتقل من بعدها إلى موجز الأخبار. عاد ليشخص إلى طلاء السّقف المتقشّر. شبّه البقعة الأولى بخريطة لبنان، وراح يرصد تعرّجاتها من الأسفل إلى الأعلى. «صوت لبنان وموجز أخبارالثّانية عشرة والرّبع». تفحّص درفات الشّبابيك مع مرور فاصل

الأخبار الموسيقي، فرأى أنّ عرضها أدنى من عرض درفات بيت شارع ليون. لربّما كانت هذه البناية أقدم! ليس بسبب عرض درفات الشّبابيك فقط، بل بسبب ارتفاع السّقف فيها وقِدم نموذج أزرار المصابيح التي بقيت كما تذكّرها فيوليت في زياراتها الأولى لقريبة أمها، والدة سيزار.

«تعرّضت مراكز الجيش في فندق كامل وتلال سوق الغرب لرشقات قنص بالأسلحة المتوسّطة والثقيلة، من مواقع الجنبلاطيين في عيتات والحيّ الغربي من عاليه. وفي منطقة الأسواق التّجاريّة، انفجرت قذيفتان على محور سينما سيتي بالاس أرفقتا برشقات قنص متقطّعة».

انقطع التسجيل، فتبيّن أنّ الشّريط قد علق داخل الآلة. عالجه بطبقة قلم الحبر النّاشف وأعاده إلى الجارور حيث كان.

شعر أنّ البيت الذي حطّوا رحالهم فيه يخفي حياة سكّانه السّالفين. يتفقّدها، فيراها تنتقل من الأغراض والأثاث الصّامت إلى الجدران والشّبابيك، فإلى الطلاء الأزرق فوق الأصفر المُحمرّ.

تراجع تركيزهُ وخاض بذهنه مسيرةً نحو الغرفة الوسطى في بيت مانويل. تخيّلها تخلو من آثار من عاش البيت في ماضيه، ومن تفاصيل حياتهم التي اقتحمته، كما اقتحمت أمّه وأباه قبل أن ينفصلا عند انتهاء الحرب. يخشاها فيسارع إلى الهرب منها مقفلًا باب الغرفة الوسطى وراءه. وقبل أن ينقطع ذهنه عنها نهائيًا، يعود ليتحسّس قبضة الباب منصاعًا لرغبة جامحة في داخله في تقليب خبايا الماضي. هكذا.. ربّما لكي تتساقط وتنجرف مع مرور الأيّام.

أخرج ربطة بطاقات فاليري زوجة مانويل، وغيّر ترتيبها في حركةٍ سريعةٍ مثلما تُخلط أوراق اللعب.

«بعد ظهر يوم أحد في جزيرة جات الكبيرة» رسمٌ منقّط بالألوان لأشخاص يتنزّهون عند ضفاف النهر، تطغى على مشهده هيئة امرأةٍ ارتدت ثوبًا بارزًا عند المؤخّرة، ورجلٌ اعتمرَ قبعةً غريبة كتلك التي رآها في الروايات الأجنبيّة المترجمة.

فاليري،

كم تذكّرتك في شيكاغو عندما شاهدت لوحة سورا. تذكّرت الصّورة معلّقة في المدخل، ورسخت تفاصيلها في ذهني منذ بدأنا المواظبة على السّهر في بيتكما كلّ سبت تقريبًا. هل ستحضرينها معك إلى أميركا؟ ليتنا قمنا بما ستفعلانه، وأبقينا بيتنا بعهدة لبنانيين ريثما نعود يومًا إلى

بيروت. لكنَّ بيتكم هو أجمل في كلّ الأحوال. بيتُنا الأخير بالقرب من أوتيل بافيون كان من بيوت بيروت القديمة تصعبُ فيه التَّدفئة لعلوّ سقفه. أعتذرُ سلفًا من مانويل، لأنَّني أعرف أنَّه يُحبُّه ويُذكِّره ببيت جدَّته، كما قال.

إلى اللِّقاء القريب في نيويورك.

عاد يحدِّق بسقف الغرفة. نظر إلى تاريخ الرِّسالة من جديد: ٤ شباط ١٩٨٠. حملت فاليري صورة اللَّوحة معها، وقد تركت وراءها علامة آثارها على شكل مستطيل بارز على الحائط فوق خزانة المدخل السَّوداء. شعر أنَّه حلَّ لُغزًا قديمًا، وتمالك نفسه كي لا يُخبر سارية فتستغرب هذا الاهتمام بالبيت الذي هجروه لتوِّهم، في الوقت الذي ما تزالُ تُلملم حزنها على انفصال جليل عنها.

انقطع عن الكلام كأنَّه يتجنَّب خطأ ما. نظر إلى روكز، وعاد ليروي له بصوتٍ متحشرج عن طقوس انسحابه من عالم الحاضر في بيت الظَّريف والتجائه إلى رسائل فاليري المُخبَّأة في جارور الخزانة تحت شالات الصُّوف، كأنَّه عاجزٌ عجزًا أزليًا عن التصرُّف بماضيه.

أمسكتُ القلم محدِّقًا بالسَّقف في زيارتي الأخيرة لأمِّي. نبتت جزُرٌ جديدة غلب عليها لون البياض، حتى كادت تتَّصل بالرُّقعة القديمة التي كنت أشبِّهها بخارطة لبنان. يوم حدَّثني داني عن رسائله إلى قرَّاءٍ وهميِّين، لم أكن أعرف أنَّ هناك من يتعرَّف إلى نفسه عبر الكتابة، حتى لو كان قرَّاؤه بعيدين، وحتى لو أيقن منذ اللَّحظة الأولى أنَّ رسائله لن تصلهم.

«فاجأتني الفوارق بيننا منذ التقينا في المرّة الأولى.

لكنني لم أستسلم لهذه الهوّة، كما تعلم، بل ثابرتُ على تبديل عوائدي. استغنيتُ عن صمتي، وصرتُ أتطرّق مثلك إلى أصعب المواضيع. أخرجتُ كلَّ ما عندي قالبًا معاييري رأسًا على عقب. أسرفتُ بالكلام، فحدَّثتك عمّا يدورُ بيني وبين روكز من أحاديث. كُنتَ تستحسن حكاياتي عن قرية أمّي وعن تنقُّلنا بين المناطق أثناء الحرب. كنت تُذكِّرني بقصّتك أنت، وبتعلُّق والديك بمسكنهما القديم في الحمراء. كُنت أعرف منذ البداية أنّ لكلٍّ منّا قصّة تتشابه مع الأخرى، لكنّهما لا تلتقيان إلّا في بيت مانويل».

قرأ ما كتب. نظر إلى رأس قلم الحبر الناشف، ثمّ مرّره من فوق الكلمات متتبّعًا استدراة أحرفها متمتمًا.. انتقل إلى هامش الصّفحة، ملأ مربّعًا صغيرًا بالحبر النّاشف، ثمّ انتقل إلى المربّع الملاصق مكرّرًا العمليّة. حصل على شكلٍ نافذة مستطيلة. ترك مربّعًا فارغًا وعاد لتحبير المربّعين التاليين. ستّ مرّات كما في البرج الشّاهق أمامه. انطلق بالكتابة من جديد.

«علّقتُ بكلمتين اثنتين «لقطات موفّقة» تحت إحدى صوره. كنتُ أبحثُ عنه بخجل أثناء سنوات ابتعادي، وكان فضولي يدفعني للكتابة له، غير أنّي لم أتجرّأ على ذلك، ولم أجد أصلًا جدوى لهكذا لقاء بيننا. أتى الظّرف المناسب بإقامته لهذا الموقع. تركتُ هذا التّعليق، فجاءني ذلك الردّ القاسي منك برسالتك على حسابي الخاصّ. أخبرتني أنّه يستغلّ النّاس بل يحتقرهم برأيك. ثارت ثائرتك على إطرائي، فتعجّبت لاندفاعك الزّائد إلى أن التقينا».

تسمّر أمام الدفتر. نظر إلى ما كتبه. صفحة كاملة. أعاد قراءة آخر سطرين، قرّب القلم نحو السّطر ما قبل الأخير، دفع به ليُضيف كلمةً واحدة في آخر إحدى الجمل. تريّث قبل الكتابة، ثمّ دوّن شيئًا بأحرف صغيرة ما لبث أن حذفه تاركًا النّصّ بنسخته الأصليّة الأولى. قلّب الصّفحة وتابع الكتابة.

«كلٌّ منّا له صور، وكلٌّ منّا له مشاهد يحتفظ بها. لكنّي عند لقائنا كنتُ متخاذلًا مع مواقفي، أخمدُ ما إن أتبيّن أنّك من رأي مناقض فأجاريك ملتجئًا أحيانًا إلى مصطلحاتك وتعابيرك. وما إن أتأكّد من رضاك حتى أفتحُ لك ما عندي من أفكار واقتراحاتٍ، أعرفُ سلفًا أنّك ستتّفق معي عليها. هكذا كنتُ مع غيرك أيضًا، تنازلتُ عدّة مرّاتٍ عن حقّي بالتّعبير،

وصمتُ عن أخطاء فادحة لدى زملائي، وكنتُ أهربُ نحو مساحاتي الخاصّة أجلس بمفردي أطالعُ وأدوّن آملًا أن أحصد الثّقة من طلّابي الشّباب في أقلّ الأحوال».

لم يعُد يلتفت إلى الكلام الذي باح به. اكتفى بعدّ السّطور من غير أن يعيد قراءتها. ألقى بالقلم فوق الدّفتر، واستعاد وضعيّة جلوسه الأولى. رفع رأسه من جديد نحو البرج المهجور. حدّق بالنّوافذ المحفورة كالفجوات في جدار الإسمنت. اعتادها هكذا مشرّعة على محيطها، كأنّها تستنشق هواء المدينة وضوضاءها. تجذبهما نحوها ليختفيا في الغرف المظلمة خلفها.

لو وقف أحدهم خلف نافذة لكشف طول الشّوارع المتوازية الممتدّة حتى البحر غربًا، قال. ولو نظر يسارًا لتاه نظره بين الأبنية الصّفراء والبنّيّة خلف شارع سبيرس، ولما كان ربّما ليلحظ غرفته في بيت سيزار. أو لربّما تنبّه لها بعد دقائق من تأمّله منظر المدينة من مكانه الكاشف.

لو كان مشروع البرج قد اكتمل قبل اندلاع الحرب، وافتتحت المكاتب فيه، لكانت النوافذ نفسها قد تحوّلت إلى واجهات زُجاجيّة بسيطة لا تُفتح إلّا نادرًا تُغطّيها السّتائر في الواجهة الغربيّة عند المغيب من صوب البحر، وصباحًا في الواجهة الشرقيّة عند طلوع الشّمس من خلف الجبل. كان سيظهر في بعض الأحيان طيف رجلٍ أو امرأة يقفان أمام الزّجاج، إمّا شاردَين أمام السّيارات المارّة، وإمّا لفتح أو إقفال السّتائر. الأشخاص نفسهم، كان سيراهم سيزار من غرفته بين فترةٍ وفترة. قد يرونه هم أيضًا، لكنّه هو من سيؤلّف لهم القصص وهو من سيقارن بين ألوان السّتائر في طبقات البرج أو بين حركة الموظّفين خلفها. لكنّ البرج فارغ، قال. عاد لرسالته. سها عن رسالته. تنهّد مستجمعًا أفكاره. التقط القلم من جديد، وعاد يُدوّن باندفاعٍ متزايد.

«تزورني صورٌ من بيوتنا تشاركتها معك. حتى بيت مانويل من غير أن أسمّيه، أو أن أفصح لك عن سرّي وعن ارتباط قصّتي بقصّة رحيله عن لبنان التي كنت تعرف أدقّ تفاصيلها على ما يبدو. حتى إنّني شعرتُ أنّك كُنت تُشرِكُ نورا بمواضيع، كنتُ أنا أجهلها، كما حدث يوم بادرتني طالبةً منّي أن أنزع تعليقي عن إحدى صوره. كنتُ تجرّأت على كتابته لأجاهر برأيي أنا، غير أنّي اعتمدتُ ما كنت تقوله لي عن تجميل ماضينا، وانتقاء ما كان صالحًا منه لإحيائه عوضًا عن اختصاره بالحرب. أردتُ أن أخبرك ربّما أنّ بيني وبين مانويل قصّة مشتركة، برز منها وجه صاحب الدّكّان. لم

أسأل إذا كنت أنت من دفع نورا إلى الطلب منّي حذفه، لكنّني عرفتُ أنّه آن الأوان لي أن أطوي صفحة مانويل تلك بالكامل».

شعر أنّه يرمي الكلام من رأس القلم، بينما تجول في ذهنه أفكارٌ حول ما سيليه. يدفع بالقلم سريعًا فتلمع بباله صورةٌ مختلفة، يُنهي جملته، يسترخي فتزوغ عيناه صوب برج المز. أفلت قلم الحبر من يده وهو يُراقب نوافذ الواجهة الجانبيّة. نافذتان في كلّ طابق. تخيّل نفسه ينظرُ من إحداها نحو بيت سيزار، يرى نفسه من الخارج. اجتاحه إحساسٌ بالقلق. بدّد الفكرة وعاد يستذكر.

«طويتُ صفحةً وفتحتُ صفحاتٍ أخرى. رويتها لك من دون خجلٍ.

أدركتُ أنّ أمّي صاغت كلّ كلامها، في قناعةٍ منها أنّه بعد رحيل جدّي اسودّت الدّنيا وتغيّر كلّ شيءٍ، فصارت تترحّم على الماضي وتُجمّله. هكذا مثلما كان والدي جليل يسترسل بوصف وسط بيروت ومشاويره إليه مع جدّتي بفرحٍ عارم. شأنه شأن والديك كما سردت لي. ينتقصون من قيمة الزّمن الذي وُلدنا فيه والحياة التي كُتب لنا أن نعيشها. تلذّذتُ بالاستماع إلى قصص جدّي وأخبار خالتي فيوليت، قصص ناصعة تبدأ وتنتهي قبل امتداد البقعة السوداء التي وُلدتُ فيها وتشبّعتُ منها».

تنحدر الصُورُ من طلاء سقف الغرفة المتهالك وتقع فوق الدفتر، قال. توقّف مرّةً أخرى. صفحة كاملة. تردّد قبل أن يُتابع. قد يُنهي الرّسالة هنا. لكنّه سرعان ما انتبه إلى أنّ ما يدوّنه يسيلُ من دون عناءٍ. تقع الكلمات والحوادث كالرّكام من دون رابطٍ منطقيّ ربّما، أو حتى من غير سبب. سيختتم الحديث بعد حين، حين تتوقّف السُطور من تلقائها. تداخلت صور البيوت.. بيت السدّ، فبيت شارع ليون، فبيت جدّته طاهرة وقصص عمّته زهريّة. لكلٍّ منها رائحة ولون. لكلٍّ منها ما يوحي بالدّفء أو ما يُثيرُ القلق. عرف أنّه من لحظتها وصاعدًا سيكتُب الكثير، أكثر من رسالةٍ واحدة، ربّما.

كلُّ ما فيه بات ثقيلًا، قال. وأفكاره أخذت تتزاحم فلا يعرفُ كيف ومتى يستخرجها ويدوّنها على الورق. أكمل الشكوى لنفسه فتنهّد عميقًا. تريّث قبل أن يتناول هاتفه المحمول. لامس شاشته، وعاد ليقذف به إلى اخر السّرير عند قدميه. حدّق بسقف الغرفة مجدّدًا، فتراءت له بقعٌ بأشكالِ الغيوم تتنقّلُ في فضاء الغرفة. خفَّ اضطرابه، فألقى رأسه على الوسادة ، ثمَّ ما لبثت عيناه أن ارتختا مستسلمتين للنّوم.

قال روكز إنّ حديث راجي اتّخذ منحى واضحًا بعد أشهرٍ كان قد استتر فيها خلف غشاءٍ سميكٍ أربكه أثناء الجلسات، يصغي فيها إلى المواضيع المتشعّبة يتوه عنها في أكثر من مناسبة. غير أنّه اليوم قد كتب التّفاصيل ووجّه الكلام إليه مباشرةً، كأنّه يُفصح عن أمورٍ محدّدة المعاني، فلا يُلمّح بالرّموز والكلمات المبهمة. أحبّه أن يستنبط الحياة من قلب الماضي المندثر، أن ينسى مرور الوقت، وأن يقف أمام الأحداث كأنّها تجري اليوم متسلّحًا بتجربة الحاضر. لم يطل بك الأمر حتى وقفت تتصدّى لِلكلمات، صارحه روكز. تنتظر أن يستجيب لك من آذاك أو واساك في الماضي.

بدأ يستعيد قواه بعد لحظات ثباتٍ عميق في فترة بعد الظهر الحارق. شعر أنّ مكوثه فوق السّرير قد طال، فتح عينيه ولم يحرّك أعضاء جسده، بل ظلّ شاخصًا إلى النّقطة ذاتها، إلى السّقف فوقه. مستحيل! قال. أغمض عينيه وفتحهما من جديد. اختفت الجزر من على سقف الغرفة، وعادت صفحته ملساء زرقاء. شهق عاليًا: مستحيل، مستحيل. علا صوته. حرّك يده مفرجًا عن دفتر الرّسائل الذي تمسّك به أثناء نومه. نظر صوب النّافذة، الشّمس تضربُ برجَ المرّ من جهة الغرب. السّاعة الان بُعيد السّادسة. وزّع نظره على أرجاء الغرفة. حاول الإبقاء على هدوئه، ففكّر في كيفية الانصراف عن هذا الحُلم. لم يقو على الالتفات نحو الباب حيث الصّوت. صمت هنيهةً. شعر بالخوف. تمالك نفسه وسأل: من؟

أنا.

من أنتِ؟

أنا، عمّتك.

متى وصلتِ؟ لم أسمعك تدخلين.

كُنتَ غاطسًا في نومك.

نظر إلى وجهها، فطالعته الشّامة تحت عينها اليمنى. اقتربت منه فارتبك أكثر، وجعل يستقيمُ في جلسته. لم تقترب منه، بل بدّلت مسارها واتّجهت نحو النّافذة معرّجةً على صورة فيروز.

إن نزعت الصّورة هذه قد يتشوّه طلاء الحائط من خلفها.

ظنّها توبّخه على فعلته، فأجابها أنّ الصّورة ملصقةٌ منذ أيّام سيزار.

إبقها إذًا، ولا تلصق غيرها.

تحرّكت سريعًا نحو الباب محدثةً جلبةً خفيفة بكعب حذائها. عادت بكرسيٍّ معدنيٍّ فتحته وارتمت عليه، فاستقرّ نظرها في عينيه. ابتسمت وقالت:

أمُك تعبة. تعبة من أبيك ومن تربيتكما أنت وفراس. عُد إليها ولو مؤقّتًا. أنظر من حولك، فالغرفة هنا مريحة ومشرّعة للهواء. وها قد أخليت الشُقق المحتلّة من أمامكم وخفّت جلبة الطّريق. لن تلومني بعد اليوم إذا استوقفت أولاد المهجّرين، وسألتهم عن أسماء قراهم. لن تشعُر بالخوف من ابتعاد أهلك وإقامتك معي مرغمًا في بيتنا في الكرك. اكتُب ما تشاء ودوّن ما تريد من جملٍ مرصوفةٍ ومن أفكارٍ. تذكّرها لتلهو بها ساعات الضّجر. أمّا أنا، فسأسلّيك أيضًا بأخباري، تحبسها في روايتك لتشرّعها أمام النسيان.

شعر راجي أنّه متأخّرٌ في فهم ما يجري. كانت عمّته زهريّة لا تزال مستويةً على الكرسي منحنيةً نحوه في السّرير أمامها، تصِلُ محطّات كلامها بين الفينة والفينة بنظرات نحو تنّورتها الكحليّة، تنفضُ عنها الغبار بحركةٍ سريعةٍ من يدها أو تتخلّص من قشرةٍ علقت بها ترمي بها أرضًا، ثمّ تعودُ لتنظر إلى راجي كأنّها حضرت لإبلاغه رسالةً ما.

قد تكون تسلّلت إليّ خلسةً، قال في نفسه. شقّت طريقها بين ما كتبتُه لتصوّبَ الرواية ولتخبره عن تعب أمّه.

وماذا عن جليل؟

ذكر اسمه من غير أن يرفقه بكلمة والدي. فز منه الإسم، كأنّه يُسائلها عن أخٍ أو قريبٍ لها لا صلة قربى تجمعه به.

جليل، لا يُحبّ الكرك على عكس ما تظنّ، ولا يرتاحُ إلّا في بيروت وأحيائها المكتظّة. يتهرّب من إلقاء التحيّة على جيرة الحي وعلى أقاربنا حين يخرُج صباحًا صوب المدرسة، يتحسّس من قمصان الصّوف شتاءً، ويتأفّف من مصطلحاتٍ نستخدمها كأوضة الشّتاء أو الطزر أو الدوشك.

يتذكّركم ويتذكّرك أنت، ترسمُ بنايات بيروت وفوّهاتها المفتوحة، فينشرح إلى حدٍّ ما، ويردِّد على مسمعي ومسمع من أتى لزيارتنا أنّ إبنه الأصغر تعلّق بالبيوت وبأشكالها، ثمّ يؤكّد أنّك تؤثرُ البقاء في المدينة مع أمِّك ومع فراس مهما كان، وأنّك ستنتسبُ إلى كلّيّة الفنون الجميلة لاحقًا لتتعلّم مبادئ وتقنيات الرّسم.

خفّ ازدحام الصّور، كأنّها انفكّت عن عقدةٍ ساورتها منذ زمنٍ طويلٍ. لم يبق لراجي سوى أن يقتنع ويتصالح مع هذا الماضي القريب. كان جليل موافقًا على عودته إلى بيروت وإلى سارية حتى في بيت سيزار في الظّريف. ردّدها راجي، كأنّه يسجّل نداءً وكأنّه يستخلص العبر من الخيالات العابرة في فضاء الغرفة الزرقاء.

بارك لك والدك فوزك بمنحة التّعليم، وفرِح في قرارة نفسه أنّك ستنتقل للعيش في مدينةٍ بعيدةٍ، تنتقل فيها خفيفًا مستقرّ البال بعيدًا عن متاهات الوقت الدّائر مطمئنًا لحاضرٍ جديد تتآلف معه.

فتح عينيه، فلمح سارية تخرجُ من الغرفة. استفاق تمامًا.

تناول هاتفه المحمول وقلّبه بين أصابعه. تفرّس بجزر الطّلاء المتشقّق، فتبيّن حدود الرقعة القديمة الشبيهة بخريطة لبنان. نهض من فوق السّرير وسار حافيًا نحو النّافذة. أكمل العمّال مدّ الغطاء الأخضر المثقوب فوق مبنى النّادي الأرمني. قد يبدأ الهدمُ غدًا. سنستيقظ ربّما على صوت الحافرات. علّني أكملُ نصّي قبل الغد! قال في نفسه.

ظلّت الغرفة على حالها. وبقيت الجدران والصُورة والخزانة والكراتين والأغطية من فوقها وعلب الأحذية وحقيبة أمتعته التي أحضرها ليمضي بضعة الأيّام هذه في بيت الطّريف، بقيت جميعها كما هي. خفَتَ الثُوزُ على بُرج المز. لعلّ الوقت تجاوز السّابعة بربع ساعةٍ أو أقلّ. ستُفيده سارية بالمزيد من الأخبار، وترضخ لأسئلته الغريبة يحيي بها الذّاكرة، ويهتدي بإجاباتها إلى فضاء قصّته مع جدّته فيوليت وأخبار بيروت ومستشفى الكرنتينا والدير الأزرق. تنصاع لكلامه فتستوي على الكرسي وتسردُ ما تسرده، متأرجّحةً بين زمنين بل أزمنةٍ متداخلة لا يقطع ذلك التأرجح سوى تذكُّرها لغرضٍ أوصاها به فراس لرحلتها إليه في اليوم الثالي. تجتاز المسافة بين الغرفة الزرقاء وغرفة نومها متفقّدةً حقيبة السّفر فوق سريرها. تتأمّل البطاقة وتُعيدُ قراءة موعد السّفر. الثانية والرُّبع فجرًا من مطار بيروت. سنخرج من الطّريف في تمام الحادية عشرة تحسّبًا لأيّ طارئ. أنبأها أنّه سيرافقها في سيّارة الأجرة، وأنّه مستعدٌ للبقاء معها طول نهار الغد قبل موعد سفرها، يؤازرها ويسعفها، إذا نسيت غرضًا ما وهي تتفحّص اللّائحة بين يديها. أكياس الصّعتر والخيار البلدي ومرطبان من الباذنجان المحشو بالثوم والجوز ومجمعان من الحلاوة. كتابٌ لتعليم اللُغة العربيّة وشريط لكاميرا التّصوير، نسيه فراس في رحلته الماضية الخريفَ المنصرم. جارته في ذكرياته، واستطاعت بقدرة قادرٍ أن تستحضر صورًا لأبيها ولفيوليت ظنّتها انمحت من عالمها. انمحت مثلما زالت آثار حياتها الزوجيّة الأولى في بيتها الوحيد في حيّ السدّ، ومثلما تلاشت صور إقامة أسرتها في بيتين غرب بيروت، مع ما رماه جليل من مخلّفات بيت شارع ليون ومع ما ستحمله هي بعد رحيلها عن بيت سيزار بعد عامٍ أو أقلّ إلى شقتهما الجديدة، هناك فوق تلّة. سيطلّان منها على المدينة من فوق.

ظنّ أنّ غرفة سيزار القديمة قد أصبحت قوقعته، وأنّ ما يستخرجه ذلك المساء سيشدّ به نحوها حتى بعد سفر سارية في رحلتها الصيفيّة الطّويلة. تخيّل أنّه إذا ما عاد وواجه روكز بعد ساعات التدريس، سيعودُ رأسًا نحو بيت الطّريف ينزوي في الغرفة الزرقاء أمامَ صورة فيروز، يُراجع مخطوطاته مقلّبًا ما استذكره وما سمعه من أمّه قبل رحيلها. أصلحَ جلسته ونظر إلى درفة الخشب يُلاعبها نسيمٌ خفيف في صيف بيروت الحارّ. جذب الهاتف المحمول إليه، اعترته رعشةٌ، أفلته من يده مجدّدًا متذكّرًا

عهدًا قطعه على نفسه بالتوقُّف عن إرسال الرَّسائل الخطيَّة. نادى على سارية، فسمعها تتوقَّف عن توضيب الأغراض في الغرفة. نهض عن السَّرير وانتقل إلى النَّافذة متَّكئًا على حافَّة الحائط. سارعت سارية إليه متوقِّعةً أن يطرح عليها المزيد من الأسئلة عن بيوت الدِّير الأزرق متوهِّمةً أنَّه يحضِّر لحلقة نقاش عن العمارة التقليديَّة في جبل لبنان. يُغلِّف أسئلته باستفساراتٍ جمَّة عن أحداث مختلفة بعيدة عن صلب الموضوع، وما إن تتنبَّه هي مستدركةً أنَّها شتَّت عن السُّؤال، حتى يُؤكِّد لها أن لا ضرر من ذلك، بل إنَّ كلَّ ما ستخبرهُ به اليوم حتى عن أقاربها وعاداتهم وأمزجتهم ونهفاتهم وخصوماتهم، وألعابها هي وابن عمِّها سيمون أيَّام الصِّغر، يصبّ في خانةِ الرواية الكبيرة التي بات يترصَّد أدقّ تفاصيلها آملًا أن يخلُصَ منها إلى عالمٍ جديد.

لقد أنهوا مدَّ الغطاء. لربَّما كثُرت الجلبة وانتشر الغبار من أعمال الهدم. سأعودُ إلى شارع أرتوا ليلة غدٍ بعد عودتي من المطار.

لم تقترب من النَّافذة. سمعتهم يرمون بالحبال من الطَّابق الأخير مطلقين صيحاتهم بين طبقاته الخالية، فيرتدّ صداها إليها بينما هي واقفةٌ في المطبخ تحضِّر طعامًا لراجي يكفيه مدَّة أسبوع.

لا عليك من الطَّعام. سأنقله إلى شقَّتي هناك، وسأشترك بالمولِّد الكهربائي، ولن أتوانى عن تفقُّد البيت هذا مرَّة في الأسبوع أو أكثر.

عرفت سارية أنَّها لن تُثنيه عن قراره، وأنَّه قرَّر أن يبتعد عن مشهدٍ سيثيرُ انزعاجه. يومًا بعد يومٍ، سيفيق على جلبة الأنياب تنقضّ على المبنى الكبير، حيث كان سيزار يحتمي مع أمِّه من القصف الثقيل المنصبّ فوق بيروت الغربيَّة.

سيعودُ البيتُ يُطلُّ على البحر كما في الماضي، مع عودتي من السَّفر.

عرف أنَّها فهمت وحشته، وأنَّها تبحثُ عن بصيص أملٍ لتخفِّف عنه وعنها ورشة الهدم هذه. كلَّما استمع إليها اكتشف عينيها الشَّاردتين والزَّائغتين وأحسَّ بتوتُّرها، وكلَّما استمعت هي إليه تحايلت على تقصيرها في فهمه، وأخذت تلبِّي أسئلته مهما ألِفَتها غريبةً.

مرَّ بباله مشهد زيارته الأولى لسيزار مع فيوليت ومع سارية، عندما لعب معه بالشطرنج في فصل الشِّتاء على المقاعد التي كانت مكسوَّة بأغطية السَّاتان. تذكَّره يروي له بشغفٍ عن أغاني فيروز الأولى وعن

مجموعته الموسيقيّة النّادرة أيّام كان الحي ما يزال عالقًا في زمن ما قبل الحرب. ثمّ ما يلبث أن يستيقظ على مشهد الشّريط الأبيض والأحمر يُزنّر المبنى أمامه. أقفل الدرفات الخشبيّة بتؤدة، غير مبالٍ بالمساء اللّاهب وبرطوبة بيروت المرتفعة. اكتفى بالمروحة الصغيرة قرب الباب، وتوجّه مباشرةً إلى جهازه المحمول على الطاولة المربّعة. فتح ملفّ دروس الجامعة، وعاد ينقّح نصّه عن تأثيرات المحيط في مشروع العمارة.

ما إن أنتهي من حزم حقائبي سأعود وأجالسك، قالت سارية من على باب الغرفة. التفت نحوها مطرقًا برأسه. ركّز نظره على الشاشة أمامه من دون حراكٍ. تشجّع، فأعاد الجهاز إلى موضعه ملتفتًا مرّةً أخرى صوب الكراتين. فتح هاتفه، فطالعته أيقونة الرّسالة الخطّيّة أعلى الشّاشة. رسالةٌ من رقمٍ طويل.

«وصلتُ بعد سفرة دامت ستَّ عشرة ساعةً إلى بيت عمّي. تعذّر إرسال الرّسائل من رقمي اللُّبناني. أتمنّى أن تكون بخيرٍ...» بدَت الرّسالةُ مبتورةً، وأخذت الأيقونة تشحب وتخبو علامةً على امتلاء ذاكرة الجهاز.

امتلأت ذاكرة الهاتف من جديد... ردّدها بصوتٍ عالٍ مندهشًا.

نزل عن السّرير يبحثُ عن قلمٍ بين أغراضه. تناول فاتورة أدوية جاء بها لسارية من صيدلية شارع سبيرس. نقل على ظاهرها الرّقمَ مستبدلًا رمز «زائد» بصفرين، وضغط بإبهامه على زرّ اليسار ماسحًا الجزء الأوّل من الرّسالة. طال انتظاره للرّسالة الثّانية. تأكّد أنّ الذاكرة تتّسع للمزيد. طالعته رسالة من نورا الخازن تدعوه فيها للقائها عند مقهاه في شارع المقدسي. تذكّر تاريخها قبل أن يقرأه. أزالها، وعاد رأسًا للصّفحة الأساسيّة مترقّبًا.

دخلت عليه سارية بثوب نومها حاملةً بيدها صحنًا من الخوخ الأبيض.

ألا تُريدُ أن تتعشّى؟

بلى، بعد قليل.

أجابها متفرّسًا بالورقة، حيث دوّن الرّقم الطّويل.

أضاءت شاشة الهاتف برسالةٍ جديدة. انصرفت سارية من جديد، فسارع إلى فتحها «...رحلةً موفّقة أتمنّاها لوالدتك! داني» التوقيت الثّامنة والدّقيقة الواحدة.

رمى بالهاتف أسفل السّرير مثل كلّ مرّة، فحطّ عند رجله. صمّم أن يُكمّل ما بدأه أوّل فترة بعد الظُّهر، فتناول دفتره ليتابع الكتابة. تأخّر عن تدوين أوّل كلمةٍ. رسم خطًا متعرّجًا، ثمّ رمى بالدفتر متوتّرًا كأنّه يبحث عن الحركات وهي تعصاه. حمل الهاتف ومحا رسالة داني الأخيرة. تناول الفاتورة ونقل الرّقم أعلى دفتره. جعك الورقة بين يديه، ورمى بها في السلّة أمامه.

أمسك الدّفتر في محاولةٍ جديدةٍ، وانطلق في الكتابة.

صحنٌ بلاستيكيٌ أخضر من مخلَّفات بيت شارع ليون، فيه رأسان من البطاطا المسلوقة المقشَّرة وحبّاتٌ من الزَّيتون الأخضر وأربع خيارات مقطَّعة عموديًا رشَّتها سارية بالملح وطاولها زيت الزيتون. صحنان توأمان من بيت السدّ. الأوَّل لكريات لبنة الماعز، والثاني لشرحات جبنة القشقوان وكبيس اللِّفت الأحمر. صحن أبيض من بيت سيزار، وضعت فيه سارية الخوخ الأصفر. وعاءٌ جديد من ماركة بيركس فيه بقايا طبخة الظهيرة. خلطت فيه سارية الأرز مع السبانخ بالصَّنوبر، ووضعت في صحنٍ بلاستيكيٍ أجوف مربَّع الشَّكل نصف حبَّة ليمون حامض.

خطفت رجلها صوب المطبخ حاملةً سلَّة الخبز الصَّفراء، وجلست أمامه.

تفحَّص بيده الطاولة إلى يساره كمن يتفقَّد شيئًا. نسي هاتفه في الغرفة الزرقاء. عدل عن إحضاره وتمسَّك بصحنه الفارغ. رفعه بإصبعٍ واحدةٍ، ثمَّ تركه يرتطم بشرشف الطَّاولة المخرَّم. تذكَّرت سارية أمرًا. قامت ثمَّ استدركت، وعادت إلى مجلسها كأنَّها بدَّلت رأيها. سكب راجي من طبق السبانخ وعصر القليل من الحامض فوقه، انتزع البزور ورماها في الصَّحن المربَّع نفسه. رفعه بدوره وتأمَّل الأرزة في شعار شركة الطيران القديم.

الصَّحنُ هذا من بيت مانويل.

لم تُجبهُ أوَّلًا بل تركته يفتل الصَّحن بيده كما يفعل بكأس النبيذ. ولمّا تلكَّأ في إرجاعه إلى المائدة، توقَّفت عن اقتطاع لقمة الخبز، وأجابته.

«ربَّما» قالت، تاركةً له الكلام إذا أراد أن يبوح بالمزيد.

زادت من الطَّعام السَّاخن في صحنها، ومضت تأكلُ ما سكبته حانيةً رأسها.

انسلَّ نورُ المصباح الخافت إلى تجاعيد وجهها، ورأى في عينيها سحرًا لم يره من قبل.

عرفت أنَّه يرمقها، انتظرته أن يحكي، وتناولت قطعة خيارٍ من الصَّحن الأخضر.

هل أرسلتِ يومًا بطاقاتٍ بريديَّة؟

اهتزَّت كأنَّه حرَّكها من عزِّ نومها. عادت عيناها تبرقان في وجهه.

اشتريتُ مرّةً واحدة بطاقةً عندما أخذونا في مدرسة العائلة المقدّسة برحلةٍ إلى بعلبك. لكنّي اشتريتُها لأريها لوالديّ لا لأرسلها.

تذكّر البطاقة قرب المزار في بيت فيوليت وقد اصفرّت أطرافها. على يمينها أحجار من السّمك المتحجّر المنتشر في المنطقة، وشخص السّيّدة العذراء.

مرّات عدّة استلمنا فيها رسائل قصيرة من خالي سركيس، الوحيد الذي كاتبنا من عائلة أمّي من أميركا. أرسلَ صورةً له مع ابنه. لا، لم نكن نبعثُ بطاقات.

بدا جوابها قاطعًا، أتاه من دون تأخير. هكذا، ليعلّق الحديثُ في حلقةٍ فارغة، وليعودَ الصّمت بينهما حتى نهاية العشاء.

لم يستطع أن يلمّ المائدة معها قبل أن يخطف رِجله صوب الغرفة. أحضر هاتفه وعاد اليها.

هل سافر داني؟

فاجأته، فلم يُجِب. سألته عنه هكذا من دون إنذار. ارتبك، ثمّ قرّر أن يُجيبها ولو باقتضاب.

نعم.

هل سيعود؟

شعر بلحظة أنّ الميزان انقلب، وأنّ سارية باتت تستفسرُ منه عن أمورٍ يصعبُ عليه الكلام عنها. ها أنت تسألني عن ماضيّ قد تقول له. لم يحتج أن يقول لها شيئًا، إذ قطعت عليه صمته سائلةً إذا كان سيشاركها بفنجان قهوةٍ خفيفةٍ كعادتهما بعد العشاء.

الأرجح أنّه باقٍ هناك. يتمنّى لك رحلةً موفّقة في جميع الأحوال.

خرج الكلام من فمه بسلاسةٍ هذه المرّة. ربّما لأنّه انتظر طويلًا، فكّر. أو لأنّها اكتفت فقط بشكره على إيصال رسالة داني الكك الأخيرة. ضغط على زرٍّ جديد، أفرغ بكلام على قلقٍ يسكنه منذ أيّام.

ساد الهدوء في الحيّ ليلًا كالعادة، ولم يُسمع من جانب المطبخ سوى هدير السّيّارات في شارع سبيرس تتوقّف أمام مبنى الصليب الأحمر عند المطعم الكبير.

أفرغت ملعقتين من البنّ في الماء المغلي. رفعت ركوة القهوة عن لهب النّار، ثمّ أدنتها من فوقه، ثمّ رفعتها من جديد. ظنّها انشغلت عنه

بأمور السّفر، وراحت أفكارها إلى ما سيتوجّب عليها إنجازه في الصّباح التّالي. لكنّها ما إن خَفضت النار تحت الركوة حتى تنهَّدت كعادتها قبل الكلام.

ما في يوم بيروح وبيجي مثلو.

قالتها بنبرتها الشّاكية، وانكفأت عن التّحريك، ثمّ رمت بالملعقة فوق الصُحون المتّسخة في المجلى. لم يعرف إن كانت شكواها تشملُ قصّته، أو إذا كانت إشارةً لأمور الحياة بشكل عامّ. أرغمته على الإجابة عن داني أوّلًا، ثمّ طالعته باستنتاجها الأخير لتذكّره أنّ حركة الوقت مستقيمة تنتقلُ من مرحلةٍ إلى أخرى لا رجوع فيها.

ارتسمت على وجهها علامات التعب وهي تُمسك بالفنجان. تحاشى الكلام خوفًا من أن يعودَ وينقلب عليه، ولو كان واثقًا أنّ في نيّتِها التودُّد. صمتَ، فعادت هي لتكسر سكينته بصوتها الخفيض:

أنتَ جمَّعتَ بطاقاتٍ بريديَّةٍ كثيرة.

اهتدى في لهجتها إلى استحسانٍ لهوايته القديمة، فإذا توسّع الحديث، قال في نفسه، سيروي لها من جديد عن مشاويره مع الفرهود إلى المكتبة التي استذكرها بحذافيرها مع روكز.

لكنّك لم تُرسل أيًا منها.

لا...

لامس هاتفه من الطرف الأعلى حتى الأسفل. إنحنى يتفرّس برسمة مطرّزةٍ على الشرشف. مربّع أصفر بداخله حرف ال L.

حديثها مستديرٌ، قال. تبدأ بطرحه وتختتمه بأسلوب غير متوقَّع. متعرّجٌ لا مستدير. مستديرٌ كان حديث عمّته زهريَّة، فكَّر. تحكي معها وتجادلها لحظاتٍ طويلة، لكي تعود في نهاية المطاف إلى نقطة انطلاقها محجمة عن اكتساب أيّ جديدٍ من محدّثها. أبوه كان هكذا. لكنّه لم يكن يُكثر من الكلام مثل أخته الكبرى، بل على العكس، ينتظر أن يصل الآخرون إلى نقطة متقدّمة من قصّتهم، فيعاجلهم بجملةٍ أو كلمة واحدة كفيلة لأن تعيدهم إلى الوراء، إلى ما كان يقصده هو. فراس كان هكذا وهكذا بقي.. يتحيَّن الفرصة ليختتم الحوار، مستعيدًا فكرةً أو طرحًا أتى به في أوّله.

خطوةٌ تُقرّبه من سارية وخطوةٌ تُبعده عنها. يتّحِدان بجهوزيّتهما الدّائمة لتفادي مطبّات الحديث، ويفتعلان اللّامبالاة إذا ما تعثّر أحدٌ أمامهم

فلا يزيدان من إحراجه. نقطة تميّزه عنها، فكّر، فهو لا يُشاطرها قفلاتها الشّاكية التي تفتح الجراح ولا تختمها. يتحسّب لنقاط ضعفه، فيحول دون استنهاض ما يؤلمه في شتّى الأحاديث. يستعجل وينتقل إلى فكرةٍ أخرى آملًا أن يطوي صفحة الماضي، متأكّدًا ضمنًا أنّه لن يقدر أن ينساها.

إلّا اليوم. اليوم، وقف أمام مبنى النادي الأرمني، وأشار إليه مردّدًا أمام سارية بملء فمه أن المبنى سيُهدم. اليوم، تغلّب على الحزن وتجرّأ، فقال ما في باله واستنفر قواه ليطوي الصفحة بتبديد الرّسائل القديمة من على ذاكرة الهاتف علّه يتلقّى غيرها في الحاضر القريب.

عاد هو إلى الغرفة، وعادت سارية إلى حقيبة سفرها تُعيدُ ترتيب الأمتعة فيها مرّةً ومرّتين أو أكثر.

تلعثم روكز بكلمته الأولى. استهلّ جملته بلفظٍ مبهم، كأنّ الأحرف تفكّكت في حلقه فور خروجها. ابتسم هنيهةً، وأعاد تشكيل خطابه من جديد.

لقد تعبث يا راجي في مسارك. ذمعت عيناك أحيانًا وحبست حرقةً دفينةً، ثمّ أطلقتَ ألمك وانفجرتَ باكيًا مرارًا. عوّضت عن ثغراتٍ في قصّتك بابتسامةٍ باردةٍ كانت تتلقّفك من شجنك، تُنيرُ وجهك وتستعيدك إلى الحاضر للحظات.

حصدتَ الرّاحة من لحظات البكاء، فأعدت ترتيب الأفكار وتوضيبها في أدراجٍ متنوّعة. تلتقطُ القصّة من طرفيها، تنفضها، تنقر أجزاءها بإصبعيك كما تُنقرُ ورقة مشدودة.

استمع راجي إلى كلامِه مستعيدًا أشهر الشّتاء المنصرم.

تذكّر اللّحظة التي دخل فيها معترك الذّاكرة رافعًا عنه ما لجمه عن الكلام أيّام دراسته. عالجَ معصم ساعته، وعاد ينقلُ نظره بين أرض الغرفة ومقعد روكز.

لا عودة إلى الوراء، قال في حينها. خطوةٌ فخطوتان نحو الأسفل، هكذا كانت البداية. مرّةٌ بعد مرّة، غاص في عمق أفكاره. استقرّ في أوّل درجةٍ من ماضيه متناسيًا الحاضر حوله.. يومًا بعد يومٍ ودرجة خلف درجة.

استأنف روكز الكلام. غاب راجي في أفكاره يبحثُ عن صورةٍ لكلّ كلمة وجملة يسمعها. تنقّل بخفّةٍ في خياله، ثمّ عاد وتوجّه بنظره نحو روكز ما إن أنهى كلامه. أرخى معصم ساعة يده وبدأ بالكلام.

«كنتُ في المحطّة الأولى، أتململ بين ذكرياتي المبعثرة. أمسكُ قلبي، وأصف لك الأسى الذي لفّ أسرتي حين غادرنا بيروت الشرقيّة قسرًا. أغمض عينيَ، فتتداخل في ذهني صورتان إحداهما لوالديَ يحتسيان القهوة عند فسحة دار بيتنا في حيّ السدّ، وأرى والدي جليل مبتسمًا راضيًا عنّي في أعوامي الخمسة الأولى. أمّا الصّورة الثانية التي تطفو فوق صور ذاكرتي، فهي صورة أمّي وأبي، سارية وجليل، في بيت مانويل في شارع ليون في صمتهما، وقد غرقا وأغرقاني في حلقةٍ من الضّجر. بيد أنّي اليوم، وبعد أن كنتُ أبصر الماضي سلسلة دروبٍ ومتاهاتٍ

متشعِّبة، أصبحت أحدِّد بثقة شكلًا وإسمًا لذلك الضِّيق الذي سكنني. خلصتُ إلى أنّي عشتُ الانسلاخ بشتَّى أبعاده. انشطر قلبي حين تأكَّدتُ أنّي سأنتسبُ إلى مدرسة جديدة قبل نهاية العام الدّراسي في صفّ الأوَّل الإبتدائيّ. لم يُبلِّغني أحد بالأمر. لم يوجِّه والداي لي كلمةً واحدة عن موضوع الرَّحيل. حزمتُ أمتعتي، وأفرغت الأقلام والدَّفاتر من جارورٍ أصفر في زاوية الصفّ. رافقتني النّاظرة بُعيد الظُّهر حتى الباب، حيث كان جليل واقفًا تائهًا بنظراته. رأيتُ الحيرة في عينيه، فتعلَّمتُ أنّي لن أتكلَّم ولن أشي بالعبء الذي سأحمله بعد اليوم. رأيتُ سارية تتحايل على نفسها وعلينا، ترسمُ ابتسامةً على وجهها ما إن يقع نظرها في عيني أحدنا. رأيتُ فراس يُوضِّبُ كتبه بصمتٍ.

تبدَّدت ثقتي بمن حولي، فكانت الأشياء والأمكنة من بعدها هي خشبة خلاصي الوحيدة. تعلَّقتُ بمحفظتي البنِّيَّة. اشتراها جليل لي بأربع ليرات. رحتُ أخاطبها، أهربُ من ضجري ومن وحدتي بين رفاق المدرسة الجُدد. أنظِّفها بورقة محارم مبلولة لتستعيد بريقها، ثمَّ أقبِّلها قبل أن أخلد للنَّوم في بيت مانويل. خشيتُ أن يصيبها مكروه، أن يُخدش جلدها مثلًا، أن تتعطَّل سُحابتها، أو أن تلتصق بصفحتها الملساء بقع الحبر السائل الأزرق من على طبقة الصفّ. أبقيتها في قعر الحقيبة بين الكتُب أعودُ إليها متى لزمني غرضٌ ما منها. أمدُّ يديَّ الإثنتين إلى داخل الحقيبة وأخرج منها ما أحتاجه. هكذا لا ترى النُّور ولا يعرف بوجودها أحدهم. فاجأني الصبيان الأشقياء في مدرستي الجديدة. يهتاجون كالمجانين كلَّما غاب المعلِّمون عن الصفّ. يتقاذفون بأغراض غيرهم ويتعمَّدون إيقاع كتب البعض، وهم يجرون بين المقاعد عائدين نحو الصفّ الأخير. أنا من بينِ هذا البعض.

كنتُ من بين الفتيان القلائل الجالسين في المقاعد الأماميَّة. بيني وبين مقعد الفرهود مقعدٌ واحد. دفعوا بكتاب الرِّياضيَّات أرضًا من طرفه وداسوا عليه. دافع عنّي الفرهود، واختلى بهم أثناء فرصة الظهر، فلم يتعرَّضوا لي من بعدها.

لم أبالِ بفعلتهم على أيِّ حال. فالمحفظة ما تزال مخبَّأة، ولن تلقى مصير غيرها من الأغراض متى صنتها، وأحكمت الإقفال عليها.

لكنّني بالرّغم من ذلك، ظللت مشوَّشًا أفتقدُ الرَّاحة وهدوء البال. أفتح غطاء الحقيبة أعاينُ المحفظة، أتأكَّد أنَّها ما تزال في مكانها. أطمئنّ. ثمَّ أعاودُ الكرَّة مرَّات عديدة. غرزتُ قلم الرَّصاص بين صفحات الكتب كي

لا أفتحها، فتُحدثُ سحابتها صريرًا يستدعي انتباه أحدهم من الصفوف الخلفيّة. أعودُ إلى بيت مانويل في الحي الجديد. أتوه في نظرات جليل وسارية. أتشرّبُ من صمتهما ومن ارتباك لازمهما منذ وطا عتبة هذا البيت.

رأيتُ في الجماد ملاذًا، مهربًا آمنًا من الأخطار المحدقة بأسرتي كلّما افترقنا عند الصّباح، كأنّي أردتُ أن أقيّد العالم بجنونه داخل أشيائي الصّغيرة. حتى إنّ أنين احتكاك صفحات الخشب ببعضها بعضًا حين أسحب دُرج الخزانة، كان يُبهجني ويشعرني بطمأنينة شبّهتها بوقع كلام أمّي عندما كنت طفلًا طليقًا ألهو في حضنها أمام فسحة بيتنا في حيّ السدّ. ميّزتُ الصّوت الذي كان يصدر عن تحريك كل دُرج من الأدراج. تمعّنتُ بتفاصيل الخزانة، لامست زواياها من الأسفل إلى الأعلى، فمن الأعلى إلى الأسفل، إلى أن استقرّ إصبعاي عند زواياها حيث تلتقي خطوطٌ ثلاثة في نقطة واحدة. أداعب معصم الدّرج الأسفل. أتمدّدُ أرضًا على البلاط في عزّ الشّتاء، أقتربُ من رِجل الخزانة، أشتمُّ رائحة الخشب، أفتح فمي وأقضم بأسناني طبقة الدهان المتيبّس.. هكذا، حتى أسقطها بالكامل.»

تحقّقتَ من شيءٍ، قال روكز. ربّما من أكثر من شيءٍ وأنت تستذكر إحساسك بالانسلاخ عن الطمأنينة، وبافتقاد الثّقة بوالديك وبأيّ كان من أفراد أسرتك القريبة والبعيدة. سكتَ ثمّ انطلق في الكلام.

«قلتَ لي إنّ التّغيير لا يؤاتيك. صارت الكلمات تسيلُ منك بغزارةٍ متصاعدة. القلق يمحوه التمسّك والتشبّث، والصّمت والفراغ ينهزمان بتصميمك على جمع آثار الماضي. تخشى من فقدانك تفاصيل الحياة، تبحثُ عن نثرات الأيّام التي ضاعت. تكدّس قصاصات الورق وبقايا الأيّام. تدوّن عليها التّاريخ الذي تكتبه مدرّساتك على اللّوح ويمحينه بعد حين. تكتبه علّك تتزوّد بذكرياتٍ من هذا الزّمن العابر في بيت مانويل، مثل تلك الذكريات التي اختزنتها أمّك سارية من خالتها فيوليت. أعفاك والدك جليل من دوّامة البحث عن الذكرى، بل اقتادك بيده إلى البحث عن قصّة بيروت قبل الحرب عندما كان وسطها يعجّ بالحياة، مثلما كان يزورها مع أمّه طاهرة. جمعتَ الأوراق ولم ترمِ واحدةً منها، حتى الورقة التي لعبت عليها لعبة المشتوق مع صديقك الوحيد الفرهود، يوم تغيّبت مدرّسة قادمة من بيروت الشرقيّة. كتبت عند طرفها الأيمن تاريخ يوم الجمعة في الثّالث من شهر تشرين الثّاني من العام ١٩٨٩. كدت أن تضيف السّاعة والدّقيقة، لولا أنّك انصرفت عنها لتستعيد مراحل اللّعبة، وكيف عجز الفرهود عن إيجاد

حرفي العلّة في الكلمة الأولى. بقي الخطّان فارغين بين حرفي ال F في مطلع أوّل كلمة والثالث R في آخرها. عدتُ وأضفت بقلم أحمر وبالخط الكبير حرفي ال O وال U.

F OU r Steps D O wN

استغربتَ كيف خفي على الفرهود اسم المكتبة التي أمضيتما فيها معًا وقتًا طويلًا، تستعرضان البطاقات البريديّة في الملفّ المعدنيّ. ذكّرته بالمكان المُظلم وبرائحة الغبار تنبعث من الزّوايا البوليسيّة. ذكّرته بالدّرج المنخفض عن مستوى الرّصيف في شارع الحمراء. تحرّك الفرهود، وعالج الموقف بأن أقرّ لك أنّه خسِرَ اللُّعبة لقلّة التركيز، لكنّه يذكرُ تمامًا كيف سرتما نحو المكتبة تبحثان عن قلم الحبر الأسود عندما انقطع مالك مكتبة المدينة من الإمدادات من المنطقة الشرقيّة. قال لك بَلى، بلى راجي أعرفها جيّدًا. هل عدتَ واشتريت من البطاقات تلك؟

أخذت رأسك بين يديك متجهّمًا عندما انصرفت عن حديثنا. جلست شاردًا أمامي ترفض ما أقوله، وتُثنيني بنظراتك السّاكتة عن متابعة كلامي.

أفهمتني أن لا فرق بين القذيفة وجرّافات الهدم. لستَ قادرًا أن تُميّز بين سلطة السّلاح على العمارة وبين آلات الدّمار الممنهج. كلاهما أدوات موتٍ تنتهك المدينة وتُدنّس شوارعها. بل إنّ القذيفة تروي تاريخ الحرب التي وُلدت فيها، أمّا آلة الحفر الحادّة، فقد أتت تقتلعك من ذاكرتك وذاكرة من روى لك المدينة من قبلك. يضرب رأس المجرفة بالإسمنت المسلّح كأنّها سكاكين تُغرَز ببطءٍ داخل جسدك. وصفت عمليّات الهدم وصفًا دقيقًا حتى شحُب وجهك. احتميت من الصُّور، فهربت من الأمكنة الآخذة بالزّوال وأوصدت الأبواب عليها. أخبرتني يومًا عن محفظة بنّيّة ضاعت منك. لم تبكِ برغم حزنك. فكّرت في أنّ الفرَجَ يأتي بالصّمت وباستعجال النسيان. كبحت الألم في عينيك، ونفّذت ما لقّنتك إيّاه أمّك سارية أن تضمّد الجرح بإعادة كتابة الواقع، بتفكيكه وبتلفيقه علّك تقتنع بحتميّة الوقائع المريرة. جعلت سارية لكلّ حدثٍ أليم قصّةً متعرّجة تُضيّع بها ما أوجعها. لا تذكر بيت السدّ إلّا وتضيف أنّه كان صغيرًا، وأنّ مدرستكما أنت وأخيك فراس في بيروت الغربيّة كانت أفضل. تتصنّع أنّها استبقت الحدث قبل وقوعه، وأنّ كلّ مصابها مربوطٌ بسلسلة الأحداث القدريّة التي لا مجال إلّا للتعايش معها.

نُزلت إلى شارع بيت الفرهود، والتقطت كتلة من إسمنت الواجهة كساها الطّلاء الأصفر. لم تر آلات الحفر في وقت الظّهيرة بل سمعت

صيحات عمَّال ورشة الهدم من على درج البناء. عدتُ إليّ تُخبرني عن عملك هذا، وعن حزنك الدَّفين الذي لم تكن تداويه إلَّا بالابتعاد والهروب كما فعلتَ في انتفائك في فرنسا مدَّة العشر سنين. تحرَّك الدم في جسمك، ولم ينحبس كالسَّابق من المرَّات. بدأت تواجه الصِّعاب وتنظر نحو الحزن بشبقٍ. تمرّ حول أبنية رسمتها أو تخيَّلتها في رسماتك في بيت شارع ليون. تتهيَّب كلَّما اقتربت، وترتعد لمنظر الغشاء الأسود المشبَّك فوق الشُّرفات والأبواب والشبابيك. تستسنحُ فرصةً للنَّظر إلى داخل البيوت التي لم ترَ داخلها من قبل. تستعوذ متى صادفت غرضًا تركه المستأجرون القدامى، وتنسحب نحو شقَّتك الجديدة في شارع أرتوا. تدوِّن ما رأيت، تُحمِّل الصُّور على جهازك، وعندها فقط تنسحبُ إلى يوميَّاتٍ أخرى تُبعدك قليلًا عن الخوف المهيمن.

سألتني عن المرحلة القادمة في رحلتنا هذه معًا، وكأنَّك تجزم أنَّها سوف تكون الأخيرة. أجبتُك أنَّ الخيار خيارك، لكنَّنا سنتأنَّى قبل أن نلِج مرحلةً جديدة. استبقت الأمور بإلحاح وأردت خوض غمار المشوار الأخير، قبل أن تتحرَّر من قيود المرحلة السَّابقة. سأبعدك عن التَّحليل لحظة نزق لفترةٍ قصيرة، لن تلبث أن تتخطَّاها، وترجع لتمحوَ بيديك بقع الخوف ساعيًا أن تتصالح اليوم مع الماضي ومع بيروت، بعد سنين هجرتك الطَّويلة».

استمع راجي إلى روكز يستفيضُ للمرَّة الأولى بشرحه. يسترجع ما علق بذهنه مستنجدًا بملفٍّ من الأوراق بين يديه. استمتع بقصَّته واستحسن تفاصيلها، مثلما أُعجِب بقصص الآخرين.

خمسون أو ستّون كرتونة تنتظرُ نقلها. جهُز معظمها منذ أكثر من سنةٍ. تقدَّم صوب الحمَّام، تفقَّد خزّان المياه وعالج الحنفيّة، ثمّ دار سريعًا على غرف النَّوم الثلاث. يفتحُ الباب ويقفله كأنّه يقتفي أثر أحدهم.

قد تكون شجرة الفتنة على الشُرفة قد ذبلت، قال. لم توصه بها سارية أصلًا، وقد باتت علامات المرض ظاهرة على أسفل جذعها قبل سفرها بمدّة. لم يتكبّد عناء فتح الدُرف الخشبيّة ليتفحّصها أو لينظر خارجًا، لكنّه لاحظ أنّ نور الشَّمس الذي كان يخترق الفتحات الأفقيّة من الخارج قد ازداد قوّةً، علامةً على أنّ الطّبقات العُليا لمبنى النّادي الأرمنيّ قد أزيلت بالكامل. هكذا، عاد وشعر بما تجنّب رؤيته وهو يتّجه نحو البوّابة، يحني رأسه ويُركّز نظره صوب مربّعات الرَّصيف. سينتظر إلى حين تنتهي ورشة الهدم لينظر من النّافذة ويرى السّاحة الخالية وقد لاح البحر في الأفق من جديد، كما رأته جدّته فيوليت حين زارت والدة سيزار في الماضي.

سيتطلّب تفريغ البيت من محتوياته عدّة أيّام، لكنّ المرحلة الإنتقاليّة هذه ستطول، قال في نفسه. ستطول فترة توضيب أواني المطبخ والأمتعة المتبقيّة في الخزائن. ستطول عمليّة رفع وتحميل خزائن سيزار القديمة. لن يرميا شيئًا. سيستصلحان كلّ ما بقي ولفظه هذا البيت وبيت مانويل قبله. سينصهر الأثاث والأغراض كلُّها في ما بينها لتُعطي روحًا لبيتهما الجديد حيث سيسكنان معًا، هو وسارية. سيخصّصان غرفةً لها وغرفةً له وغرفة لفراس. سينقل النمليّة بعد أن يُعالج قواعدها عند أبي ابراهيم النجّار، وسيفكّ قبضات الأبواب وأزرار المصابيح، وإذا تمكّن سوف يقتلع حاملة الصابون من السّيراميك والبلاطات المربّعة ليغرسها في الشقّة الجديدة. سيطلبُ من أبي ابراهيم أن يصنع له أطرًا من الخشب يضع في إحداها بطاقةً بريديّة على خلفيّة رماديّة قاتمة.

استجمع أنفاسه، مسح العرق الذي راح يزداد عند جبينه، واجتاز المدخل حتى الباب. أقفله بالمفتاح، وانحنى ليلمّ ورقةً مرميّة أمام الممسحة. فاتورة الكهرباء بقيمة واحد وأربعين ألف ليرة باسم خليل صادر، سيعود الجابي يوم الثلاثاء كما دوّن عند أسفل الورقة.

أمضى ليلةً واحدة في الغرفة الزرقاء في الظّريف، لم يكتب فيها شيئًا على دفتره، كما توقّع. توقّف عن الكتابة. عدّ الكراتين، وجمع أوراقًا

فوق مكتبه في ملفٍّ من النايلون الأزرق. خطا خطوات في الممشى، ووقع على جهاز التّلفزيون القديم وقد تمزّقت أوراق الصُحُف التي لُفَّ بها، وبان إطاره الخشبيّ الدّاكن.

المذيعة داخل الجهاز، يقول فراس.

داهمت ذهنه الذكرى.

إنّها في الداخل، في الجهاز.. صدّقني...

هذه شارلوت وازن خوري، قالت لهما تيريز زوجة سيمون في بيت السدّ، حين تراءى لها، وقد لمحتهما أمام التّلفزيون، أنّهما يستفسران عن اسم المذيعة في عمر الرّابعة والسّادسة. انفجر فراس بالضّحك، وتبعه راجي مقلّدًا. لفظت إسم المذيعة كأنّه لفظٌ لا ينتهي.. شارلوت، وازن، خوري. استغرب فراس الإسم الطويل، وراح يُضيف عليه أسماء جديدة فيُصبح شارلوت وازن خوري راجي. شارلوت وازن خوري راجي فراس ماما بابا. هكذا إلى ما لا نهاية.. حتى تتلاحم الألفاظ وتُضحي الأسماء المتتالية كتلة صوتيّةً واحدةً. تعود من بعدها زوجة سيمون لتصوّبَ لهما، قائلة: «لا، لا، بس شارلوت وازن خوري. الباقي كلُّه غلط، غلط !»

شعر أنّه يُريد أن يبتسم. انصرف إلى الغرفة الزّرقاء وفتح جهازه. الإنترنت في بيت الطّريف أسرع منه في شقّته. فتح الصّفحة، فطالعته جملة داني الكك الأخيرة: «ها أنا وصلتُ إلى لوس أنجلس بعد ساعات السّفر الطّويل. سأخلُد الآن إلى نوم عميق». تسع عشرة علامة إعجاب لما كتبه على صفحته، وتعليقان بالإنكليزيّة من شخصين لبنانيّين مقيمين في الولايات المتّحدة، ربّما.

ضغط على علامة الإيكس، فاختفى البيان.

صمّم على أن يُدخلَ اسمه في خانة البحث أعلى الصّفحة. ولمَ لا؟ دوّن الإسم، ونقر على شكل المِجهر. هذا هو: مانويل آحو. كبُرَ في السنّ حُكمًا. هذا هو. وهذه هي فاليري في صورةٍ قديمة. صورةً بعد صورةً. بالأبيض والأسود، صورة له بثياب السّباحة في مسبح السّان جورج. دوّن تحتها صيف ١٩٦٣.

ظهر تعليقٌ جديد على منشور داني الأوّل. استغرب كيف استمرّت بياناته بالظُّهور. «دعنا من التعب. سنراك بعد يومين لنحتفل بانتقالك إلى أميركا»، كتب له أحدهم. ثلاثةُ وعشرون علامة إعجاب.

غيَّر الإسم، وأضاف آخر. ثمَّ نقر علامة المجهر مجدَّدًا. هذا هو. فقد الكثير من وزنه، بل تحوَّل إلى إنسانٍ جديد! أضافه صديقًا. لم يمض أكثر من دقيقةٍ حتى قبِل دعوته.

راجي!

فرهود! أين أنت؟

أنا في نيويورك، لكنّي عائدٌ إلى بيروت غدًا. سأمضي شهرًا كاملًا في لبنان.

تواعدا على اللِّقاء. أقفل الجهاز. مانويل آحو في بيروت أيضًا، قال. لن يخاطبه بعد اليوم، لعلّه تعرَّف عليه، فطالبه بكتبه أو ببطاقاته البريديَّة أو صحون البلاستيك. أقفل الجهاز، ونام في بيت سيزار ولم يستيقظ سوى على صوت عمَّال ورشة الهدم.

فتح الجهاز. بدأ نور الشمس يتغلغل من الثقوب منعكسًا على سقف الغرفة وبقع الطِّلاء البيضاء والزرقاء المتراكمة. رسالة من رئيسة القسم توافق فيها على اقتراح أستاذةٍ زميلةٍ له بتنظيم رحلة معه ومع طلَّاب السَّنة الأولى لاستكشاف العمارة الحديثة في الحمراء. سيتطلَّب التحضيرُ أسبوعًا، يتنزَّه فيه مع الزميلة بين الشوارع لتحديد النقاط التي سيتوقَّفان عندها للشَّرح أو للزيارة. إن لزم الأمر سيسألان الأستاذ إيليا، أو يطلبان منه حتى أن يرافقهما في الرِّحلة تلك، إن لم يكن منشغلًا في أبحاثه. رسالتان متتاليتان من رئيسة القسم والزميلة. الأولى، وصلت في السَّادسة وتسع وأربعين دقيقة؛ أمَّا جوابها، ففي تمام السَّابعة والثلث عشرُ دقائق قبل استيقاظه.

انشغل بعدّ الكراتين المتراكمة مستثنيًا الأثاث والإلكترونيَّات الموضوعة بينها، مثل ڤيديو البيتاماكس والتّلفزيون ذي الإطار الخشبي. عددها بين الخمسين أو السِّتين. ستَّة وخمسون تحديدًا، إذا شمل الصناديق المحكمة الإقفال فقط؛ واثنان وستون إذا ألحق صناديق زجاجات البيرة المملوءة بإحصائه هذا. استحمَّ بالمياه الباردة. فرك جسمه بصابون الغار، ثم أمسك بمقبض المياه وباشر بغسل جسمه. خرج، فوجد إيصالًا من جابي الكهرباء. وضعه في حقيبته ونزل الدرج مسرعًا كعادته. سيعود لينام هنا ليل الإثنين، وينتظر حتى التَّاسعة قبل أن يخرج علّه يوفَّق ويلتقي بجابي الكهرباء. وإلَّا فسيترك المبلغ تحت الممسحة ويتَّصل به على رقمه الخاص.

عدّ بلاط الرَّصيف متجاهلًا صوت الحفّارات. كلّ خمس بلاطات مترٌ واحد. انعطف عند قصر عكر، ولم ينظر إلى الرُّكام، ثمَّ نحو شارع سبيرس فكلّيّة الحقوق. رنَّ الهاتف منذرًا بوصول رسالة خطّيّة. نورا الخازن ستنتظره عند الخامسة أمام بوّابة الجامعة ليكملا سيرهما معًا إلى مقهًى جديدٍ في الحمراء. أجابها أنّه جاهزٌ للقائهما بكلام مقتضب. ضغط يسارًا، فمحا الرسالتين معًا.

مصرف لبنان، ثمَّ وزارة السّياحة أمام الإتوال.

هنا أضاعني والدي جليل في معرض الكتاب العربيّ في الصّالة الزجاجيّة أمام مبنى النّهار، قال. قد أخبرَ الطلّاب عن الحادثة. مرَّ في طريقه ببناية عند كنيسة الورديّة، وقد انتُزعت نوافذها الخشبيّة وسُوِّرت بستائر من التنك. محطّة جديدة سيتوقّف عندها مع الطلّاب يتناقشون فيها حول الإرث المعماري، وفقدان هوية المدن.

عبرت سيّدة مسنّة الطّريق على الرَّصيف من أمامه. تمهّلت ما إن وطِئت مستوى الطريق، والتفتت إلى ما كان ينظرُ إليه. ابتسمت له وهزَّت رأسها بمرارةٍ، متمتمةً كلمات لم يسمعها. استأنفت مسيرها ببطءٍ تجاه كنيسة الورديَّة، واختفى أثرُها وراء البنايات.

أكمل طريقه نزولًا راصدًا وجوه المارّة القلائل على جانبَي الطريق وحركة السَّيّارات الناشطة باتّجاه شارع الحمراء.

فاليري،

لو كانت الاتّصالات تحسّنت، لكنت تكلّمتُ معك مباشرةً عوضًا عن الكتابة. وضعتُ البطاقة في ظرفٍ مختوم عسى أن تكوني فهمتِ أنّها خاصّة. إذا كُنتِ تقرأينها أمام أحدهم توقّفي الآن! لقد وصلَ طردُ مغلّف الصُّور في الأمس وسوف أخبّئه كما طلبتِ. أتفهّم انزعاجك من هذه الصُّور، مع أنّي لا أجدها محاولة فاشلة لمانويل كما تقولين. لكنّني أخجل عندما أتذكّر أنّني خلعتُ حمّالة صدري أمام الجميع. كيف فعلتُ ذلك؟! هذه البطاقة عن شارع الحمراء في اللّيل هي آخر ما تبقّى لي من رائحة بيروت. لا يزال لديَ القليل منها، عشرٌ أو أكثر من تلك التي كنّا نشتريها معًا من فور ستبس داون قرب البيت. أرسلتُ خمسًا منها من نيويورك إلى أصدقائنا حول العالم قبل عيد الميلاد ما أثار دهشة عاملة مكتب البريد.

فاليري، أتمنّى أن يروق مزاجك قريبًا.. وإلّا فلا تتردّدي بالنُّزول صوب الكورنيش. تنزّهي قليلًا، وراقبي الأفق خلف البحار.

نيويورك في ٧

كانون الثاني ١٩٧٩

بيروت ٢٠١٦